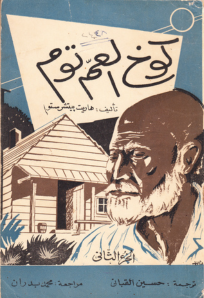


كوخ العم توم
تأليف: هاريت بيتشر ستو
الجزء الثانى
ترجمة: حسين القبانى
مراجعة: محمد بدران

الألف كتاب

(٢٦٣)



الجزء الثاني

ادارة الثقافة العامة
وزارة التربية والتعليم
الاقليم الجنوبي

تصدر هذه السلسلة بمعاونة المجلس الأعلى
لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الألف كتاب (٢٦٣)

كوخ العم توم

الجزء الثانى

ترجمه
حسين محمد القبانى

راجعه
محمد بدران

الناشر :
مطبعة أطلس
١١ - ١٣ شارع سوق التوفيقية - القاهرة



هذه ترجمة كتاب

UNCLE TOM'S CABIN

OR LIFE AMONG THE LOWLY

تأليف

Harriet Beecher Stowe

الفصل السادس عشر

سيدة توم وآراؤها

وقال سانت كلير لزوجته وهما جالسان الى مائدة الافطار بعد بضعة أيام من مجىء أوفيليا :

ـ يا مارى • لقد تبلج الآن فجر أيامك الذهبية • فها هى ذى ابنة عمى النيوانجلاندية ، العملية ، الواقعية، التى ستحمل عنك كل أعباء الحياة المنزلية ، وتتيح لك الوقت للراحة والانتعاش واسترداد الجمال والشباب • ويحسن الآن أن نقوم بعملية تسليم المفاتيح •

وقالت مارى وهى تعتمد برأسها فى تراخ على يديها :

ـ اننى أرحب بها من كل قلبى • وأعتقد انها ستكتشف اذا أرادت شيئا هاما وهو أننا معشر السيدات لسنا فى الواقع غير اماء فى هذه الدار •

فقال سانت كلير :

ـ لسوف تكتشف هذا بالتأكيد وتكتشف معه حقائق أخرى كثيرة بلا شك •

فردت عليه مارى قائلة :

ـ انك تتحدث عن الاحتفاظ بالعبيد ، كأنما نفعل هذا لننال بفضلهم الراحة • وأنا واثقة من أننا اذا نظرنا اليهم على هذا الاعتبار ، لجاز لنا أن نتركهم من فورهم يمضون الى حال سبيلهم•

وحدقت ايفانجلين بعينيها الواسعتين الجادتين فى وجه أمها ، وقد بدت فيهما سمات الجد والحيرة ثم قالت ببساطة :

ـ ولماذا تحتفظون بهم يا أماه ؟

ـ لست أدرى الا أنهم مصيبة ·· انهم مصيبة حيـــاتى · اننى أعتقد أن أكثر مرضى بسببهم أكثر من أى شيء آخر · وانى لأعرف أن عبيدنا أسوأ العبيد الذين ابتلى بهم أحد من الناس ·

فقال سانت كلير :

ـ ان أعصابك مضطربة فى هذا الصباح يا مارى · فأنت تعرفين أن الأمر ليس كذلك · فعنـــدك مامى ، أحسن مخلوق على قيـــد الحياة · وماذا كان يمكنك أن تفعلى بدونها ؟·

فقالت مارى :

ـ ان مامى أحسن من عرفت فى حياتى · ولـــكن مامى أصبحت الآن أنانية ·· أنانية جدا · وهذه رذيلة كل ذلك الجنس ·

فقال سانت كلير فى جد ورزانة :

ـ ان الأنانية فعلا رذيلة رهيبة ·

ـ سأحدثك عن مامى ، فانى أرى أن من الأنانية فيها أن تستغرق فى النوم العميق طوال الليالى · فهى تعرف أننى فى حاجة الى بعض الرعاية فى كل ساعة تقريبا ، عندما تعترينى أسوأ النوبات · ومع ذلك فان من الصعب ايقاظها · وأنا فى هذا الصباح فى أسوأ حال بسبب ما بذلت من جهد فى ايقاظها فى الليلة الماضية ·

فقالت ايفا :

ـ ألم تجلس معك أخيرا كثيرا من الليالى يا أماه ؟

فقالت مارى بحدة :

ـ كيف عرفت هذا ؟ أظن أنها شكت لك من هذا ·

ـ انها لم تشك ، وانما قالت لى انك أرقت ليالى كثيرة متتابعة · وقال سانت كلير :

ـ ولم لا تكلفين جين أو روزا بأن تحل محلها ليلة أو اثنتين حتى تستريح ·

فردت عليه ماري قائلة :

ـ كيف تشير بهذا ؟ انك يا سانت كلير لا تعرف المجاملة • ان حالتي العصبية تجعل أقل نفس يزعجني ، ولا شك أن وجود خادم غريبة عني سيدفع بي الى الجنـــون • فاذا كانت مامي تهتم بأمري حقا ، فيجب أن تظهر لي هذا الاهتمام ويجب أن يكون من الســهل ايقاظها • نعم • ان هذا في مقدورها • فقــد سمعت عن أناس لهم خدم متفانون في خدمتهم • ولكن الحظ لم يرزقني بأمثال هؤلاء •

وتنهدت • وكانت المس أوفيليا تنصت الى هذا الحديث في جــد مصحوب بالفطنة وقوة الملاحظة ، ولكنها ظلت مطبقة الشــفتين في عزم واصرار ، كأنما تريد أولا أن تحدد موقفها تماما قبــل أن تعلن آراءها •

وقالت ماري موجهة الحديث الى أوفيليا :

ـ ان لمامي طبيعة خيرة • انها لطيفة ومحترمة • ولكنها في أعماق نفسها أنانية • فهي مثلا لا تكف أبدا عن القلق والانشــــغال بأمر زوجها • فأنا عنـــدما تزوجت وجئت للاقامة هنــا ، اضطررت الى احضارها معي بطبيعة الحال • أما زوجها فلم يستطع أبي الاستغناء عنه • فهو حداد ، ووجوده عند أبي ضروري بطبيعة الحال • وقد فكرت وقلت يومذاك ان من الأفضل أن تنفصل مامي عنه نهائيا ، لأنه ليس من المحتمل أن يجتمعا معــا بعد ذلك أبدا • والآن أقول ليتني أصررت على تنفيذ هذا الرأي ، وزوجت مامي برجل غــيره • ولكنني كنت حمقاء متسامحة • ولم أشــأ أن أصر على رأيي • وقد قلت لمامي يومذاك انه لا يجوز لها أن تتوقع رؤية زوجهــا أكثر من مرة أو مرتين بقية حياتهـــا ، ذلك بأن جو مزرعــة أبي لا يناسب صحتي ، وليس في مقدوري الذهاب اليها • ونصحتها من ثم بالزواج من شخص آخر ، ولكنها أبت في اصرار • فهي عنيدة الى حــد ما ، في أمور لا يعرفها أحد غيري •

فقالت أوفيليا :

ـ ألها أبناء ؟

ـ نعم • اثنان •

ـ أعتقد أنها تحس بلوعة الافتراق عنهما •

ـ لم أستطع بطبيعة الحال أن آتى بهما معى • انهما طفلان قذران ولا أطيق وجودهما هنا • وعدا هذا فانهما يشغلان كثيرا من وقتها • ولكننى أعتقد أن مامى كانت على الدوام شديدة التذمر لفراقهما • وهى لا تريد أن تتزوج بأحد آخر وأعتقد أنها رغم معرفتها لشدة حاجتى اليها ورغم ضعف صحتى لا تتردد فى العودة اليه غدا اذا أتيحت لها الفرصة • نعم اننى أعتقد هذا حقا • فهم جميعا جد أنانيين ، حتى أحسن من فيهم •

فقال سانت كلير فى جفاء :

ـ ان التفكير فى هذا محزن مزعج •

ونظرت اليه أوفيليا بامعان ، ولاحظت مدى الشعور بالغيظ والاستياء المكتوم ، والتهكم الظاهر المرتسم على شفتيه الملتويتين وهو يتحدث • أما مارى زوجته فقد مضت تقول :

ـ لقد كانت مامى دائما موضع رعايتى واهتمامى • وليت بعض خدمكم الآتيات من الجنوب تشاهدن خزانات ملابسها المنسوجة من الحرير والموصلين الحقيقى والكتان الرفيع الناعم • لقد كنت أشغل نفسى أحيانا عجز النهار كله فى تهذيب قبعاتها واعدادها للذهاب معى الى بعض الحفلات • أما سوء المعاملة منا ، فانها لم تعرف منه شيئا • وهى تتناول قهوتها المركزة أو شايها الخاص كل يوم مع السكر الأبيض اللازم لهما • ومن أفظع الأشياء بحق ، أن سانت كلير يريد أن تسود الحياة الراقية بين الخدم ، ومن أجل هذا أصبح كل واحد منهم يعيش كما يشتهى • والواقع أن خدمنا مدللون أكثر مما ينبغى • وأعتقد أن بعض السبب فى أنانيتهم وسلوكهم مسلك الأطفال البالغين راجع الينا نحن • ولكننى كثيرا ما تحدثت فى هذا الأمر مع سانت كلير حتى مللت الحديث فيه •

فقال سانت كلير وهو يتناول صحيفة الصباح :

ـ وكذلك أنا ٠

وكانت ايفا ٠٠ ايفا الجميلة ٠٠ واقفـــة تنصت الى أمهـا وقد ارتسمت على محياها أمارات ذلك الاهتمـــام العميق الغامض الذى لا يشاركها فيه غيرها ٠ وأخيرا استدارت برفق الى ما وراء مقعـــد أمها ، ثم طوقت عنقها بذراعيها فقالت لها مارى :

ـ ماذا تريدين الآن يا ايفا ؟

ـ ألا أستطيع يا أماه أن أسهر على راحتك ليلة واحدة لا أكثر ؟ فأنا أعرف أن من واجبى ألا أثير أعصابك ، وألا أستغرق فى النوم٠ فأنا كثيرا ما أظل فى الفراش مؤرقة طوال الليل أفكر ٠

فقالت مارى :

ـ ما هذا الهراء يابنيتى ؟ حقا انك لطفلة عجيبة ٠

فقالت الطفلة فى دعة :

ـ ولكن ٠٠ ألا تسمعين لى يا أماه ؟ اننى أعتقـــد أن صحة مامى ليست طيبة ، فقد ذكرت لى أن الصداع يلازمها فى الأيام الأخيرة٠

ـ ليس هذا الا لونا من ألوان تذمر مامى ٠ فان مامى كغيرها من بنات جنسها ، تثير ضجة كبيرة لمجرد الشعور بالصداع أو الألم فى الاصبع ٠ ولا يصح تشجيعها هى وأمثالها على هذا ٠ أبدا ٠

ثم قالت وهى تلتفت الى أوفيليا : ان هـــذا من المبـــادىء التى أومن بها ولسوف ترين ضرورة هـــذه النصيحة ٠ انك اذا شجعت الخدم على الاستسلام لكل شعور لا يحبونه مهما يكن صعبا صغيرا والى الشكوى من أقل شىء ، فلن يكون ثمة نهاية لهـــذا كله ٠ وأنا نفسى لا أشكو أبدا ولا يعلم الا الله مدى ما أقاســـيه من آلام ٠ فأنا أشعر أن من واجبى أن أحتمل الألم بهدوء ٠ وهذا ما أفعله ٠

ونمت عينا أوفيليا المســـتديرتان عن الدهشة لهـــذه العبارة التى اختتمت بها حديثها لسانت كلير سخيفة مضحكة الى حد جعله ينفجر ضاحكا بأعلى صوته ٠

وقالت ماري بصوت الشهيد المعذب :

ــ ان سانت كلير يضحك دائما كلما أبديت أقل اشارة الى ضعف صحتي • وكل الذي أرجوه ألا يأتي يوم يتذكر فيه هذا كله •

ثم وضعت منديل يدها على عينيها •

وعندئذ ساد بطبيعة الحال صمت محرج • ولــــكن سانت كلير نهض أخيرا ونظر الى ساعته ، وقال انه مرتبط بموعـــــد في مكان بأدنى الشارع ، ولم تلبث ايفا أن تسللت وراءه ، فلم يبق حـــول المنضدة الا ماري وأوفيليا •

وقالت ماري وقـــد رفعت منديلهـــا عن عينيهـــا ولوحت به بقوة بعد أن غاب عن نظرها « المذنب » الذي كان من شأنه أن يتأثر بفعلها هذا :

ــ هذا هو سانت كلير بعينه • انه لا يدرك أبدا ، ولا يســـتطيع أن يدرك ، ولن يستطيع أن يدرك مطلقا مدى ما أعانيـــه وما ظللت أعانيه أعواما طوالا • وكان يمكن أن نلتمس له العذر لو أني كنت من النوع الذي لا يكف عن الشكوى أو الذي يثير ضجة كبيرةبسبب توعك صحته • فان الرجال بطبيعة الحال يسأمون من شـــكايات زوجاتهم المستمرة ، ولكنني أحتفظ بآلامي لنفسي ، وتحملت ••• وتحملت الكثير حتى أصبح سانت كلير يعتقـــد أن في مقدوري أن أحتمل أي شيء •

ولم تدر أوفيليا على وجه التحديد ما هي الاجابة التي تتوقعهـــا ماري عن حديثها هذا •

وبينما هي تفكر فيمـــا ينبغي أن تقول ، أخـــذت ماري تمســـح دموعها شيئا فشيئا • وتسوي شعرها وتصلح هندامها بوجـــه عام كما تفعل اليمامة بعد رذاذ من المطر ، وبدأت حـــديثا منزليا مـــع أوفيليا ، يدور حول أصونة الثياب والخزانات والمكاوي ومخـــازن الطعام وغير هـــذا أو ذاك من الأمور التي كان من المتفق أن تتولى أوفيليا أمرها • وكانت ماري تلقي عليهـــا كثيرا من التحـــذيرات

والنصائح تجعل رأس أي فتاة أخرى غير أوفيليا الواقعية العملية يدور من فرط الارتباك والحيرة ·

وقالت ماري أخيرا :

ـ والآن أعتقد أني قلت لك كل شيء · ولهذا فانه عندما تعتريني النوبة التالية من الصداع ، سوف تتمكنين من القيام بكل شيء دون حاجة آلى استشارتي · ولم يبق غير ايفا · انها تحتاج الى رقابة ·

فقالت أوفيليا :

ـ يبدو لى أن ايفا طفلة لطيفة جدا · ولم أر في حياتي خيرا منها ·

فقالت أمها :

ـ ان ايفا غريبة الأطوار جدا · وانها لتنفرد بصفات غريبة ليست مثلى فى أى شيء ·

وتنهدت ماري كأنما ترى فى هذا ما يثير الشجن حقا ·

أما أوفيليا فقد قالت فى نفسها وان أوتيت من الحكمة ما منعها من النطق بهذا :

« أرجو ألا تكون مثلك أبدا »

وعادت ماري تقول :

ـ ان ايفا تقضى معظم أوقاتها مع الخدم · وأنا أرى أنه لا بأس فى هذا مع بعض الأطفال فأنا كنت دائما ألعب مع الزنوج الصغار فى بيت أمي ، ولم يكن فى هذا أبدا ما أضر بى · ولكن يبدو أن ايفا تضع نفسها دائما لسبب ما فى مستوى واحد مع أى مخلوق يقترب منها · وانه لأمر يثير العجب من هذه الطفلة · وقد حاولت عبثا أن أغير عادتها هذه · ولهذا أعتقد أن سانت كلير يشجعها على هذا المسلك · والواقع أن سانت كلير يدلل كل مخلوق تحت سقف هذا البيت ما عدا زوجته ·

ومرة أخرى التزمت أوفيليا الصمت وهى لا تدرى ماذا تقول ·

وواصلت مارى حديثها قائلة :

ـ ليس ثمة وسيلة لمعاملة الخدم الا زجرهم وكبح جماحهم وابقاءهم على هذا الوضع ولقد كانت هذه طريقتى فى معاملتهم التى خلقت عليها منذ الطفولة • ولكن ايفا تستطيع أن تفسد خدم بيت بأكمله ، وأنا يقينا لا أدرى ماذا تفعل عندما تصبح ربة بيت • اننى أعتقد أن على الانسان أن يكون عطوفا على الخدم • وقد كنت كذلك دائما • ولكن ينبغى أن نشعرهم بحقيقة وضعهم وهذا ما لا تفعله ايفا أبدا • وليس فى وسع الانسان أن يفهمها أية مبادىء أولية عما ينبغى أن تكون عليه مكانة الخدم • فلقد سمعت كيف عرضت أن تسهر الليل على راحتى حتى تمكن مامى من أن تنام وليس هذا الا مثالا لما يمكن أن تفعله ايفا دائما مع الخدم لو تركت وشأنها •

وعندئذ قالت أوفيليا فى غير مجاملة :

ـ عجبا • المفروض أنك تعتقدين أن الخدم خلائق آدمية ، وأن من حقهم الاستمتاع ببعض الراحة اذا تعبوا •

ـ لا شك فى هذا بطبيعة الحال ، اننى أهتم أشد الاهتمام بأن أتيح لهم كل مايتيسر لى أن أتيحه ، أو السماح لهم بحيث لا يخرج الانسان عن مبدئه كما تعلمين ، ففى مقدور مامى مثلا أن تعوض سهرها معى بالنوم فى وقت ما من اليوم • وليس ثمة مشقة فى هذا • فهى أكثر الناس نوما وأقدرهم عليه • ان هذه المخلوقة تعمد الى النوم فى أى مكان وفى كل مكان سواء كانت مشغولة بالخياطة أو جالسة أو واقفة ، وليس ثمة خطر فى أن تنال مامى ما يكفيها من النوم ولكن من السخف أن نعامل الخدم كأنهم أزهار رقيقة مستوردة من خارج البلاد • أو زهريات خزفية ثمينة •

قالت مارى هذا وهى تغوص فى فتور وتراخ بين وسائد وحشايا متكأ وثير وتتناول زجاجة عطر طريفة من البللور الفاخر ، ثم مضت قائلة بصوت مهذب ، رقيق خافت ، كأنها آخر أنفاس زهرة ياسمين عربية ، أو شىء روحى مماثل لها :

ـ أترين يا ابنة العم أوفيليا ؟ أننى لا أتحـدث عادة عن نفسى ٠ وليست هذه عادتى لأنها عادة لا ترضينى ٠ والحق أنى لم أوت من القوة ما أستطيع به الحديث عن نفسى ٠ ولكن هنـــاك بعض نقط أختلف فيها مع سانت كلير ٠ ان ســـانت كلير لم يفهمنى أبدا ولم يقدرنى ألبتة ٠ وأعتقد أن هذا هو السبب الأساسى فى سوء صحتى٠ ان نوايا سانت كلير لطيبة ، ولا يسعنى الا الاعتقاد بهذا ٠ ولـــكن الرجال عادة أنانيون ، لا يراعون حقوق النساء ٠ وان هذا ، عـلى الأقل ، هو احساسى نحوهم ٠

ولم يكن نصيب أوفيليا من الحذر الطبيعى المعروف عن أهـــل نيو انجلند قليـــلا وكذلك لم يكن ينقصـــها الفزع من التورط فى المشكلات العائلية الخاصة ٠ رأت بعين بصيرتها أن شيئا من هـــذا متوقع ٠ ولهذا لم يسعها الا أن تظهر بملامحها الصارمة حيادها فى هذه الأمور ٠ ومن ثم أخرجت من جيبها جـــوربا طوله نحو ياردة وربع ياردة كانت تحتفظ به امتثالا لقول الدكتور وتسب « ان اليد الفارغة نحسة » وبدأت تعمل فيه بنشاط كبير بعد أن زمتشفتيها بطريقة تقول بوضوح أبلغ من كل حديث « لا تحاولى أنتجرينى الى الحديث فأنا لا أريد أن يكون لى شأن بمشاكلكم » ٠ وقد بدت فى الواقع فى جلستها جامدة العواطف كأنها من الصخر ٠ ولكن مارى لم تحفل بهذا كله ٠ فقـــد كان الى جانبها من تتحدث اليـه ، وقد أحست أن من واجبها أن تتحدث وحسبها هذا ٠ ومن ثم استجمعت قوتها باستنشاق زجاجة العطر مرة أخرى ومضت تقول :

ـ أترين ٠ لقد أحضرت ممتلكاتى وعبيدى معى عنـــدما تزوجت سانت كلير ، ومن قانوننا أن أتصرف فى هـــذه الأملاك وأولئك العبيد كما أشاء ٠ وقد كان لسانت كلير ممتلكاته الخاصة وعبيده٠ وأنا راضية بالطريقة التى يدير بهـــا ما يمتلكه ٠ ولـــكنه لا ينفك يتدخل فى شئونى وان له آراء شاذة متطرفة ، لا سيما فيما يتعلق بمعاملة الخدم ، بل انه يتصرف فى الواقع وكأنما يضع الخدم فى مرتبة أفضل منى ، ومنه أيضا ، ذلك بأنه يتركهم يثيرون له كـل أنواع المشكلات دون أن يعترض على ذلك اطلاقا ٠ وسانت كلير فى

بعض الأحوال انسان رهيب بحق فهو يفزعني ، رغم ما يبدو عليه بوجه عام من طيبة قلب ورحابة صدر • فقد قرر مثلا ، بطريقة حاسمة قاطعة ، أن ضرب العبيد ممنوع منعا باتا فى هذا البيت أيا كانت الظروف والأحوال ، الا اذا كان الضرب صادرا منه أو مني • وقد بدا لى من طريقته فى تنفيذ هذا القرار أنه لا يمكن أبدا العمل على معارضته • وهذا يعنى أنه لا يمكن أن يضرب عبد هنا ، لأن سانت كلير لا يرفع يده بضرب أحد ، مهما يكن السبب ، وانما — أترين الى أى مدى تبلغ القسوة فى مطالبتى بتنفيذ هذا القرار ؟فهل لدى من القوة مايكفى لأن أضرب أحدا ؟ وليس هؤلاء الخدم ، كما تعلمين ، الا أطفالا كبارا •

فقالت أوفيليا بايجاز :

— اننى لا أعرف عن هذا شيئا ، وأحمد الله على أنى لا أعرف •

— ولكن عليك أن تعرفى بعض الشىء عن هذا ، وأن تعرفيه لمصلحتك اذا بقيت هنا • فانك لا تدرين أية مجموعة هم من الخدم المثيرين ، الأغبياء ، المهملين ، الحمقى ، الجاحدين ، الصبيانيين •

وكان يبدو أن مارى تنشط الى حد عجيب عندما تتناول هذا الموضوع بالحديث ، ومن ثم فقد فتحت الآن عينيها ، وبدا أنها نسيت تماما ضعف صحتها ومضت قائلة :

— انك لا تعرفين ، ولن تستطيعى أن تعرفى ، ألوان المضايقات التى تتعرض لها ربة البيت فى كل يوم ، بل وفى كل ساعة ، وفى كل مكان ، وبكل وسيلة ، على أيدى هؤلاء الخدم ، ولكن لا جدوى من الشكوى لسانت كلير • انه يتحدث اليك بأغرب الأقوال • يقول اننا نحن الذين طبعناهم بهذه الطباع ، ومن ثم يجب أن نتحملهم • ويقول اننا نحن السبب فى أخطائهم كلها وأن أشد القسوة أن نرتكب نحن الخطأ ثم نعاقب غيرنا عليه • ويقول اننا ما كنا لنفعل خيرا منهم لو أنناكنافى موضعهم ، كان علينا أن نستدل من أحوالهم على أحوالنا نحن •

فقالت أوفيليا بايجاز :

ـ ألا تؤمنين أن الله خلقهم وخلقنا من أصل واحد ؟

ـ لا • يقينا • لست أنا التى تعتقد هـــذا • انه لأمر عجيب • انهم من جنس مهين حقير •

فقالت أوفيليا فى استنكار متزايد :

ـ ألا ترين أن لهم أرواحا خالدة ؟

فقالت مارى وهى تتثاءب :

ـ ان هذا لا يشك فيه أحد طبعا • أما مساواتهم بنـــا بحال من الأحوال كأننا يمكن مقارنتنا بهم ، فهذا كما تعلمين محـــال ، ومن أعجب الأشياء أن سانت كلير قد تحدث الى قائلا ان ابعاد مامى عن زوجها يشبه ابعادى أنا عن زوجى • وتلك مقارنة لا يمكن أن تكون• فليس فى مقدور مامى أن يكون لها نفس الشـــعور الذى يجب أن يكون لى • ان الأمر هنا مختلف جدا • ولا شك فى هـــذا بطبيعة الحال • ومع ذلك فان سانت كلير يتظاهر بأنه لا يرى هذا الاختلاف• وكأن فى مقدور مامى أن تحب ابنيها الصغيرين القذرين كمـــا أحب أنا ايفا • ومع ذلك فقد حاول سانت كلير جديا ، أن يقنعنى بأنه من واجبى رغم ضعف صحتى ورغم كل ما أعانيه أن أسمح لمـــامى بأن تعود الى زوجها ، وأستخدم جارية أخرى للعناية بى بدلا منها • وكان هذا أكثر مما أستطيع أن أحتمل ـ على كثرة احتمـــالى ـ فأنا عادة لا أكشف عن مشاعرى لأن مبدئى هو أن أحتمل كل شىء فى صمت فهذا من الواجبات التى تنوء بها الزوجة • وأنا أحمل هـــذا الواجب • ولكننى فى تلك المرة انفجرت ، ومن ثم لم يحاول منـــذ ذلك الحين آن يشير الى هذا الموضوع مرة أخرى • غير أنى أرى من نظراته ، ومن بعض أقواله أنه لا يزال يفكر فى هـــذا • انه لأمر يثير الأعصاب ويضيق له الصدر •

وبدا على أوفيليا أنها تخشى كثيرا أن تفوه بشىء ، ولـــكنها راحت تعمل فى نشاط بابرتها بطريقة تحمل الكثير من المعـــانى ، لو كان فى مقدور مارى أن تدرك ذلك •

ثم مضت مارى تقول :

ــ ومن هذا ترين ما سوف تواجهين فى عملك : منزل بلا قواعد أو نظم • فيه خدم يسيرون على هواهم كمـــا يحلو لهم ، ويفعلون ما يحلو لهم وينالون ما يشتهون الا حيث فرضت أنا سـلطانى فى هذا البيت رغم صحتى الواهية • اننى أصبر وأتحمـــل أحيانا ، وأحيانا أنفجر ثائرة ، ولكن هذا كله يزيد صحتى سـوءا ، ولو أن سانت كلير تصرف معهم كما يتصرف غيره ••

ــ وكيف يتصرف غيره ؟

ــ عجبا • يرسل بهم الى مركز الشرطة أو الى أى مكان آخر حيث يجلدون • فهذه هى الطريقة الوحيدة • وأعتقد أنه لو لم أكن ضعيفة الجسم ، واهنة الصحة ، لعرفت كيف أدير الأمور أفضل كثيرا مما يديرها سانت كلير •

فسألتها أوفيليا قائلة :

ــ اذن كيف يتمكن سانت كلير من ادارة شئونه ؟ فأنت تقولين انه لا يرفع يده بضرب أحد من عبيده •

ــ آه •• ان للرجال كما تعلمين مهابة وسلطانا أكثر مما للنساء ، وهم أقدر منهن على ذلك • وعدا هذا فاذا حدث وحدقت النظر الى عينيه وهو يتحدث بعزم ، لرأيت شيئا عجيبا •• رأيت ما يشـبه وميض النار يشع منهما • وأنا نفسى أخشاه عندئذ ، والخدم بطبيعة الحال يعلمون أن عليهم أن يحـــاذروا من غضبته هـــذه • اننى لا أستطيع أن أفعل بكل ثوراتى وتعنيفى ما يفعله هو بلمحة واحدة من عينيه اذا كان جادا بحق • نعم ليس هناك مشكلات خدم بالنسبة لسانت كلير • وهذا هو السر فى أنه لا يدرك شعورى • ولـــكنك ستعرفين ، حين تتولين أمر البيت ، انك لن تستطيعى القيــام بشىء بلا شدة فانهم كسالى مخادعون خبثاء •

وهنا دخل سانت كلير فى بطء وتراخ وقال :

ــ النغمة القديمة • ما أقسى الحساب الذى يجب أن تسويه هذه الخلائق الشريرة فى آخر الأمر لا سيما بسبب كسلهم •

ثم تمدد بكل جسمه على متكأ مواجه لمارى ومضى يقول :

ــ ألا ترين يا ابنة العم أن كسلهم هذا غير قابل للصفح والغفران، بفضل المثل الذى نضربه ، أنا ومارى لهم فى هذا الكسل ؟

فقالت مارى :

ــ آه · ما أشد خبثك الآن يا سانت كلير ·

ــ أحقا أنا خبيث الآن ؟ عجبـــا لقــد كنت أحسب أنى أحسن الحديث الى أكبر حد ·· وأنا أحاول أن أؤيد ملاحظاتك يا مارى على الدوام ·

فقالت مارى :

ــ أنت تعرف أنك لم تكن تعنى شيئا من هذا يا سانت كلير ·

ــ اذن لابد أنى قد أخطأت · شكرا ياعزيزتى اذ قومت خطأى ·

فقالت مارى

ــ انك تحاول أن تثير أعصابى ·

ــ نعم يا مارى حقا · ان حرارة اليوم آخذة فى الازدياد ، وقــد فرغت توا من مشادة طويلة مع أدولف أرهقتنى الى أقصى حد ·ولهذا أرجو أن تكونى رضية معى الآن ، وأن تسمحى لى بأن أستريح فى ضوء ابتسامتك ·

فقالت مارى

ــ ماذا حدث من أدولف ؟· ان وقاحة هذا الشخص تزداد الى حد لم أعد أطيقه وكل ما أتمناه أنه لو كانت لى السلطة المطلقة للتحكم فيه ، اذن لعرفت كيف أكسر شوكته ·

فقال سانت كلير :

ــ ان ما تقولينه ياعزيزتى ، موســـوم بدقتك المعتــادة وحسن ادراكك · أما عن أدولف فاليك أمره · لقد طال به العهد فى تقليد

حركاتى وسكناتى وفضائلى حتى أصبح أخيرا يخطىء فيحسب أنه هو السيد • وقد اضطررت أخيرا أن أبين له خطأه بعض الشىء •

فقالت مارى :

ــ وكيف فعلت هذا ؟

ــ عجبا • لقد اضطررت لأن أجعله يفهم بوضوح أننى أفضل الاحتفاظ ببعض ملابسى لألبسها أنا • وكذلك قصرت حبه للظهور على نصيب محدود من ماء الكولونيا • وقد بلغت بى القسوة أنى لم أسمح له بأكثر من اثنى عشر من أحسن مناديلى التيلية الرفيعة النسيج • وقد حاول أدولف أن يتغطرس على بسبب هذا فاضطررت لأن أتحدث اليه كوالد ، لكى أعيده الى الصواب •

فقالت مارى :

ــ آه • متى تتعلم يا سانت كلير كيف تعامل خدمك ؟ ان الطريقة التى تدللهم بها لا تطاق •

ــ عجبا • ما هو الضرر ، رغم كل هذا فى رغبة هذا الكلب المسكين فى أن يتشبه بسيده ؟ وما دمت لم أستطع أن أحسن تربيته بحيث يمتنع عن السطو على مناديلى التيلية وعطورى فلماذا لا أعطيه اياها ؟

وهنا قالت أوفيليا بلهجة حاسمة خالية من المجاملة :

ــ ولماذا لم تحسن تربيته ؟

ــ ان هذا الأمر يستلزم جهدا كبيرا • والكسل يابنة العم ، الكسل ، انه يفسد من النفوس أكثر مما تستطيعين اصلاحهم بعصاك • فلولا الكسل لكنت الآن ملاكا كاملا • وأنا أميل الى الاعتقاد بأن الكسل هو ما تعود أن يقول عنه صاحبك العجوز الدكتور بوثيريم فى فيرمونت ، انه « خلاصة جميع الشرور » ولا شك أن هذا أمر فظيع بحق •

فقالت أوفيليا :

ـ أعتقد أن عليكم لعبيدكم تبعة رهيبة يا أصحاب العبيد ٠

ثم انطلقت فجأة تقول بفيض من الحماسة الدافعة التى كانت تتجمع وتقوى فى نفسها طوال الصباح :

ـ وأنا لا أقبل أن أتحمل هذه التبعة ولو أعطيت ملك هذه الأرض وألف أرض مثلها فالواجب عليكم أن تعلموا عبيدكم وأن تعاملوهم معاملة المخلوقات العاقلة المخلوقات التى سوف تحشرون معها بين يدى الله عز وجل ٠

ونهض سانت كلير بسرعة وقال :

ـ آه ٠٠ لا ٠٠ لا ٠٠ ماذا تعرفين عنا ؟

ثم جلس الى البيان وراح يعزف مقطوعة موسيقية حية ٠ وكانت لسانت كلير موهبة موسيقية لا شك فيها ٠ فلمساته كانت بارعة ثابتة وأصابعه تطير وترفرف على مفاتيح الأوتار بسرعة وخفة كخفة الطير ورشاقته مع الثبات والاتزان ٠ وظل يعزف المقطوعة تلو الأخرى كما يفعل الرجل الذى يسترد بالموسيقى مرحه ٠ وبعد أن فرغ من عزفه نهض وقال فى مرح :

ـ والآن يا ابنة عمى ، لقد ألقيت علينا محاضرة طيبة ، وأديت بذلك واجبك ، وأنا على الجملة قد ازداد تقديرى لك لهذا السبب ، ولست أشك بأى حال أنك ألقيت على بدرة من الحقيقة ، رغم أنها ، كما ترين ، قد أصابتنى فى وجهى مباشرة بحيث لم أستطع ، فى أول الأمر ، أن أعرف قيمتها ٠

وقالت مارى عندئذ :

ـ أما أنا فلا أرى أية فائدة فى هذا النوع من الحديث ٠ واذا كان أحد يفعل للخدم أكثر مما نفعل لهم فانى بلا ريب أحب أن أعرفه ، وان معاملتنا تلك لم تفدهم أدنى فائدة ٠ انهم يزدادون سوءا ٠ أما اصلاح أمورهم بالحديث ، أو بأى شىء من هذا القبيل ، فانى واثقة من أنى تحدثت اليهم ونصحت لهم حتى تعبت وبح صوتى من تنبيههم الى واجبهم وما الى ذلك ٠ ولا شك أن فى مقدورهم الذهاب الى

الكنيسة عندما يشاءون ، وذلك رغم أنهم لا يفهمون من الموعظة أكثر مما تفهم الخنازير • ولهذا فليس ثمة فائدة كبيرة ترجى من ذهابهم اليها ، كما أرى • ولكنهم يذهبون ، ومن ثم فان كل فرصة متاحة لهم • ولكنهم ، كما سبق أن ذكرت ، من جنس منحط مهين ، وسيبقون دائما كذلك ، ولا حيلة في هذا اطلاقا • انك لاتستطيعين أن تصلحى أمرهم مهما حاولت • وأقول لك يا ابنة العم أوفيليا انني حاولت هذا الاصلاح الذى لم تحاوليه أنت • فلقد ولدت ونشأت بينهم ، وأنا أدرى منك بهم •

ورأت أوفيليا أنها تحدثت بما فيه الكفاية ، ومن ثم لزمت الصمت ، بينما راح سانت كلير يصفر بشفتيه لحنا • فقالت له مارى :

ـ يا سانت كلير • انني أرجو ألا تصفر • فانك بهذا تزيد صداع رأسى •

فقال سانت كلير :

ـ اذن لن أصفر • وهل هناك شيء آخر تريدين ألا أفعله ؟

ـ أحب أن لو كان لديك أى نوع من العطف على آلامى • فأنت لا تعطف على بحال •

فقال سانت كلير :

ـ يالك من ملاك عزيز ظالم !

ـ ان حديثك لى على هذا النحو يثير أعصابى •

ـ اذن كيف يمكن التحدث اليك ؟ انني مستعد للحديث حسب الأوامر ـ بأية طريقة تقترحينها •• ولست أبغى بهذا الا أن أنال رضاك •

وهنا رنت ضحكة مرحة فى الفناء اخترقت الستائر الحريرية المسدلة على الشرفة ، فمضى سانت كلير الى الخارج بعد أن رفع الستائر ، ثم ضحك هو أيضا •

وقالت أوفيليا وهى آتية نحو السياج :

ــ ما هذا ؟

وهناك كان توم جالسا على مقعد صغير بالفناء يعلوه الطحلب ،وقد امتلأت كل عروة من عرى سترته بأزهار الياسمين ، بينما كانت ايفا تعلق ــ وهى تضحك فى جذل ــ اكاليلا من الورد حول عنقه ، ثم جلست على ركبته ، كعصفور غريد ، وهى لا تزال تضحك وتقول :

ــ يا توم • لشد ما تبدو مضحكا •

وكان توم يبتسم فى هـــدوء وعطف ، ويبدو عليه ، بطريقتـه الهادئة ، أنه يستمتع بهذه التسلية بنفس القدر الذى تستمتع به سيدته الصغيرة ، ولما رفع عينيه ورأى ســيده ، ارتسمت فى عينيه نظرة فيها شيء من الاسترحام ومن الاعتذار •

وقالت أوفيليا لسانت كلير :

ــ كيف تسمح لها بهذا ؟

فأجاب سانت كلير قائلا :

ــ ولم لا ؟

ــ عجبا ! لست أدرى • ولكن الأمر يبدو لى فظيعا •

ــ انك لا ترين ضيرا فى أن تداعب طفلة كلبا آخر كبيرا ، حتى لو كان أسود اللون • أما أن تداعب مخلوقا يستطيع أن يفكرويقدر ويشعر ، وله روح خالدة ، فانك ترتعدين لمجـرد التفكير فى هذا • اعترفى بذلك يابنة عمى • فأنا أعرف تمام المعرفة حقيقة مشـــاعر الكثيرين منكم ياسكان الشمال • فليست فيهـــا ذرة من الفضيلة لا توجد لدينا • ولكننا تعودنا أن نفعل ما ينبغى أن يعلمنـــا اياه الدين • فقد محت منا العادة شعور النزوات الشخصية • فكثيرا ما لاحظتأثناء تجوالى فىولايات الشمال أنهذه النزوات أقوى عندكممنها عندنا • انكم تشمئزون منهم كما يشمئز الانسان من حية أو عنكب سام ، ومع ذلك فانكم تستنكرون ما يقـع عليهم من مظالم • فأنتم

لا ترفضون أن يهينهم أحد ، ولكنكم ترفضـون فى نفس الوقت أن يكون لكم بهم أية صلة · انكم تفضلون أن تبعثوا بهم الى افريقيا ، بعيدا عن أنظاركم وأنوفكم ، ثم تبعثون وراءهم بمبشر أو اثنين لكى يبذلوا كل ما يستطيعون من تضحية فى سبيل رفع مستواهم من أقصر طريق · أليست هذه هى الحقيقة ؟

فقالت أوفيليا بعد تفكير :

ــ نعم يابن عمى · قد يكون فيما تقول بعض الحقيقة ·

فعاد سانت كلير يقول وهو يعتمد على السياج ويرقب ايفا وهى تنصرف آخذة توم معها :

ــ كيف يمكن أن تكون حال هؤلاء المساكين الوضيعين بدون أطفال ؟ ان طفلك الصغير هو فى الواقع الديموقراطى الحقيقى الوحيد · وان توم الآن بطل فى عينى ايفا بأقاصيصه عن أعجب الأشياء فى نظرها · وأغانيه وأناشيده الدينية تعتبر فى سمعها أحسن من التمثيليات الغنائية · أما الأشياء الصغيرة التافهة التى تملأ جيوبه فهى فى رأيها منجم من الجواهر · وهو أعجب انسان ذى بشرة سوداء فى العالم كله وتلك زهرة من الجنة أرسلها الله خاصة للبائسين والمساكين وقل أن يجدوا أزهارا غيرها من نوع آخر ·

فقالت أوفيليا :

ــ هذا عجيب يابن عمى ، ان من يسمعك تتحدث ، قد يحسبك أستاذا ·

فقال سانت كلير

ــ أستاذا ؟

ــ نعم أستاذ فى الدين ·

ــ كلا · لست أستاذا من النوع الذى يريده أهل بلدتك · وشر من هذا أننى لست ممن يطيقون هذه المبادىء ·

ـ اذن ماذا يدفعك الى التحدث هكذا ؟

فأجاب سانت كلير :

ـ ليس شيء أسهل من الحديث • وأعتقد أن شيكسبير ينطق أحد أشخاص مسرحياته بقوله ان أسهل لى أن أجعل عشرين شخصـــا يعرفون ماذا يجب أن يفعلوه من أن أكون واحدا من عشرين يفعلون ما أطلب اليهم فعله » فليس ثمة أعظم من توزيع العمل • ان الحديث هو مهمتى الأساسية ، أما أنت يا ابنة عمى فان مهمتك الأساسية هى العمل •

انك اذا نظرت الى وضع توم الخارجى فى ذلك الوقت لم تجـــد كما يرى العالم كله ما يمكن أن يشكو منه • ذلك أن حب ايفا الصغيرة له ـ وهو الاحساس الغريزى بالامتنان ووداعة الطبع النبيل ـ قد جعلها تلتمس من أبيهـــا أن يكون توم تابعها الخاص كلما احتاجت الى خادم يصحبها فى نزهاتها أو جولاتها على صهوة جواد • وصـــدرت الأوامر العامة لتوم أن يترك كل ما عدا هذا وأن يهتم بشئون ايفـــا كلما احتاجت اليــــه • وهى أوامر كانت أحب ماتكون الى قلب توم ـ كما قد يتصور القراء ـ وكان الاهتمام بحسن هندامه بالغا ، لأن سانت كلير كان جد حريص على العناية بهذا الأمر • أما أعماله فى مربط الجياد فكانت رمزا لا أكثر ، فلم تكن تزيد على بعض العناية بها كل يوم والتفتيش عليها واصدار الأوامر الى خادم تحت رياسته للقيام بواجباته • وأعلن سانت كلير لمارى أنه لا يريد بأى حال أن تفوح منه رائحة الخيول ، حين يقترب منها • وأنه يجب ألا يوكل اليه قط أى عمل يجعله بغيضا لها • لأن جهازها العصبى لا يحتمل ألبتة أية محنة من هذا القبيل • ذلك لأن نفثة واحدة من أى شيء بغيض لها تكفى فى رأيها لاسدال الستار على حياتها ، ولوضع حد لآلامها الدنيوية فورا • ولهذا كان توم فى ردائه حلته الأنيقة النظيفة وقبعته الجلدية الناعمة ، وحذائه اللامع ، وأطواق كميه وعنقه الناصعة ووجهــــه الوقور السمح الأسود ، يبعث فيمن يراه من الاحترام ما يكفى لأن يجعله أسقف مدينة قرطاجنة ، كما كان رجال من لونه فى عصـــور أخرى •

وعدا هذا ، فقد كان مقيما فى مكان جميل ، وهو أمر له دائما مكانته فى مشاعر أبناء جنسه المرهفة • ومن ثم كان يستمتع فى بهجة وهدوء بالطيور والزهور والنافورات وشذى الورود وضوء الفناء وجماله والستائر الحريرية والصور والثريات والتماثيل الصغيرة والمذهبات التى تجعل الغرف الداخلية كأنها فى نظره ، قصر علاء الدين •

واذا ما أتيح لافريقيا أن تنجب فى يوم من الأيام شعبا راقيا متحضرا ــ وما من شك فى أنها سيكون لها فى يوم من الأيام شأن فى مسرحية الرقى البشرى العظيمة ــ فسوف تستيقظ الحياة فيها فخمة رائعة الى حد لم نتصوره قط نحن أبناء الغرب ذوى المشاعر الفاترة • ففى تلك البلاد البعيدة الساحرة •• بلاد الذهب ، والجواهر ، والتوابل وأشجار النخيل المتماوجة والأزهار الناضرة والخصب العجيب ، سوف تنبعث ألوان جديدة من الفن وأساليب من البهاء والرواء وعندئذ لا يبقى الجنس الزنجى موضع الاذلال والمهانة ويقدم الى العالم الانسانى أروع وأحدث ما توحى به الحياة الانسانية • وانه لا شك فاعل برقة احساسه ، وسهولة قياده ، وميله الى الاعتماد على عقل أسمى من عقله ، والاستكانة الى قوة أعلى من قوته ، وبساطة عواطفه الشبيهة فى هذا بعواطف الأطفال ، واستعداده للصفح عمن يسىء اليه • وسيكشف أبناء هذا الجنس بهذا كله أسمى صورة من الحياة المسيحية الخالصة • ولعل الله العلى القدير ــ الذى يطهر من يحب من عباده ــ قد اختار قارة افريقيا المسكينة فوضعها فى بوتقة المحنة ، ليجعلها أرقى وأنبل مافى ملكه الذى سيقيمه بعد أن قام كل ما عداه من الممالك وعجز عن البقاء •• لأن أولين سيكونون آخرين ، وآخرين أولين •

ترى أهذا ما كان يدور بخلد مارى سانت كلير وهى واقفة بملابسها الفاخرة فى الشرفة ، صباح يوم أحد ، تضع سوارا من الماس فى معصمها النحيل ، أكبر الظن أن يكون ! فاذا لم يكن هذا فلا شك أنها كانت تفكر فى شىء آخر ، ذلك لأن مارى عادة تناصر الطيب من كل شىء وقد كانت وقتئذ ذاهبة ــ بكل بهائها ــ بالماس والحرير وثيابها المزركشة بالمخرمات والجواهر وما الى هذا كله الى

كنيسة للطبقة الراقية لتظهر ورعها وتقواها فى أبهى مظاهرهما . ذلك أن مارى كانت تحرص دائما على أن تكون شديدة التقوى فى أيام الآحاد . وهناك ــ فى الشرفة ــ وقفت رقيقة رشيقة متبخترة فى كل حركاتها ، يحيط بعنقها المطرف الحريرى كأنه نسيج من السحاب . لقد بدت رشيقة رفيعة ، وكانت تحس فى أعماق نفسها بأنها صالحة وهيفاء . ووقفت أوفيليا بجانبها ، وكانت تناقضها أشد التناقض ولا يعنى هذا أنها لم تكن ترتدى مثلها ثوبا من الحرير الفاخر ، أو تضع على كتفيها مطرفا جميلا ، أو لم يكن لها منديل لطيف ، ولكن الجمود والرسوخ والصلابة كانت تكسوها مظهرا معينا لا يقل مكانة فى النفس ــ وان اختلف عن مظهر صاحبتها ، الرقيق السمح ــ ولم تكن هى السماحة الالهية بل كانت شيئا يختلف عنها أشد الاختلاف .

وقالت مارى :

ــ أين ايفا ؟

ــ لقد تريثت الطفلة على السلم لتقول شيئا لمامى .

وماذا كانت ايفا تقول لمامى ، على السلم ؟ انصت أيها القارىء ، واستمع الى ما تقول ، وان كانت مارى لا تسمع شيئا .

ــ يا عزيزتى مامى ، أنا أعرف أن رأسك مصدع كثيرا .

ــ بارك الله فيك يامس ايفا ! ان رأسى دائما مصدع فى الأيام الأخيرة ، فلا حاجة بك الى القلق .

ــ اننى مسرورة بذهابك الى الخارج اليوم ، والآن ــ

ثم ألقت الطفلة الصغيرة بذراعيها حولها ، ومضت تقول

ــ مامى .. لسوف تأخذين معك قنينة عطرى .

ــ ماذا ؟! أقنينة عطرك الذهبية الجميلة .. المرصعة بالماس ؟ يا الهى يا آنسنى ، ان هذا لا يليق ، بأى حال .

ــ ولم لا ؟ انك فى حاجة اليها ، وأنا فى غير حاجة . ان أمى

ستعمل قنينتها لتخفيف الصداع ، وستشعرين بالتحسن حين تستعملين قنينتي ·ولهذا يجب أن تأخذيها ، اكراما لى ، وها هي‌ذي·

فقالت مامى حين كانت ايفا تدس القنينة فى صدر المرأة وتقبلها وتسرع هابطة الى أمها :

ـ ما أحلى أن يسمع الانسان الى هذه البنية الحبيبة تتكلم !

وقالت الأم لابنتها :

ـ لماذا وقفت على السلم ؟

ـ لم أقف الا لأعطى مامى قنينة عطرى لتأخذها معها الى الكنيسة ·

فضربت مارى الأرض بقدمها فى عنف وصاحت قائلة :

ـ ايفا ! قنينة عطرك الذهبية لمامى ؟ متى تتعلمين حسن التصرف؟ اذهبى واستردیها فورا ·

وبدت ايفا محزونة مكتئبة ، واستدارت ببطء ·

وعندئذ قال سانت كلير

ـ اسمعى يا مارى · دعى الطفلة وشأنها · دعيها تفعل ما يحلو لها ·

فقالت مارى :

ـ يا سانت كلير · كيف يمكنها أن تمضى فى الحياة على هذا النحو ؟

فقال سانت كلير

ـ ان الله وحده يعلم · ولكنها ستحيا فى السماء أفضل منى ومنك ·

فقالت ايفا وهى تلمس مرفق أبيها فى رفق :

ـ أبى · بالله لا تغضب ·· ان هذا الحديث يضايق أمى ·

وهنا استدارت أوفيليا وواجهت سانت كلير قائلة :

ــ هه • هل أنت مستعد للذهاب الى الكنيسة يابن عمى ؟

ــ اننى لست ذاهبا • شكرا لك •

فقالت مارى :

ــ اننى أتمنى لو أن سانت كلير يذهب الى الكنيسة مرة واحدة فى حياته ولكنه ليس لديه ذرة من التدين • وان هذا لأمر لا يتفق مع مظاهر الاحترام •

فقال سانت كلير :

ــ اننى أعرف هذا • فأنتن يامعشر السيدات تذهبن الى الكنيسة كما أظن لتعرفن كيف تمضين فى الحياة ، وان تقواكن لتضفى علينا ظلا من الاحترام • واذا خطر لى أن أذهب ، فانى أذهب الى حيث تذهب مامى • فان هناك على الأقل ما لا يجعل الانسان يستغرق فى النوم !

فقالت مارى :

ــ ماذا ؟ أتقصد أولئك المتديين الصخابين ؟ ان هذا لأمر رهيب •

ــ ان أى شيء يا مارى أفضل من الجو الميت فى كنائسكم الموقرة• انك فى الحق لتطلبين من أى انسان الشيء الكثير بذهابه اليها • وأنت يا ايفا • أتريدين الذهاب ؟ تعالى وامكثى فى البيت والعبى معى ••

ــ شكرا لك يا أبى • ولكنى أفضل الذهاب الى الكنيسة •

فقال سانت كلير :

ــ ألا تشعرين بالسأم الفظيع هناك ؟

فردت عليه ايفا قائلة :

ـ أعتقد أن فيها ما يدعو الى السأم أحيانا • وانى لأشعر بالميل الى النوم أيضا ، ولكنى أحاول أن أظل متيقظة •

ـ اذن ، لم تذهبين اليها ؟

فقالت فى همس :

ـ عجبا ! انك تعرف يا أبى • لقد قالت لى ابنة عمى ان الله يريد منا أن نذهب اليها ، وهو الذى يهبنا كل شىء كما تعلم • وليس فى الذهاب اليها مشقة كبيرة ، اذا كان هذا ما يريده الله منا • والأمر ليس متعبا رغم كل شىء •

فقال سانت كلير وهو يقبلها :

ـ يالك من ملاك جميل محبوب • اذهبى اذن ، يا حلوة ،وابتهلى من أجلى •

فقالت الطفلة وهى تقفز وراء أمها الى المركبة :

ـ اننى دائما أفعل هذا •

ووقف سانت كلير على درجات الشرفة وقبل أطراف يديه لابنته عند انطلاق المركبة ، وطفرت قطرات كبـــيرة من الدموع الى عينيه وهو يقول لنفسه :

ـ آه •• يا ايفانجلين ؟ انه لاسم على مسمى •• ألم يجعلك الله لى بشيرا ؟

هكذا كانت مشاعره برهة من الزمن ، ثم شرع يدخن لفافة كبيرة وهو يقرأ صحيفة البيكايون ، ونسى فى غمرة هذا ملاكه الصــغير ، فهل هو فى هذا يختلف كثيرا عن غيره من الناس ؟

وقالت الأم لايفا

ـ اعلمى يا ايفانجلين أن من اللائق دائما أن نعطف على الخــدم ، ولكن ليس من اللائق أن نعاملهم كما نعامل أقاربنـــا ، أو الذين هم من طبقتنا فى الحياة ، فاذا كانت مامى مريضة مثلا فانك لا تحبين

أن تضعيها فى فراشك ٠

فقالت ايفا :

ــ اننى لأحس وقتئذ أن أفعل هذا ٠ لأنه فى هذه الحالة تسهل العناية بها ولأن فراشى ، كما تعلمين ، أحسن من فراشها ٠

واستبد اليأس بمارى ازاء ما تكشف عنه هذه الاجابة من عجز تام فى الادراك الأدبى فقالت :

ــ ماذا فى وسعى أن أفعل لأجعل هذه الطفلة تفهمنى ؟

فقالت أوفيليا بلهجة لها دلالتها :

ــ لا شىء ٠

ولاح على وجه ايفا الأسف والاضطراب برهة ، ولكن الأطفال ــ لحسن الحظ ــ لا يحتفظون بالآثار التى تنطبع فى نفوسهم زمنا طويلا ٠ وما هى الا لحظات معدودة حتى كانت تضحك فى جذل عن أشياء مختلفة تراها من نافذة المركبة وهى تنطلق فى طريقها ٠

وقال سانت كلير حين اتخذ الجميع مقاعدهم المريحة حول المائدة فى وجبة الغذاء :

ــ والآن أيتها السيدات أى شىء احتوته مواعظ (*) الكنيسة اليوم ؟

فردت عليه مارى قائلة :

ــ لقد ألقى الدكتور ج٠ موعظة رائعة اليوم ٠ انها موعظة من النوع الذى ينبغى أن تسمعه ٠ فقد عبرت عن كل آرائى أتم تعبير ٠

فقال سانت كلير

ــ لا شك أنها كانت تدعو الى الاصلاح ٠ ولا شك أن الموضوع كان من الموضوعات الشاملة ٠

فقالت مارى :

ــ اننى أعنى أنها عبرت عن كل آرائى فى الحياة الاجتماعية وما

(*) فى الأصل « قائمة الطعام فى الكنيسة » ٠ قالها سخرية منه ٠ (المترجم)

الى هذا . وكانت الآية التى بنى عليها الموعظة هى « لقد جعل الله كل شىء جميلا فى أوانه » وبين لنا الواعظ أن جميع الفوارق والمراتب الاجتماعية من صنع الله . وأنه من المناسب أن نتعلم الخير وحسن النظام ، كما تعرف ومن دواعى الجمال أن يرتفع البعض وأن ينخفض البعض الآخر ، وأن يولد بعضنا ليحكم ، وبعضنا ليخدم ، وما الى هذا كما تعلم . وقد طبق هذا جميعه أحسن تطبيق على كل هذه الضجة السخيفة القائمة حول نظام الرق . وقد أثبت بوضوح أن الكتاب المقدس فى جانبنا يؤيد كل نظرياتنا أشد التأييد . ليتك سمعته . »

فقال سانت كلير

ـ لا حاجة لى بهذا . فأنا أستطيع أن أتعلم مثل هذا الخير من صحيفة البيكايون فى أى وقت أشاء ، وأدخن فى الوقت نفسه لفافة كبيرة أيضا وهو ما لا أستطيع أن أفعله فى الكنيسة كما تعلمين .

فقالت أوفيليا :

ـ ولم هذا ؟ ألا تؤمن بهذه الآراء ؟

ـ من ـ أنا ؟ اننى كما تعلمين لست الا كلبا جاحدا لا تفيده فى هذه الموضوعات تلك الآراء الدينية كثيرا . فاذا كان لى أن أقول شيئا عن موضوع الرق لقلت بصراحة ووضوح « اننا من أنصار الرق ومؤيديه ، اننا نمتلك العبيد ، وننوى الاحتفاظ بهم ـ لأن فى ذلك تيسيرا لنا ونفعا » هذا هو الموضوع فى جملته وتفاصيله ، وهذا هو خلاصة المعنى الذى تدور حوله كل هذه المواعظ والخطب وأعتقد أن حديثى هذا يكون مفهوما لكل انسان وفى كل مكان .

فقالت مارى :

ـ أعتقد يا أوجستين أنك جد مستهتر فى شئون الدين ، وأرى أن الانسان ليصدم حين يسمعك تتحدث بهذه الطريقة .

ـ يصدم ؟ انها الحقيقة ! وهذه الأحاديث الدينية عن هذه المسائل،

لماذا لا يتمادون فيها قليلا ، فيبينوا جمال الرجل ، حين يسرف فى شرب الخمر ، وحين يطيل جلسته قليلا على منضدة الميسر ، وغير هذا وذاك من هذه الشئون التى تكثر بيننا معشر الشباب — فنحن نحب أن نسمع أن هذا الذى نفعله حق وصواب أيضا ٠

فقالت أوفيليا :

— المهم الآن هو ما رأيك فى نظام الرق ٠ أهو صواب أم خطأ ؟

فقال سانت كلير فى مرح :

— اننى لن أتحدث بمثل صراحتكم العنيفة فى نيوانجلند يا ابنة عمى ، فأنا أعلم أنى ان أجبت عن هذا السؤال ، فسوف تنهالين على بأسئلة أخرى ، كل منها أعقد من الذى قبله ، وأنا لا أريد أن أحدد موقفى بالضبط لأنى من الذين يعيشون بالقاء الحجارة على بيوت الناس الزجاجية ، ولكنى لا أنوى أبدا أن أقيم لى بيتا من الزجاج ليقذفوه هم بها ٠

فقالت مارى :

— تلك هى الطريقة التى يتحدث بها دائما ٠ انك لا تستطيعين أن تظفرى منه بشىء مقنع ٠ ورأيى أنه يسير على هذا النمط فى الحياة لأنه رجل غير متدين ، لا يحب الدين ٠

فقال سانت كلير بلهجة جعلت السيدتين تتطلعان اليه معا :

— الدين ؟ أتسميان ما تسمعان فى الكنائس دينا ؟ أذاك الذى يمكن أن يلتوى ، ويلف ، ويهبط ، ويصعد ليرضى كل رغبة ملتوية أنانية من رغبات المجتمع الدنيوى دين ؟ أدين هـذا الذى هو أقل مراعاة للحق والباطل وأقل كرما وتسامحا وانصافا ومراعاة لكرامة الانسان من الطبيعة العمياء التى لا تهتم الا بشئون هذه الدنيا ولا تحفل بالدين ؟ لا ٠٠ اننى حين أنظر الى الدين فلابد لى أن أنظر الى شىء أسمى ، لا أحط منى ٠

فقالت أوفيليا :

ـ اذن فأنت لا تعتقد أن الكتاب المقدس يبرر نظام الرق ؟

فأجاب سانت كلير قائلا :

ـ ان الكتاب المقدس كتاب أمي • به عاشت ، وبه ماتت ، وانه ليؤسفني جدا أن أعتقد أنها عاشت على تلك الحال • وأن محاولة اقناعي بأن الرق مباح لأن الكتاب المقدس يبرره ليعدل اقناعي بأن شرب الخمر ومضغ الطباق والسب اللعين يباح لي أيضا اذا ما ثبت لي أن أمي قد اعتادتها • ان هذا لا يجعلني أكثر رضا عن نفسي اذا ما فعلت هذا • وأكثر من هذا أنه يحرمني من متعة احترام أمي • انه لمن متع الحياة بحق أن يجد الانسان من يستطيع أن يحترمه فيها •

ثم أردف قائلا وقد عادت لهجته فاتخذت طابع المرح فجأة :

ـ وعلى الجملة فان كل ما أريد هو أن توضع الأشياء المختلفةفي أماكنها منفصلة كل منها عن الآخر • ذلك أن كيان المجتمع بأكمله في أوروبا وأمريكا مكون من أجزاء مختلفة لا تخضع لمقياس أخلاقي واحد • والمعروف بوجه عام تقريبا أن الناس لا يسعون نحو الحق المطلق ، بل كل ما يرجونه هو أن يفعلوا ما يفعله سائر الناس • فاذا قام انسان يتحدث كما يتحدث الرجال ويقول ان الاسترقاق ضروري لنا واننا لا نستطيع البقاء بدونه واننا سنكون في حالة يرثى لها من الفقر اذا ألغيناه واننا لهذا ننوي طبعا أن نتمسك به كان هذا حديثا قويا واضحا محدد المعنى فيه روعة الحقيقة واحترامها ، واذا جاز لنا أن نحكم على ما فعلته الكثرة الغالبة من العالم قلنا انها سوف تؤيدنا في هذا الموقف • أما اذا شرع ذلك الانسان يمط وجهه ويتحدث من أنفه ويستشهد بآيات الكتاب المقدس فاني عندئذ أميل الى الاعتقاد بأنه ليس أحسن كثيرا مما يجب أن يكون •

فقالت ماري :

ـ انك لشديد القسوة •

فرد عليها سانت كلير بقوله :

ـ لنفرض أن سببا ما أدى الى هبوط شديد فى أسعار القطن ، وأن هذا الهبوط ظل باقيا الى غير نهاية فجعل امتلاك الرقيق لا قيمة له ولا مبرر لوجوده ، ألا ترين عندئذ أن العقائد الواردة فى الكتاب المقدس سيكون لها من فورها معنى آخر ؟ أى فيض من النور سوف يسكب فى الكنيسة ، لساعته ، واننا نكتشف فورا أن العقل وكل شىء فى الكتاب المقدس يؤيد هذا الرأى ، سوف ينقلب الى النقيض ٠

فقالت مارى وهى تتراخى على متكأ :

ـ اننى على أى حال ، أحمد الله لأنى ولدت فى بلد يقوم فيه نظام الرق ٠ وأنا أعتقد أن قيامه هذا صواب بل انى أشعر فى الواقع أنه أمر لابد منه ، وأنا فى القليل واثقة من أنى لا أستطيع الحياة بدون هذا النظام ٠

وهنا قال سانت كلير لابنته ايفا التى أقبلت فى تلك اللحظةوفى يدها زهرة :

ـ ما رأيك فى هذا يا قطيطتى ؟

ـ فى أى شىء يا أبى ؟

ـ عجبا ٠ أيهما أحب لديك ؟ أن تعيشى كما يعيشون فى بيت عمك بفرمونت أو فى بيت ممتلىء بالخدم كما نعيش هنا ؟

فقالت ايفا :

ـ طبعا ان حياتنا هنا أكثر بهجة ٠

فمسح على رأسها وقال :

ـ ولم هذا ؟

فنظرت ايفا اليه نظرة جدية وقالت :

ـ عجبا ! انك لتعلم أن هذه الحياة تجعل حولك عددا كبيرا من الناس تحبهم !

فقالت مارى :

ـ هذه هى ايفا ٠ وهذه هى احدى العبارات العجيبة التى تصدر عنها دائما ٠

فقالت ايفا لأبيها هامسة وهى ترتقى ركبتيه :

ـ أعجيبة عبارتى هذه يا أبى ؟

فأجابها سانت كلير بقوله :

ـ انها عجيبة بعض الشىء حسب نظام هـذا العالم ياقطيطتى ٠ ولكن أين كانت ابنتى ايفا طوال فترة الغداء ؟

ـ كنت فى غرفة توم ، أستمع الى ترتيله ٠ وقد قدمت لى العمـة دينا طعام الغداء ٠

ـ تستمعين الى ترتيل توم ؟

ـ نعم ! ما أجمـــل ما يرتل عن أورشليم الجديدة ، والمـلائكة المشرقين ، وأرض كنعان ٠

ـ ولا شك أن هذا الترتيل أفضل لديك من التمثيليات الغنائية٠ أليس كذلك ؟

ـ نعم ٠ ولسوف يلقننى هذه التراتيل ٠

ـ أدروس فى الترتيل ؟ اه ، انك تتقدمين كثيرا ٠

ـ نعم ٠ انه يرتل لى ، وأنا أقرأ له فى الـكتاب المقدس ٠ وهـو يفسر لى معانيه كما تعلم ٠

فضحكت مارى وقالت :

ـ يا للعجب ٠ هذه أحدث فكاهة فى الموسم ٠

فقال سانت كلير :

ـ ليس توم بالرجل الذى لا يصلح لتفسير الكتاب المقـــدس ٠

ويمكننى أن أقسم على هذا • فان له موهبة دينية طبيعية • وشاهد ذلك أنى قد طلبت اليه اعداد الجياد فى ساعة مبكرة هذا الصباح ، وتسللت الى مثابته هناك ، فوق الاسطبل ، فوجدته عاقدا جلسة خاصة مع نفسه ، وفى الحق أنى لم أسمع فى حياتى شيئا أعذب من صلوات توم فى ذلك الوقت • لقد كان يصلى ويبتهل من أجلى فى حماسة قدسية •

ـ لعله كان يظن أنك تنصت اليه • فلقد سمعت عن هذه الحيلة من قبل •

ـ لو صح هذا ، لكان غير بارع فى المناورات السياسية ، لأنى سمعته يعبر لله عن رأيه فى بصراحة • فقد كان توم يعتقد ، كما يبدو ، أن هناك مجالا واسعا لتحسين حالى من الوجهة الدينية ، ويبدو أنه كان متلهفا على اصلاح أمرى •

فقالت أوفيليا :

ـ أرجو أن تحتفظ بهذا فى صميم قلبك •

فقال سانت كلير

ـ أعتقد أن رأيك فى لا يختلف كثيرا عن رأيه ، لسوف نرى • أليس كذلك يا ايفا ؟

الفصل السابع عشر

دفاع عن الرجل الحر

قامت حركة خفيفة من النشاط فى بيت الكويكريين عند اقتراب المساء • فقد كانت راحيل هاليداى تروح وتغدو بهدوء تجمع من خزين بيتها الحاجيات الضرورية التى يمكن تنسيقها فى أضيق حيز لتزود بها الراحلين فى تلك الليلة •

وأخذت ظلال المساء تمتد نحو الشرق ، وبدا كأن قرص الشمس الأحمر قد توقف مفكرا فى الأفق وهو يرسل أشعته الشاحبة الوادعة فى غرفة النوم الصغيرة التى جلس فيها جورج وزوجته • وكان طفله على ركبتيه ، ويد زوجته فى يده ، وقد ارتسمت على وجه كل منهما أمارات التفكير والجد وكانت آثار من الدموع على وجناتهم •

وقال جورج

ـ نعم يا اليزا • أعرف أن كل ما تقولينه حق • فأنت فتاة طيبة أفضل منى كثيرا • ولسوف أحاول أن أنفذ رغباتك • لسوف أحاول أن أتصرف كما ينبغى أن يفعل الرجل الحر • سأحاول أن أشعر بشعور الرجل المتدين • وان الله سبحانه يعلم أنى كنت أريد فعل الخير ـ وأنى حاولت جهدى أن أفعل الخير عندما سارت الأمور كلها على غير ما أشتهى ولسوف أنسى الآن الماضى كله ، وأتحرر من كل احساس بالمرارة والقسوة ، وأن أقرأ الكتاب المقدس ، وأن أتعلم كيف أكون رجلا طيبا •

وقالت اليزا :

ـ وعندما نصل الى كندا ، سيكون فى مقدورى أن أساعدك • فأنا أجيد تفصيل الملابس وخياطتها ، وأفهم شئون الغسيل والكى ،وفى مقدورنا معا أن نجد ما نعيش عليه •

ــ نعم يا اليزا ، سنفعل ذلك ما دمنا معا وما دام ابننا معنا • آه •• يا اليزا • ليت الناس يدركون مدى السعادة التى يشعر بهــا الرجل حين يعلم أن زوجته وابنه ينتميان اليه • لطالما عجبت وأنا أرى بعض الرجال الذين يستمتعون بانتماء زوجاتهم وأبنائهم اليهم ، ومع ذلك يقلقون ويغتمون لأى سبب آخر •• عجبا ! اننى لأحس بالقوة والثراء وان لم يكن لدى غير ساعدى • اننى أحس بأننى لايكاد يكون لى عند الله مطلب آخر • نعم •فرغم أنى عملت جاهدا حتى بلغت الخامسة والعشرين من عمرى دون أن يكون لدى قرش واحــد ، أو بيت يأوينى ، أو شبر من الأرض أعتبره ملكى ، فانى ، مع هذا ، أكون راضيا شاكرا لو أنهم تركونى الآن وشأنى • لسوف أعمــل وأرسل المال لك ولابنى ، أما سيدى السابق ، فقد حصل على خمسة أضعاف ما أنفقه على • اننى لا أدين له بشىء •

فقالت اليزا :

ــ ولكننا لم نتجاوز بعد منطقة الخطر • اننا لم نصل بعــــد الى كندا •

فأجابها جورج :

ــ هذا حق • ولكن يبدو لى كأنى أستنشق رائحة الحرية ، وان هذا ليشعرنى بالقوة •

وهنا سمع الاثنان خارج الغرفة أصوات أناس يتحدثون باهتمام، وسرعان ما سمعا طرقا على الباب ، فنهضت اليزا وفتحت الباب •

وكان الطارق سيمون هاليداى ، ومعه زميل كويكرى قدمه لهمـا باسم فنياس فلتشر ، وكان فنياس هـــذا طويلا ، نحيلا ، أحمـــر الشعر ، ترتسم على وجهه أمارات الفطنة والذكاء ، ولم يكن له ذلك الطابع الهادىء الجامد غير المبالى بشئون العـــالم والذى يتسم به سيمون هاليداى ، بل كان عـــلى النقيض ، يبدو يقظـا متحفزا فى مظهره ، شأن الرجل الذى يفخر لأنه يعرف مدى قدرته ، ويستبشر بالمستقبل ، وهى خصائص لا تتناسب مع عباراته الشكلية وأطرافه العريضة •

وقال سيمون :

ـ لقد اكتشف صديقنا فنياس شيئا يهمك أنت وفيه الخير لك ولصحبك يا جورج ومن صالحك أن تسمعه ·

فقال فنياس :

ـ نعم هذه هي الحقيقة · وهي تبين دائما الفائدة التي تعود على الانسان اذا نام واحدى أذنيه مفتوحة في بعض الأماكن ، كما أقول دائما · فقد عرجت في الليلة الماضية على حانة منعزلة ، في الطريق، وأنت تذكر ياسيمون هذا المكان الذي بعنا فيه بعض التفاح في العام الماضي لتلك المرأة البدينة ذات القرطين الكبيرين · لقد أجهدني طول الرحلة بالمركبة ، فتمددت بعد العشاء على كومة من الأكياس في الركن ، وجذبت غطاء من جلد الجاموس فوقي ريثما يعد لي سرير · وكان ما حدث عندئذ هو أنني استغرقت في النوم ·

فقال سيمون بهدوء :

ـ واحدى أذنيك مفتوحة يا فنياس ؟

ـ لا · لقد استغرقت في النوم بأذني وبكل جارحة في جسمي مدة ساعة أو اثنتين لأني كنت متعبا جدا · ثم أفقت لنفسي قليلا ، واذا أنا أجد بعض الرجال في الغرفة ، جالسين حول مائدة يشربون ويتحدثون وخطر لي ، قبل أن أتحرك وألفت أنظارهم ، أن أعرف ماذا يبيتون لا سيما حين سمعتهم يتحدثون بشيء عن جماعة الكويكريين عندما قال أحدهم « ولهذا فانهم ولا شك في محلة الكويكريين » وعندئذ أرهفت السمع بكلتا أذني فوجدت أنهم يتحدثون عن هذه الجماعة نفسها · ومن ثم رقدت هادئا وسمعتهم وهم يرسمون كل خططهم ، وقد قالوا عن هذا الشاب انه لابد من اعادته الى كنتكى ·· الى سيده الذي سينتقم منه انتقاما يجعله مضرب المثل للعبيد ويحول بينهم وبين التفكير في الهرب · أما زوجته ، فان اثنين من هؤلاء الرجال ينتويان أخذها الى أورلينز ليبيعاها لحسابهما ، وهما يقدران أن يبيعاها بألف وستمائة أو ألف وثمانمائة دولار · وأما الطفل ، فقد قالوا انه سيعود الى نخاس اشتراه من قبل ، بقي بعد ذلك جيم وأمه ، وقد قالوا انهم

سوف يعيدونهما الى سيديهما فى كنتكى وقد قالوا عن هذا الشـــاب
سوف يعيدونهما الى سيديهما فى كنتكى وقد قالوا انه يوجدشرطيان
فى بلدة على مسافة يسيرة من هنــــا سيساعدانهم فى القبض عــلى
الهاربين • أما المرأة فسيقدمونها الى القاضى ، وقد أتفق على أن يقسم
أحد هؤلاء الرجال ــ وهو شاب صغير الجرم ناعم الحديث ــ انها ملك
له ، ثم يظفر بها ويذهب بها الى الجنوب • وهم على علم صـــــحيح
بالاتجاه الذى سنتخذه هذه الليلة وسيطبقون علينا ، بستة أوثمانية
من الرجال الأشداء ، فماذا ينبغى أن نفعل الآن ؟

وهنا كان منظر الجماعة التى وقفت فى أوضاع مختلفة ، بعد هذه
المعلومات ، جديرابريشة رسام •فراحيل هاليداى التىأخرجتيديها
من حفنة من بسكويت لتسمع الأنباء ، وقفت ويداها مرفوعتـــان
وعليها آثار الدقيق ، وقد نم وجهها عن القلق الشديد • وبدا سيمون
مستغرقا فى تفكير عميق • وألقت اليزا بذراعيها حول زوجهـــا
وتطلعت اليه ، ووقف جورج منقبض اليدين مشتعل العينين ، يبدو
كما يبدو أى رجل آخر حين يرى أن زوجته ستباع فى المزاد ، وأن
ابنه سيرسل الى النخاس ، وكل هــــذا فى رعـــاية قانون دولة
مسيحية •

وقالت اليزا فى صوت واهن !.

ــ ماذا نحن فاعلون يا جورج ؟

فقال وهو يتقدم فى الغرفة الصغيرة ويفحص مسدساته :

ــ أنا أعرف ماذا أفعل •

فقال فنياس وهو يومىء برأسه الى سيمون :

ــ اه •• آه • أترى يا سيمون ماذا سيئول اليه الأمر ؟
فتنهد سيمون وهو يقول :

ــ نعم •••ولكننى أرجو ألا يصل الآمر الى هذا •

وقال جورج :

ـ اننى لا أريد أن أورط أحدا معى أو من أجلى • فاذا أعرتمونى مركبتكم ، وأرشدتمونى الى الطريق ، فانى سأمضى الى المحطة التالية • ان زميلى جيم عملاق فى القوة ، وله شجاعة الموت واليأس وكذلك أنا •

فقال فنياس :

ـ آه • لا بأس يا صديقى • ولكنك ستحتاج الى سائق للمركبة مع هذا كله ، ان لك الحرية التامة فى المقاومة والعراك ، كما تعلم ، ولكننى أعرف من معالم الطريق ما لا تعرفه أنت •

فقال جورج :

ـ ولكننى لا أريد أن أورطك معى •

فقال فنياس وقد ارتسمت على وجهه أمارات العجب والجد :

ـ تورطنى ؟ انك حين تورطنى ، أرجو أن تخبرنى بذلك من فضلك •

وقال سيمون :

ـ ان فنياس رجل فطن بارع ، ويحسن بك يا جورج أن تعمل برأيه •

ثم وضع يده برفق على كتف جورج وأشار الى المسدسات وأردف قائلا :

ـ ولاتتسرع فى استعمال هذه ؟ ان دم الشباب فائر ثائر •

فقال جورج :

ـ اننى لن أهاجم أحدا • وكل ما أريده من هذه البلاد هو أن تتركنى وشأنى ، ولسوف أمضى فى سبيلى بهدوء • ولكن ـ

وتلبث برهة وقد اربد جبينه واختلجت عضلات وجهه ثم مضى قائلا :

ـ لقد كان لى أخت بيعت فى سوق مدينة أورلينز هذه • وأنا

أعرف لماذا تباع النساء فيه • فهل أقف ساكنا وأراهم يأخـــذون زوجتي ليبيعوها مع أن الله قد وهبني ذراعين قويتين للدفاع عنها ! لا • ليكن الله شهيدا على ! لسوف أقاوم حتى آخر نفس فى بـدنى قبل أن يأخذوا زوجتي وابنى • فهل ألام على هذا ؟

فقال سيمون :

ــ ان الانسان الفانى لا يستطيع أن يلومك على هذا يا جورج • فالانسان المخلوق من لحم ودم لا يستطيع أن يفعل غير ما تنوى أن تفعله • ويل للعالم من العثرات ، ولكن ويل للذى تأتى بواسطته •

ــ ألم تكن أنت نفسك يا سيدى تفعل هذا بعينـــه لو أنك فى موضعى ؟

فأجاب سيمون بقوله :

ــ اننى أرجو ألا أتعرض لهذه المحنة • فان الانســـان ضـعيف بطبعه •

فقال فنياس وهو يبسط ذراعيه ، كأنهما ذراعا طاحونة هوائية :

ــ أظن أننى لن أكون الا انسانا بالغ القوة فى مثل هذه الحال ، واننى لواثق يا صديقى جورج من أن فى مقدورى امساك شخص لك اذا أردت أن تسوى معه حسابا •

فقال سيمون :

ــ اذا وجب على الانسان أن يقاوم الشر فى يوم من الأيام ، فان لجورج الحرية فى أن يفعل هذا الآن • ولكن قادة شعبنا علمـــونا طريقة أفضل كثيرا من هذه • ذلك لأن غضب الانسان لا يحقق بر الله ولكن هذا الغفران يتعارض أشد التعارض مع ارادة الانســـان الفاسدة ، ولا يتلقاه غير الذين منحهم الله اياه • ولندع الله أن يمنع عنا مغريات الشر •

فقال فنياس :

ـ وهذا هو رأيي أيضا ، ولكن اذا كانت قوى الشر ستتمادى في غيها ، فليحذرونا • هذا هو كل ما أقول •

فقال سيمون وهو يبتسم :

ـ من الواضح جدا أنك لم تولد كويكريا بفطرتك • فان طباعك القديمة لا تزال لها السيطرة الغالبة عليك •

وان شئت الحقيقة ، فقد كان فنياس رجلا قويا من العاملين في قطع الأشجار بالغابات النائية ، كما كان صيادا شديد البأس ، لا تطيش له رصاصة الى بطة طائرة • ولكنه أحب فتاة كويكرية حسناء، فخضع لسمو جمالها وفضائلها ، وانضم الى الجمعية في أقرب منطقة اليه ، ومع أنه كان دائما عضوا بارعا ، أمينا ، هادئا ، لا يمكن أن يؤخذ عليه شيء يلام عليه ، فان أشد الاعضاء روحانية لم يكن يسعه الا الشعور بأن فنياس لا يتجاوب الى الحد الواجب مع مبادىء الجمعية على مر الزمن •

وكانت راحيل هاليداي مثلا تقول وهي تبتسم :

ـ ان للصديق فنياس دائما طريقته الخاصة في معالجة الأمور • ولكننا ، مع هذا ، نعتقد أنه معنا قلبا وقالبا •

وقال جورج :

ـ والآن • أليس من الأفضل أن نسارع بالفرار ؟

ـ لقد قمت في الساعة الرابعة ، وانطلقت الى هنا بكل سرعة ممكنة سابقا اياهم بساعتين أو ثلاث ساعات اذا كانوا سيبدءون الرحيل في الموعد الذى حددوه • ولهذا فانا لا نأمن على أنفسنا اذا بدأنا السير قبل حلول الظلام على الاقل ، لأن في القرى التالية بعض الأشرار الذين قد يتعرضون لنا اذا رأوا مركبتنا ، وهذا قد يعطل فرارنا أكثر مما لو انتظرنا • أظن أنه يمكننا بدء المغامرة في خلال ساعتين ، ولسوف أمضي الى ميكل كروس وأكلفه بالمجيء وراءنا على جواد سريع ، ومراقبة الطريق حولنا ، وانذارنا اذا رأى جماعة من الرجال يقتربون منا • ان لدى ميكل جوادا يستطيع أن يسبق

جميع الجياد الأخرى ، ومن ثم يستطيع أن يندفع ليخبرنا اذا كان ثمة خطر محدق بنا • وسوف أمضى الآن لأجعل جيم وأمه يستعدان ولأعد الجواد أيضا • اننا نسبقهم الآن بمسافة طيبة ، ولدينا فرصة سانحة للوصول الى المحطة التالية قبل أن يلحقـــوا بنا • فتذرع بالشجاعة يا صديقى جورج ، فليست هذه أول مناوشة عنيفة تقـع بينى وبين أولئك الناس •

وقال سيمون بعد أن انصرف فنياس وأغلق الباب وراءه :

ـ ان فنياس شديد الذكاء واسع الحيلة ، ولسوف يقدم لك أفضل مساعدة ممكنة يا جورج •

فقال جورج :

ـ ان كل ما يؤسفنى هو الخطر الذى أعرضكم له •

ـ ان خير ما تمن به علينا ، هو ألا تقول أكثر مما قلت من هـــذا أيها الصديق جورج ، فاننا لا نعمل الا ما توحى به ضمائرنا • وليس فى مقدورنا أن نفعل غيره •

ثم استدار الى زوجته راحيل وأردف قائلا :

ـ والآن أيتها الأم ، عجلى بما تقومين به من استعدادات لهـؤلاء الأصدقاء ، لأننا لا نستطيع تركهم يرحلون بلا طعام •

وفيما كانت راحيل وبناتها مشغولات بصنع فطائر الحنطة وطهو الدجاج واللحم ، والتعجل بأعداد طعام العشاء ، جلس جورج وزوجته فى غرفتهما الصغيرة متعانقين ، يتبادلان هذا النوع من الحديث الذى يجرى عادة بين زوج وزوجته يعلمان أنهما قد يفترقان الى الأبد بعد ساعات معدودة •

قال جورج :

ـ اليزا : ان الذين لهم أصدقاء ، وبيوت وأراض وأموال وما الى ذلك كله ، لا يستطيعون أن يحب بعضهم بعضا كما نفعل نحن الذين لا يملك أحدنا الا صاحبه • وقبل أن أعرفك يا اليزا ، لم يكن مخلوق

يحبنى الا أمى المسكينة المحطمة القلب ، وأختى • لقد رأيت أختى المسكينة امبلى فى ذلك الصباح الذى أخذها فيه النخاس • لقدجاءت الى الركن الذى كنت نائما فيه ، وقالت «مسكين ياجورج ، ان آخر أصدقائك سوف تمضي ، فماذا تفعل بك الأيام بعدئذ أيها الغـــلام المسكين ؟ » وعندئذ نهضت وعانقتها وأنا أبكى وأنتحب ، وبكت هى أيضا ، وكانت تلك آخر كلمات من العطف سمعتها مدة عشر سنوات وقد ظل قلبى ذاويا ، جافا كالرماد حتى التقيت بك ،وسعدت بحبك • لقد كان حبك لى كالقوى التى تبعث الميت الى الحياة • لقد غـدوت منذ ذلكالحين رجلاجديدا •والآن يا اليزا لسوف أسفك آخر قطرة من دمائى حتى لا أدعهم يأخذونك منى ، ان الذى ينتزعك منى يجب أن يخطو أولا فوق جثتى •

فقالت اليزا وهى تبكى وتنتحب :

ــ آه •• يا الهى •• رحمتك • لو أن الله أتاح لنا أن نخرج منهذه البلاد معا لكان هذا كل ما نرجوه •

فقال جورج وكأنه يعرب عن أفكاره المريرة أكثر مما يتحدث الى زوجته :

ــ وهل الله سبحانه فى جانبهم ؟ هل يرى كل ما يفعلون ؟ وهل يسمح بأن تحدث هذه الأمور ؟ وانهم ليقولون لنا ان الكتاب المقدس معهم وفى صفهم • والواقع أن جميع القوى تؤيدهم لأنهم أغنيـــاء وأصحاء وسعداء • انهم أبناء دين ويتوقعون دخول الجنــة • وانهم ليعيشون فى سهولة ويسر ، ويظفرون بكل ما يريدون • هذا بينما هناك مسيحيون أوفياء مخلصون ، مسيحيون لا يقلون عنهم صلاحا ان لم يكونوا أفضل منهم يتمرغون فى التراب تحت أقدامهم • انهم يبيعونهم ويشترونهم ويتخذون من دماء قلوبهم تجارة ، ومن آلامهم وعبراتهم صفقات ــ فهل يتركهم الله يفعلون هذا ؟

فناداه سيمون من المطبخ :

ــ يا صديقى جورج • استمع الى هذا المزمور • فعسى أن تجد فيه خيرا •

فاقترب جورج بمقعده من الباب ، ومسحت اليــــزا عبراتها ، واقتربت أيضا لتنصت بينما راح سيمون يقرأ ما يلى :

أما أنا فكادت تزل قدماى . لولاقليل لزلقت خطواتى . لأنى غرت من المتكبرين اذ رأيت سلامة الأشرار . لأنه ليست فى موتهم شدائد وجسمهم سمين . ليسوا فى تعب الناس ومع البشر لا يصـابون . لذلك تقلدوا الكبرياء . لبسوا كثوب ظلمهم . فجحظت عيونهم من الشحم . جاوزوا تصورات القلب ، يستهزئون ويتكلمـــون بالشر ظلما من العلاء يتكلمون . جعلوا أفواههم فى السماء وألسنتهم تتمشى فى الأرض . لذلك يرجع شعبه الى هنا وكمياه مروية يمتصون منهم . وقالوا كيف يعلم الله وهل عند العلى معرفة . »

أليس هذا ما تشعر به يا جورج ؟

ـ نعم هو حقا ، وكأنما أنا الذى كتبت هذا بنفسى .

فقال سيمون اذن فاستمع :

فلما قصدت معرفة هذا اذا هو تعب فى عينى . حتى دخلت مقادس الله وانتبهت الى آخرتهم . حقــا فى مزالق جعلتهم . أسقطتهم الى البوار . كيف صاروا للخراب بغتة . اضمحلوا فنوا من الدواهى . كحلم عند التيقظ يا رب عند التيقظ تحتقر خيالهم .
ولكنى دائما معك . أمسكت بيدى اليمنى . برأيك تهدينى وبعد الى مجد تأخذنى . من لى فى السماء ومعك لا أريد شيئا فى الأرض . لأنه هو ذا البعداء عنك يبيدون ..
أما أنا فالاقتراب الى الله حسن لى . جعلت بالسيد الرب ملجـأى لأخبر بكل صنائعك . »

وسرت هذه الكلمات القدسية ، المنسابة مع أنفاس الرجل العجوز الودود ، كما تنساب الموسيقى المقدسة الى أعمـــاق نفس جـــورج المضطربة المرهقة . ولما توقف سيمون ، جلس الشاب وقد ارتسمت على ملامحه الوسيمة أمارات الرقة والعاطفة المكبوتة .

وعاد سيمون يقول :

ـ لو لم يكن هناك عالم غير هذا العالم يا جورج ، لكان لك حقا أن تسأل : أين الله ؟ ولكن الله يختار لملكوت السماء أولئك الذين لا ينالون من الحياة الدنيا الا أقل القليل • فثق بالله • وأيا كان ما يحدث لك فى هذه الدنيا فسوف يعوضك عنه خيرا فى الآخرة •

ولو أن هذه الكلمات قد نطق بها واعظ تنساب من بين شفتيه فى يسر عبارات بليغة عن التقوى والصلاح ، ليكون لها أثرها فى نفوس البائسين التعساء المحرومين فلربما لم يكن لها أثر كبير فى جورج • أما وهى صادرة من رجل يعرض نفسه كل يوم وهو هادىء مطمئن للغرامات والسجن فى سبيل الله والناس فقد كان لها من الأثر ما لا بد أن تحسه النفس ، وما جعل الهاربين المسكينين المنقطعين يستمدان منها القوة والطمأنينة •

وهنا تناولت راحيل يد اليزا برفق ، وسارت بها الى مائدة العشاء وفيما هم يجلسون ، اذا طرق خفيف على الباب ، واذا روث تدخل ، ثم تقول :

ـ لقد رأيت أن أسرع بهذه الجوارب الصغيرة للطفل • انها ثلاثة أزواج من الصوف اللطيف الباعث للدفء • فان البرد ، كماتعلمون قارس فى كندا • هل أنت متذرعة بالشجاعة يا اليزا ؟

ودارت الى الجانب الذى تجلس اليه اليزا من المائدة ،وصافحتها بحرارة ودست فى يد الصغير هارى كعكة وقالت وهى تتناول اللفافة من جيب معطفها :

ـ لقد أحضرت له حزمة صغيرة من هذا •فان الاطفال ،كما تعلمين، لا يكفون عن طلب الطعام •

فقالت اليزا :

ـ أوه • شكرا لك • ما أشد عطفك •

وقالت راحيل :

ـ تعالى يا روث وتناولى معنا طعام العشاء •

فقالت الكويكرية الرقيقة وهى تضحك :

ـ لا أستطيع بأى حال • لقد تركت جون مع الطفل الوليد ، كما أن فى الفرن بعض البسكويت ، ولهذا لا أستطيع البقاء هنا لحظة أخرى ، والا أحرق جون البسكويت ، وأعطى الطفل كل السكر الموجود فى الوعاء • فهكذا يفعل دائما ـ

ثم مضت تقول :

ـ والآن • وداعا يا اليزا ، وداعا يا جورج • أرجو الله أن يحفظكم فى الطريق •

وبخطوات سريعة قليلة ، انصرفت روث من المسكن •

وبعد فترة وجيزة من العشاء ، وقفت مركبة كبيرة مغطاة أمام الباب ، وكان الليل صافيا تتلألأ فيه النجوم ، ووثب فنياس بخفة من مقعد القيادة لينظم أماكن الركاب • وأقبل جورج من البيت حاملا طفله على يد ، وممسكا زوجته بالأخرى • وكانت خطواته ثابتة ، ووجهه ينم عن العزم والتصميم ، ومن ورائهم أقبلت راحيل وزوجها سيمون •

وقال فنياس للراكبين فى داخل المركبة :
ـ اهبطوا برهة ، لكى أعد الجزء الخلفى من المركبة للسيدات والطفل •

وقالت راحيل :

ـ هاتان هما البطانيتان • فاستعن بهما على أن تجعل المقاعد مريحة بقدر الامكان • فان الرحلة طويلة شاقة طول الليل •

وهبط الفتى جيم أولا ، ثم عاون أمه العجوز برفق على الهبوط ، وكانت تتعلق بذراعه ، وتتلفت حولها فى قلق ، كأنما تتوقع أن ترى المطاردين يبرزون فى أية لحظة •

وقال جورج لجيم فى صوت خافت قوى :

ـ هل أحسنت أعداد مسدساتك ؟

فأجابه جيم بقوله :

ـ نعم • بلا شك •

ـ وهل تعرف على وجه التحقيق ما سوف تفعل حينما يأتون ؟

فقال جيم وهو ينفخ صدره العريض ويتنفس تنفسا عميقا :

ـ أعتقد أنى أعرف ، أو تظن أنى سأدعهم يأخذون أمى مرة أخرى!

وفى خلال هذه المحادثة القصيرة ، كانت أليزا تودع صديقتها العطوف راحيل ، حيث جلست بين الأغطية المصنوعة من جلود الجاموس • وجاءت المرأة العجوز بعدها وجلست ، واتخذ جورج وجيم مكانهما على مقعد غليظ فى الجانب الأمامى ، بينما جلس فنياس فى مقعد القيادة •

وقال سيمون من خارج العربة :

ـ وداعا أيها الأصدقاء •

وأجاب الجميع من داخل العربة :

ـ بارك الله فيك •

وانطلقت المركبة ، تصر وتكركر فوق الطريق المجمد من الصقيع

ولم يكن ثمة مجال للحديث بسبب وعورة الطريق وجلجلة العجلات • ولهذا انطلقت المركبة فى تلك الطرقات الطويلة المظلمة خلال الغابات ، وعلى السهول الواسعة الموحشة ، وفوق التلال ،وفى الوديان •• وظلت تكركر وتصر ، ساعة بعد ساعة • وسرعان ما استغرق الطفل فى النوم ، وقد رقد فى حجر أمه • ونسيت المرأة العجوز المسكينة مخاوفها آخر الأمر ، وحتى اليزا ، وجدت ، مع انصرام الليل ، أن كل مخاوفها لا تكفى لبقائها مفتوحة العينين ، أما فنياس فقد كان فى الجملة أشد الجماعة حيوية ونشاطا ، وأخذ يخفف من عناء الرحلة بصفير ألحان أبعد ما تكون عن الروح الكويكرية ، وهو يمضى فى طريقه قدما •

ولكن حدث حوالى الساعة الثالثة ، أن سرت الى أذن جورج فى أثناء

سير المركبة أصوات حوافر جواد يركض وراءهم فى سرعة واصرار على مسافة غير بعيدة ، فلكز فنياس بمرفقه ، فشد هذا أعنةالجوادين وأرهف السمع ، ثم قال :

ـ لا شــك أن هـذا صاحبنا ميكل • فأنا على ما أعتقــد أعرف صوت ركض حصانه •

ثم نهض وأطل برأسه فى قلق الى الوراء ، على امتداد الطريق • فأبصر رجلا على صهوة جواد سريع العدو ، قد بدأ يلوح من بعيد على قمة تل فى الأفق • فقال فنياس :

ـ هذا هو ، على ما أعتقد •

ووثب جورج وجيم الى خارج المركبة قبل أن يدرى كل منهما ما هو فاعل • ووقف الجميع فى سكون شامل وقد استدارت وجوههم نحو الراكب المنتظر الذى كان يقترب حثيثا ، ثم اذا هو يهبط الى واد فلم يعد فى مقدورهم أن يتبينوه • ولكنهم لم يلبثوا أن سمعوا دقدقة سريعة تزداد اقترابا منهم ، وأخيرا رأوه يبرز من وراء ربوة على مدى الصوت ، وعندئذ قال فنياس :

ـ نعم • انه هو •

ثم رفع عقيرته وصاح :

ـ مرحبا •• ميكل !

ـ نعم • أهذا أنت يا فنياس ؟

ـ نعم • ما وراءك من أخبار ؟

ـ ورائى مباشرة ثمانيــة أو عشرة • انهم منطلقــون وراءنا • أسكرتهم الخمر فاندفعوا مسرعين يسبون ويصخبون ، كأنهم قطيع من الذئاب الضارية •

وفيما هو يتحدث ، حمل النسيم صوتا خافتا لركض فرســان

يقتربون منهم ٠

وقال فنياس :

ـ هيا الى داخل المركبة يا أولاد ٠ أسرعوا ٠ اذا أردتم القتال ، فانتظروا حتى أمضى بكم الى مكان مناسب أمامنا ٠

وقبل أن يفرغ من حديثه كان الشابان قد وثبا الى المركبة ،وساط فنياس الجوادين فانطلقا ، وحرص ميكل على المضى بجانب المركبة التى راحت تكركر وتقفز ، بل تكاد تطير فوق الأرض المجمدة ٠ ولكن صوت الفرسان المطاردين لهم كان يتضح ، ويزداد وضوحا لحظة بعد أخرى ٠ وسمعت المرأتان الصوت ، فنظرتا فى قلق الى خارج المركبة ، فرأتا الى الوراء ، بعيدا ، عند حافة ربوة قصية ، جماعة من الرجال يبرزون فى أفق السماء الملونة بالشفق الأحمر للفجر الوليد ٠ وبعد ربوة أخرى بدا أن المطاردين لمحوا المركبة التى جعلها السقف القماشى الأبيض سهلة الرؤية من مسافة بعيدة ٠ ومن ثم حملت الريح صيحة انتصار وحشية عالية ٠ واستشعرت اليزا السقم فى بدنها ، وضمت اليها ابنها ، بينما أخذت المرأة العجوز تئن وتبتهل ، وقبض كل من جورج وجيم على مسدسه فى شجاعة اليائس ، وأخذ المطاردون يقتربون منهم بسرعة ، ثم انحرفت المركبة فجأة ، وجاءت بهم على مقربة من سفح صخرة عالية كانت ترتفع فى بقعة صخرية موحشة تدور بها منطقة مكشوفة ملساء ، وكان هذا المرتفع الصخرى المنعزل ، أو سلسلة الكتل الصخرية ، تعلو تحت قبة السماء التى أخذ الضوء يسرى فيها ، سوداءثقيلة ضخمة ، وتبدو صالحة لأن تكون ملجأ ومخبأ صالحا ٠ وكان ذلك مكانا معروفا لفنياس لأنه يعرف كل شبر فى المنطقة منذ عهد اشتغاله بالصيد٠ وكان يهدف من اندفاعه بالمركبة الى بلوغه هذا الموضع ٠

وصاح قائلا وهو يوقف الجياد ويقفز من مقعده الى الأرض :

ـ الى هذا المخبأ الآن ٠ أخرجوا جميعا فى لمحة بصر ٠ واصعدوا جميعا الى هذه الصخور معى ٠ أما أنت يا ميكل فشد جوادك

الى المركبة وانطلق بها قدما الى دار أماريا واطلب منه أن يعود بعماله لمعالجة أمر هؤلاء الناس ·

وخرج الجميع من المركبة فى لمح البصر ، وقال فنياس وهو يتلقى الصغير هارى بين ذراعيه :

ــ والآن ·· ليعاون كل منكما احدى السيدتين ، ولننطلق جميعا بقدر ما تتحمل أرجلنا اذا شئتم النجاة ·

ولم يكن أحد بحاجة الى حض أو ترغيب ، فقد اندفع الجميع بأسرع من سنوح الخاطر ، وعبروا سياج الطريق وأسرعوا بكل قواهم الى الصخور ، بينما كان ميكلى يقفز الى مقعد المركبة بعد أن شد عنان جواده اليها ، ويندفع بها قدما ·

وعندما وصل الجميع الى الصخور فى ضوء يجمع بين بقايا نور الأنجم وشحوب الفجر الوليد ، رأوا أثرا لممر وعر مهدته الأقدام يؤدى الى الصخور العليا · وهنا قال فنياس :

ــ اصعدوا فى هذا الممر · فهنا مخبأ كان لنا فى أيام اشتغالنا بالصيد ·

وتقدمهم فنياس وهو يقفز فوق الصخور كالعنزة والصغير هارى بين ذراعيه · وكان الفتى جيم وراءه يحمل أمه العجوز على كتفه ، ومن ورائهم جميعا كان جورج واليزا ، ووصل المطاردون الى السياج، وترجلوا عن الجياد وهم يصخبون ويسبون ، واستعدوا لمتابعة الهاربين · وبعد لحظات من التسلق ، وصل الهاربون الى المرتفع الصخرى حيث رأوا الممر يمتد بين صخور متقاربة مرتفعة ،فلا يسمح لمرور أكثر من واحد بعد واحد · وأخيرا وصلوا الى أخدود لا يزيد اتساعه على نحو ياردة تقع وراءه مجموعة أخرى من الصخور منفصلة عن بقية المجموعة الأخرى وترتفع الى ثلاثين قدما كاملة ذات جوانب ملساء رأسية الارتفاع كأنها أسوار قلعة · وقفز فنياس الأخدود بسهولة ووضع الطفل على موضع مسطح لين مكسو بالطحالب البيضاء ، وصاح قائلا :

ـ أسرعوا جميعا ٠٠ واقفزوا لتنجوا بحياتكم

وأخذ الجميع ، الواحد بعد الآخر ، يقفزون ٠ وكان ثمة أكوام من قطع الحجارة تحجب مكانهم عن أنظار المطاردين القادمين من أسفل الربوة ٠

وقال فنياس وهو يختلس النظر من وراء أكوام الحجارة الى المهاجمين الذين كانوا يشقون طريقهم فى صخب وضجيج الى قمة المرتفع :

ـ ها نحن أولاء الآن ٠ وليصلوا هم الينا اذا استطاعوا ٠ فان عليهم أن يتقدموا فرادى فى ذلك الممر الضيق بين الصخرتين ، وبذلك يكونون هدفا طيبا لمسدساتنا ٠ أترون يا أولاد ؟

فقال جورج :

ـ نعم أرى ٠ ومادام هذا الأمر أمرنا ، فلنواجه نحن الخطر كله ولنتحمل نحن وحدنا عبء القتال كله ٠

فقال فنياس وهو يمضغ بعض أوراق العناب :

ـ يسرنا أن تقوم أنت بالقتال ياجورج ٠ وسوف أكتفى بمتعة المشاهدة على ما أظن ٠ ولكن أنظر ، يبدو أن أصحابنا هؤلاء يتشاورون برفق فيما بينهم ، ويتطلعون الينا كالدجاج حين تهم بالطيران الى مجثمها ٠ أليس من الأفضل أن نحذرهم وأن نقول لهم بوضوح اننا سنطلق النار عليهم اذا أقبلوا الينا ؟

وتكشف المطاردون الواقفون فى أسفل الآن فى ضوء الفجر المتزايد عن صاحبنا القديم توم لوكر ، وزميله ماركس ، واثنين من رجال الشرطة ، وعدد من صعاليك الحانات الذين يمكن استئجارهم ببضع كئوس من الشراب للمعاونة فى القبض على العبيد الهاربين ٠

وقال أحدهم :

ـ يبدو ياتوم أن أصحابك قد وقعوا فى الفخ ٠

فرد عليه توم بقوله :

ـ نعم • لقد رأيتهم يصعدون • وهذا هو الممر ، وسوف أصعد وراءهم ، ولن نستغرق وقتا طويلا فى القبض عليهم •

فقال ماركس :

ـ ولكنهم قد يطلقون النار علينا ياتوم من وراء تلك الصخور ، وعندئذ يكون موقفنا حرجا كما تعلم •

فقال توم وهو يكشر عن أنيابه ساخرا :

ـ حرجا ! انك دائما تعمل على النجاة بنفسك يا ماركس • لا تخف • ان الزنوج عادة يرتعدون منا فزعا •

فأجابه ماركس بقوله :

ـ اننى لا أدرى ما يمنعنى من أن أعمل على النجاة بنفسى ، فان حياتى هى أثمن شىء عندى • ثم ان الزنوج أحيانا يقاتلون كالشياطين •

وظهر جورج فى تلك اللحظة ، على صخرة فوقهم ، وقال لهم بصوت هادىء واضح :

ـ أيها السادة الذين فى أسفل الربوة ، من أنتم ؟ وماذا تفعلون هنا ؟ وماذا تريدون ؟

فقال توم لوكر :

ـ اننا نريد جماعة من الزنوج الهاربين : انهم جورج هاريس وزوجته اليزا هاريس وابنهما هارى ، والفتى جيم سيلدن وأمه العجوز • ومعنا هنا اثنان من رجال الشرطة ، وأمر بالقبض عليهم ، ولسوف نظفر بهم حتما • أتسمع ؟ ألست أنت جورج هاريس عبد المستر هاريس من بلدة شلبى بولاية كنتكى ؟

ـ اننى جورج هاريس • وان سيدا يدعى المستر هاريس من كنتكى كان يمتلكنى ولكننى الآن رجل حر ، أقف على أرض الله الحرة ، وان معى زوجتى وابنى ، وهما لى أنا وليسا لأحد غيرى • وهنا أيضا جيم وأمه • ولدينا من الأسلحة ما ندافع به عن أنفسنا،

فى عزمنا أن نفعل هذا . ويمكنكم أن تصعدوا الينا اذا شئتم ، ولكن أول من يصل منكم الى مرمى نيراننا ، سيكون فى عداد الموتى لساعته ، وكذلك الثانى والثالث ، حتى الأخير .

وهنا قال رجل قصير بدين كان يمخط فى منديله وهو يتقدم :

ـ لا .. لا .. أيها الشاب . لا ينبغى أن يكون حديثك على هذا النحو . ألا ترى اننا من رجال القانون . ان القانون معنا ، والقوة، وما الى هذا . ومن ثم ينبغى أن تسلم نفسك بلا مقاومة ، لأنك ستضطر فى النهاية الى التسليم .

فقال جورج بمرارة :

ـ اننى أعرف جيدا أن القانون فى جانبكم ، وأن لديكم القوة وأنكم تزمعون أن تأخذوا زوجتى لتبيعوها فى أورليانز ، وأن تعيدوا ابنى كأنه عجل صغير الى حظيرة النخاس ، وأن ترسلوا والدة جيم الى ذلك الوحش الذى كان يضربها ويسبها لأنه لم يكن يستطيع ضرب ابنها وسبه ، وأنكم تريدون أن تقيدونى أنا وجيم لكى نجلد ونعذب ونسحق تحت نعال أولئك الذين تسمونهم سادة. وستؤيدكم قوانينكم فى عملكم هذا . ألا ما أشد العار الذى يجللكم أنتم وقوانينكم هذه ولكنكم لم تظفروا بنا بعد . واننا لا نعترف بقوانينكم ... ولا نعترف ببلادكم وانما نقف هنا أحرارا ، تحت سماء الله مثلكم ، بل اننا نقسم بالله الذى خلقنا أننا سنقاتل فى سبيل حريتنا حتى النفس الأخير .

وكان جورج واقفا على رأس الصخرة يراه الجميع واضحا ، وهو يعلن للجميع استقلاله ، وكانت حمرة الفجر تتألق كالوهج على خده الخمرى ، ونيران الاستنكار المر واليأس تلتمع فى عينيه السوداوين، وكان يرفع يده الى السماء وهو يتحدث كأنه يستأنف قضية من ظلم الانسان الى الله .

فلو أن جورج لم يكن الا شابا مجريا يدافع ببسالة فى معقل جبلى ، عن بعض الفارين من النمسا الى أمريكا ، لعد موقفه نوعا من البطولة الفذة . أما وهو رجل افريقى الأرومة ، يدافع عن بعض

الهاربين من أمريكا الى كندا ، فنحن طبعا أكثر تعليما وأعظم وطنية من أن نرى فى موقفه هذا أية بطولة • واذا رأى أحد قرائنا ان فى موقفههذا بطولة ما ، فانما عليه أن يفعلهذا على مسئوليته الخاصة• ان اللاجئين المجريين عندما يشقون فى يأس طريق فرارهم الىأمريكا مخالفين أوامر البحث والتفتيش وجميع السلطات فى حكومتهم الشرعية ، فان الصحافة والدوائر السياسية تهتف لهم وترحب بهم • أما اذا قام جماعة من الهاربين الافريقيين بهذا العمل نفسه — فماذا يعد هذا منهم ؟

وأيا كان الأمر ، فقد بدا على وجه اليقين أن موقف جورج ونظراته ونبرات صوته ومظهره ، قد أرغمت الجماعة الواقفين فى أسفل الربوة على الصمت برهة من الزمن • ذلك أن الجرأة وصدق العزيمة شيء يعقل لسان أغلظ الناس طبعا الى حين • وكان ماركس وحده هو الذى وقف دون أن يتأثر فى قليل أو كثير ، وانما كان يعد مسدسه بهدوء وتمهل ، ثم اذا هو ، فى لحظة السكون التى أعقبت حديث جورج ، يطلقه عليه وهو يقول :

— انك على كل حال تساوى فى كنتكى الآن نفس المبلغ سواء كنت حيا أو ميتا •

ثم مسح ببرود فوهة مسدسه فى كم معطفه •

ووثب جورج الى الوراء ، وصرخت اليزا — ذلك أن الرصاصة التى مرت بجانب شعره كادت أن تحتك بصفحة وجهها، ثم استقرت فى شجرة وراء الجماعة •

وقال جورج لها بسرعة :

— لا شيء يا اليزا •

وقال فنياس :

— يحسن بك أن تختفى عن أنظارهم ببلاغتك هذه • فهم أوغاد أدنياء •

فقال جورج :

ـ اسمع ياجيم ، تأكد من صلاحية مسدسك للانطلاق ، ثم راقب هذا الممر معى ، وعليك أن تطلق الرصاص على أول واحد منهم يظهر، وسأطلق أنا على الثانى ، وهكذا • ذلك أننا يحسن بنا ألا نضيع طلقتين على شخص واحد •

ـ ولكن ، كيف يكون الحال اذا أخطأت الهدف ؟

فقال جورج فى هدوء

ـ اننى لن أخطىء •

وقال فنياس وهو يدفع الألفاظ بين أسنانه دفعا :

ـ عظيم جدا ، ما أعظم بسالة هذا الشاب •

وظل الواقفون فى أسفل الربوة ، بعد اطلاق ماركس لمسدسه ، مترددين ساعة من الزمن ، ثم اذا أحدهم يقول :

ـ أعتقد أنك أصبت أحدهم ، فقد سمعت صرخة •

فقال توم لوكر :

ـ اننى صاعد اليهم ، ولم يحدث أبدا أنى شعرت بالخوف من الزنوج ، وما أظن أنى سأشعر به الآن •

ثم أردف قائلا وهو يتسلق الصخور :

ـ من سيأتى معى ؟

وسمع جورج هذه الكلمات واضحة جلية ، فتناول مسدسه وفحصه ، وصوب فوهته نحو نهاية الممر الضيق الذى سيبرز منه أول واحد من المطاردين •

وتبع توم واحد من أجرأ المرافقين له ، وبعد أن تهيأت لهم السبيل على هذا النحو شرع الجميع فى تسلق الصخور • وكان اللاحقون يدفعون السابقين بأسرع مما لو مضى هؤلاء وحدهم • واستمروا فى صعودهم حتى ظهر جرم توم الضخم ، بعد لحظات ، فى حافة الأخدود •

وأطلق جورج النار ، وأصابت الرصاصة جنب توم ، ولـــكنه ، رغم اصابته ، لم يتقهقر ، وانما راح وهـــو يطلق صيحة كصيحة الثور المهتاج ، يقفز فوق الاخدود الى جماعة الهاربين ٠

وفجأة تقدم فنياس نحوه وقال له وهـــو يدفعه بعيدا بذراعيـه الطويلتين :

ـ أيها الصديق ، لا حاجة لنا بك هنا ٠

وسقط توم فى الهاوية منحدرا بين الأشجار والاعشاب والكتل الخشبية والحجارة المتخلخلة ٠ حتى استقر على مسافة ثلاثين قـدما أسفل المرتفع ، يئن ويتوجع لما أصاب جسمه من جراح وكدمات ٠ وكان خليقا بهذه السقطة أن تقتله لولا أن ملابســـه اشتبكت فى أغصان شجرة كبيرة فخففت منها ، ولكنه سقط بشىء من القـوة لم يكن يحسبها أو يسهل عليه النجاة منها ٠

وصاح ماركس وهو يقود عملية التراجع بأقوى من حماسته فى عملية الصعود :

ـ ليرحمنا الله ٠ انهم شياطين بلا شك ٠

وأخذ بقية الجماعة يسرعون فى الهبوط بعضهم فوق بعض وراءه لا سيما الشرطى البدين الذى كان ينفخ ويهدر بأقوى مايستطيع ٠

وقال ماركس

ـ اسمعوا يا اخوان ٠٠ عليكم أن تدوروا حول المرتفـع وتحملوا توم وتأتوا به الى هنا ، بينما أنطلق أنا الى جوادى لآتى بالنجدة ٠٠ هلم أسرعوا ٠

وطبق ماركس القول على العمل ، ودون أن يحفل بصفير زملائه وهتاف سخريتهم ، وسرعان ما كان يركض بجواده بعيدا عنهم ٠

وقال أحد الرجال :

ـ أيوجد فى الدنيا مثل هـذه الحشرة المنسنة ؟ أنأتى هنـــا لمعـاونته ثم يهرب تاركا ايانا على هذا النحو ؟

وقال آخر

ـ علينا أن نحمل ذلك الزميل • واللعنة على اذا كنت أهتم بأمره• أحى هو أم ميت ؟

وأخذ الرجال مسترشدين بأنات توم ، يتسلقون ويتعثرون بين الجذوع والكتل الخشبية والأعشاب ، الى حيث يرقد بطلهم يئن ويسب بعنف شديد •

وقال واحد من الرجال :

ـ انك لا تكف عن الصياح بأعلى صوتك •• هل اصابتك شديدة ؟

ـ انني لا أدرى • ارفعوني •• ألا تستطيعون ؟ اللعنة على ذلك الكويكرى الخبيث • فلولاه لألقيت بعضهم الى هذا المنخفض لأرى كيف يحبون المقام فيه •

ورفع البطل الساقط ، بمساعدة زملائه بعد جهد شديد وأنين ، وسنده كل واحد من ابطه ومضوا به الى الجياد ، وهناك قال توم :

ـ ليتكم تستطيعون السير بى ميلا واحدا الى تلك الحانة •اعطونى منديلا أو شيئا مثله لأدسه فى هذا الجرح لأقف به هذا النزيف اللعين •

وأطل جورج من فوق الصخور ، وشاهدهم وهم يحاولون رفع جسم توم الضخم الى سرج جواده • وبعد محاولتين فاشلتين أو ثلاث أخذ يترنح ثم سقط بقوة على الأرض •

وقالت اليزا وكانت واقفة مع الجماعة يراقبون ما يجرى :

ـ أرجو ألا يكون قد مات •

فقال فنياس :

ـ ولم لا ؟ انه يستحق الموت •

ـ لأن بعد الموت يأتى الحساب •

وهنا قالت المرأة العجوز التى كانت تئن وتبتهل خلال هذه الأحداث كلها كما يفعل جماعة المثديين :

ــ نعم . وانه لحساب عسير ذلك الذى ستلقاه روح هذا المخلوق المسكين .

فقال فنياس :

ــ تالله انهم يتخلون عنه ، على ما أعتقد .

وكان ذلك حقا . فبعد لحظات من التردد والتشاور امتطى الجميع جيادهم وانطلقوا بها . حتى اذا غابوا عن الأنظار ، أخذ فنياس ينشط ويقول :

ــ يجب أن نهبط ونمضى قليلا . فقد طلبت الى ميكل أن يمضى ويأتى بالنجدة ، وأن يعود بالمركبة معه ، ولكن علينا أن نسير فى الطريق قليلا حتى نلتقى بالقادمين . وعسى أن يبعث به الله الينا سريعا . فان الوقت لا يزال مبكرا ، وسيظل الطريق بعض الوقت وليس فيه كثير من المسافرين ، وليس بيننا وبين محطتنا أكثر من ميلين . ولو لم يكن الطريق وعرا فى الليلة الماضية لسبقناهم بمسافة طويلة .

وفيما كانوا يقتربون من سياج الطريق ، اذا هم يلمحون من بعيد ، على امتداد الطريق ، مركبتهم عائدة يصحبها عدد من راكبى الخيل . فصاح فنياس مبتهجا :

ــ مرحى . هذا هو ميكل ، ومعه استيفن وأماريا ــ اننا الآن فى أمان كما لو كنا قد وصلنا الى المحطة التالية .

فقالت اليزا :

ــ لنتوقف اذن لنقوم بشىء لهذا الرجل المسكين . انه يئن أنينا مروعا .

فقال جورج :

ــ اننا لن نتجاوز حدود التعاليم المسيحية اذا نحن رفعناه

وحملناه معنا ٠

وقال فنياس :

ـ وعالجناه بين اخواننا الكويكريين ؟ عظيم جدا ٠ اننى شخصيا لا أمانع فى هذا ٠٠ هلم نلق نظرة عليه ٠

وكان فنياس قد ألم ببعض الخبرة الجراحية منذ عهد اشتغاله بالصيد وقطع الأشجار فى الغابات ـ فركع بجانب الرجل الجريح وشرع يفحص حالته بعناية ٠

وقال توم بوهن

ـ ماركس ! أهذا أنت يا ماركس ؟

فقال فنياس :

ـ لا ٠٠ لا أظن ياصديقى أن ماركس قد يهتم بأمرك كثيرا اذا ضمن نجاته ٠ لقد هرب منذ مدة طويلة ٠

فقال توم :

ـ أعتقد اذن اننى انتهيت ٠ أيتركنى ذلك الكلب الجبان لأموت وحيدا ٠ لقد كانت أمى العجوز المسكينة تقول لى دائما ان هذه ستكون نهايتى ٠

قالت الزنجية العجوز ـ عجبا ! اسمعوا لهذا المخلوق المسكين ! ان له أما ـ ومن ثم لا يسعنى الا العطف عليه ٠

وقال فنياس حين رأى توم يجفل ألما ويدفع يده بعيدا عنه :

ـ مهلا ٠٠ مهلا ! لا تدمدم أو تكشر عن أنيابك ياصديقى ٠ فليس لك أى أمل فى الحياة ما لم أوقف هذا النزيف ٠

وشغل فنياس نفسه باعداد بعض الاسعافات الجراحية بمنديله الخاص وبما استطاع الحصول عليه من جماعته ٠

وقال توم بصوت خافت :

ـ أنت الذى ألقيت بى من فوق المرتفع ٠

فقال فنياس وهو ينحنى ليربط الضمادة :

ـ نعم ٠ ولو لم أفعل هذا لألقيت أنت بنا منه ٠ أترى ؟ انتظر ٠٠ انتظر٠٠٠ دعنى أربط لك هذه الضمادة ٠ اننا لا نريد بك شرا، ولا نحمل لك حقدا ٠ ولسوف نحملك الى بيت يمرضونك فيه أحسن تمريض ، كأحسن ما تفعله لك أمك ٠

وأخذ توم يئن ويتوجع ، ويغمض عينيه ، ذلك أن القوة والعزيمة عند أمثاله من الرجال ليستا الا مسألة جثمانية تتسرب الى الخارج مع مسيل الدماء ، ومن ثم أصبح ذلك الرجل القوى الضخم فى حالة يرثى لها من الضعف والاستسلام ٠

وكانت الجماعة الأخرى قد وصلت عندئذ فأخرجت المقاعد من المركبة ٠ ونشرت جلود الجاموس بعد أن طويت أربع طيات ، فى جانب واحد منها ، ثم حمل اليها أربعة رجال جسم توم الثقيل فى عناء ومشقة ٠ وكان توم قبل أن يحمل الى المركبة قد أغمى عليه كلية ٠ وأبت عاطفة الشفقة فى المرأة الزنجية العجوز الا أن تدفع بها الى الجلوس فى أرض المركبة وتضع رأس توم فى حجرها ٠ أما اليزا وجورج وجيم فقد اتخذوا مجالسهم بقدر ما اتسع لهم المجال فى المركبة التى انطلقت بهم جميعا الى الأمام ٠

وقال جورج وكان جالسا بجانب فنياس على المقعد الأمامى :

ـ ما رأيك فى حالته ؟

ـ انه لا يزيد على جرح لحمى عميق ، ولكن سقوطه وما أصابه من رضوض من هذا المرتفع قد زاد حالته سوءا ، كما نزف منه الشىء الكثير وأفقده شجاعته وغيرها ٠ ولكنه سيتغلب عليه ، ولعله يستفيد من هذا فائدة أو اثنتين ٠

ـ اننى سعيد اذ أسمع منك هذا ٠ فما كنت لأحتمل تأنيب الضمير لو مات بسببى ، وان كان ذلك دفاعا عن قضية عادلة ٠

وقال فنياس :

ـ نعم ٠ ان القتل ، مهما قيل فيه ، عملية بشعة ، سـواء كان ضحيته الانسان أو الحيوان ، لقد كنت صيادا كبـيرا فيما مضى ، وأذكر لك أنى رأيت ظبيا أصيب بطلق نارى قاتل ، وقد رأيت فى عينيه ، وهو يحتضر ، نظرة موجهة الى جعلتنى أشعر بأشـد الاثم لقتلى اياه ٠ وموضوع قتل المخلوقات الآدمية أخطر من ذلك شـأنا لأنه ، كما تقول زوجتك ، يعرضهم للحساب العادل بعـد الموت ٠ وأنا لهذا لا أدرى كيف انضممت ، رغم النشأة التى نشأتها ، بكل قواى الى جماعة الكويكريين المتعصبين جدا ضد القتل بأنواعه ٠

وقال جورج :

ـ وماذا نفعل بهذا الرجل المسكين ؟

ـ سأمضى به الى بيت أماريا ، فان فيه جدة ستيفن العجـوز ، ويسمونها دوركاس ، وهى ممرضة عجيبة الشـأن ٠ فالتمريض موهبة طبيعية فيها ، وليس أحب اليها من العناية بانسان مريض ٠ وتستطيع أن تبقيه عندها أسبوعين أو نحوهما ٠

وبعد مسيرة ساعة أخرى ونحوها وصلت الجمـاعة الى بيت ريفى أنيق وجد المسافرون المرهقون فيه طعـاما للافطار وفيرا ٠ وسرعان ما وضع توم لوكر فى سرير أنظف وألين من أى سرير نام فيه طول حياته ٠ وبعد أن ضمد جرحه بعناية ، رقد متراخيا وهو يفتح عينيه ويغمضهما على النافذة ذات السـتائر البيضاء وعلى الأشـخاص المشفقين الموجودين بغرفته ، وكأنه طفل متعب ٠ وهنا نترك ، الى حين ، هذا الفريق من شخوص روايتنا ٠

الفصل الثامن عشر

تجارب أوفيليا وآراؤها

كان صاحبنا توم ، بتأملاته البسيطة ، يوازن دائما بين حظه السعيد ـ في ظروف الرق والاستعباد التي قدرت عليه ـ وبين حظ النبي يوسف في مصر • وفي الحق ان مجال المقارنة كان يزداد كلما مرت عليه الأيام وهو يعيش في رعاية سيده الجديد •

وكان سانت كلير متراخيا متلافا للمال • وكذلك كانت حال أدولف الذي كان يقوم بشراء ما يحتاجه البيت من أسباب المعيشة• ومن هنا أخذ الاثنان يبعثران فيما بينهما المال بسرعة كبيرة • ولما كان توم قد اعتاد أن يرى ممتلكات سيده كأنها ممتلكاته هو ، فقد راح ينظر في اشفاق قلما كان يخفيه في نفسه ، الى هذا الاسراف الشديد في بعثرة الأموال ، كما كان ، في بعض الأحيان يقدم نصائحه في هذا الشأن بتلك الطريقة الهادئة غير المباشرة المعروفة عن طبقته •

وكان سانت كلير في أول الأمر يعهد اليه ببعض الأمور بين الحين والآخر ، ولكنه حين تبين سلامة تفكيره ، وقدرته الفائقة على ادارة الأعمال ، أخذت ثقته فيه تزداد شيئا فشيئا حتى أصبحت جميع مشتريات القصر من السوق تعهد اليه تدريجيا •

وقد قال سانت كلير لأدولف عندما راح هذا يحتج ذات يوم على نقل السلطة من يديه الى يدى توم :

ـ لا لا يا أدولف • دع توم وشأنه • فأنت لا تفهم الا ما يعنيك من الأمور • أما توم فانه يعرف مضار الاسراف وعلاجه ، واذا لم نعهد بالمال الى شخص كهذا ، فربما يأتي اليوم الذى ينفد فيه المال•

وكانت جميع فرص الخيانة متاحة لتوم الذى كان سيده المهمل يثق به الى أقصى حد ، فلا يراجعه فى شأن من شئون المال أيا كان . ولم يكن يحصنه من مغريات الخيانة الا أمانته الطبيعية التى كان يشد من أزرها الايمان والتقوى . وقد جعلته هذه الطبيعة جديرا بالثقة المتناهية الموضوعة فيه ، وحريصا أشد الحرص على التمسك بأهداب الأمانة الى حد التزمت .

وكان الأمر مع أدولف يختلف عن هذا . فقد أوقعه استهتاره وأنانيته وتركه وشأنه من قبل سيده الذى كان يفضل التحرر من الأعباء على الادارة والتنظيم فى ألوان من الأزمات والفوضى ، كثيرا ما أشاعت الاضطراب فى نفسه ، وأحيانا فى نفس سيده الذى كان يعلم ـ لحسن ادراكه الطبيعى ـ أن معاملة خدمه على هذا النحو تتسم بالظلم وتعرضه للخطر . ومن ثم ظل شىء من الأسف يلازمه أينما ذهب ، وان لم يكن من القوة بحيث يبدل منهجه تبديلا ذا بال ، ولم يلبث هذا الأسف نفسه أن استحال الى تسامح شديد ، فكان يفضى عن أخطر الأخطاء ، قائلا لنفسه انه لو أدى واجبه كما ينبغى لما ارتكب خدمه هذه الأخطاء .

وكان توم ينظر الى سيده الشاب الوسيم المرح الخفيف الروح بمزيج من الولاء والاحترام ، والعطف الأبوى . وكان امتناعه الدائم عن قراءة الانجيل أو الذهاب الى الكنيسة وتندره بكل ما يثير روح السخرية والفكاهة ، وقضاؤه ليالى الآحاد فى المسارح ودور التمثيل الغنائى ، وتردده على حفلات الخمر ، والنوادى ، وولائم العشاء أكثر مما ينبغى ، كل هذا كان توم يراه ، كما يراه غيره بوضوح ، ويعتقد فى قرارة نفسه « أن السيد غير متدين اطلاقا » ـ وهو اعتقاد لم يكن ـ على أى حال ـ يسارع بذكره الى أحد من الناس ، ولكنه اتخذ منه سببا لدعوات كثيرة بالهداية لسيده ، وبصلوات دائمة كان يقوم بها وهو منفرد بنفسه فى مخدعه الصغير .

ولا يعنى هذا أنه لم يكن يصرح بما فى نفسه على طريقته الخاصة أحيانا بتلك اللباقة المعروفة كثيرا عن طبقته ، فمثلا حدث يوم

الأحد الذى سبق أن وصفناه أن دعى سانت كلير الى حفلة بهيجة مع صفوة الصحاب ، وفيما بين الساعة الواحدة والثانية بعد منتصف الليل ، عاد الى بيته وهو فى حالة يرثى لها فقد فيها وعيه وتولى توم وأدولف العناية به طوال الليل ، وكان أدولف فى أشد حالات الابتهاج ، ولا شك أنه كان يرى فى الأمر فكاهة ، وكان يضحك عاليا كلما رأى أمارات الفزع والجزع على وجه توم الساذج الذى قضى الليلة كلها ساهرا يبتهل من أجل سيده الشاب .

وفى اليوم التالى قال سانت كلير لتوم :

ـ يا توم ، ماذا تنتظر ؟

وكان السيد جالسا فى غرفة مكتبته ، مشتملا بالرداء المنزلى ، منتعلا خفى البيت ، وكان قد عهد الى توم ببعض المال وكلفه القيام بعدة مهام .

وقد أردف قائلا حين رأى توم لا يزال واقفا ينتظر :

ـ أليس كل شىء كما ينبغى يا توم ؟

فقال توم بوجه حزين :

ـ أخشى أن أقول لا يا سيدى .

فوضع سانت كلير الصحيفة وفنجان القهوة من يديه ونظر الى توم ثم قال :

ـ عجبا يا توم ، ماذا حدث ؟ انك تبدو مكتئبا كأنك تابوت ميت .

ـ اننى فى حالة سيئة جدا يا سيدى فقد كنت دائما أعرف أن سيدى كريم مع كل انسان .

ـ ماذا تقول يا توم ؟ ألست حتى الآن هكذا ؟ هلم صارحنى . ماذا تريد ، أظن أن هناك شيئا لم تحصل عليه ، وهذه هى المقدمة .

ـ ان سيدى يعاملنى أحسن معاملة على الـدوام ، وليس لدى ما أشكو منه اطلاقا من هذه الناحية ٠

ولكن سيدى ليس كريما مع شخص ما ٠

ـ عجبا يا توم ؟ ماذا دهاك ٠٠ تحدث ، ماذا تعنى ؟

ـ لقد فكرت فى هذا الأمر فى الليلة الماضية ، فيما بين الساعة الواحدة والثانية ثم قلبت الأمر فى فكرى وتبينت أن سيدى غير كريم مع نفسه ٠

قال توم هذا وظهره الى سيده ، ويده على مقبض الباب ٠ وأحس سانت كلير بالدماء تضطرم فى وجهه ، ولكنه ضحك عاليا وهـو يقول بمرح :

ـ أهذا كل شىء ؟

وهنا استدار توم فجأة ، وركع على ركبتيه وقال :

ـ كل شىء !! أوه يا سيدى الشاب العـــزيز ! اننى أخشى أن يكون فى هذا ضياع كل شىء ٠٠ الجسم والروح ٠ ان الكتـــاب المقدس يا سيدى العزيز يقول « انها تلسع كالحية وتلدغ كالافعوان» يا سيدى العزيز ٠

واحتبس صوت توم ، وانحدرت الدموع على خديه ٠ وقال سانت كلير والدموع تطفر الى عينيه :

ـ أيها الاحمق المسكين الغافل ٠ انهض يا توم ، فأنا غير جدير بأن يبكى من أجلى أحد ٠

ولكن توم أبى أن يقف ، وراح ينظر اليه فى رجاء وابتهـــال ، فقال سانت كلير :

ـ اننى لن أعود الى ارتكاب مثل هذه الحماقات اللعينة يا توم ٠ بشرفى لن أعود اليها ٠ ولست أدرى لم لم أقلع عن هذه العادة منذ أمد بعيد ٠ لقد كنت دائما أحتقر الخمر ، وأحتقر نفسى بسببها ٠ والآن امسح عينيك يا توم ، وامض الى أعمالك ٠

ثم أردف قائلا وهو يدفع توم برفق نحو الباب :
ـ لا ٠٠ لا ٠٠ لا داعى لأن تباركنى ٠ اننى لست الآن انسانا صالحا ٠ ولكننى أقسم لك بشرفى مرة أخرى أننى لن أفعل هـذا مرة أخرى ٠

وانصرف توم وهو يمسح عينيه فى آتم حالات الرضى ٠

وقال سانت كلير لنفسه وهو يغلق الباب :

ـ لسوف أبر بعهدى معه أيضا ٠

وقد فعل سانت كلير هذا ـ لأن الدعارة البشعة بجميع أنواعها، لم تكن من المغريات التى يندفع اليها بطبيعته ٠

ولكن من ذا الذى يفصل القول خلال كل هذا الوقت ، فى ألوان المضايقات التى عانتها صديقتنا أوفيليا التى بدأت تقوم بمهمـــة التدبير المنزلى فى منطقة الجنوب ٠

ذلك أن الخدم فى بيوت ولايات الجنوب يختلفون أشدالاختلاف بسبب كفايات وأســـاليب ربات البيـــوت اللاتى يشرفن عـلى تنشئتهم ٠

ففى الجنوب وفى الشمال على السواء ســـيدات ذوات مواهب خاصة فى السيطرة والادارة والكياسة فى التعليم والتـدريب ٠ هؤلاء ، يستطعن بسهولة واضحة وبدون الالتجاء الى القسوة ، أن يخضعن خدمهن لادارتهن ، وأن ينشرن جوا من الانسجام والنظام فى ضيعتهن الصغيرة ، وأن ينظمن خصائصهم ، وأن يوازن ويعوضن أى نقص فى بعضهم بوفرة النشـــاط فى البعض الآخـر ، وبهذا يظفرن بجو من النظام والانسجام فى العمل ٠

وكانت المسز شلبى ـ التى وصفناها من قبل ـ من ربات البيوت هؤلاء ، ولعل القراء قد التقوا بأمثالهن فى يوم من الأيام ٠ واذا لم يكن هذا الطراز من ربات البيوت شائعا فى الجنوب ، فلأنه ليس شائعا فى جميع أنحاء العالم ٠ ولكنهن يوجدن هنا فيه بقدر مـا يوجدن فى كل مكان سواه ٠ وهن اذا وجدن أنفسهن فى ظروف

الحالة الاجتماعية المحيطة بهن ليجدن الفرصة مواتية يكشفن بها عن مواهبهن فى تصريف الشئون المنزلية .

ولم تكن مارى سانت كلير ربة بيت من هذا الطراز ، ولا كانت أمها من قبل ، فلم يكن من المتوقع وهى التى نشأت صبيانية السلوك خاملة ، لا تعرف معنى النظام والتنسيق ، عديمة التبصر ، أن ينشأ الخدم تحت اشرافها على خلاف ما يجرى فى بيتها . ومن ثم كانت صادقة كل الصدق لأوفيليا عن الفوضى المنتشرة فى محيط الأسرة رغم أنها لم تذكر السبب الحقيقى لهذه الفوضى .

استيقظت أوفيليا فى صباح أول يوم من توليها الأمر فى الساعة الرابعة صباحا وقامت بتنظيم غرفة نومها كما كانت تفعل كل يوم منذ وصولها ، مما أدهش خادمة الغرف ، ثم تأهبت للقيام بحملة عنيفة على مختلف أنواع خزانات الملابس والطعام والأدراج والقمطرات التى كانت تحمل مفاتيحها ، فى أنحاء القصر .

وتعرضت فى ذلك اليوم غرفة الخزين ، ومكاوى الملابس ، وخزانات الأدوات الخزفية ، والمطبخ ، ومخازن المؤن ، كلها للتفتيش وللفحص العنيف . وقد استخرجت من طيات الظلام الى وضح النور أشياء كثيرة الى الحد الذى أزعج كل خدم المطبخ والغرف ، وأثار العجب والهمهمة فى محيط الخدم ، عن « هؤلاء السيدات الشماليات » .

لقد استبد الغضب الشديد بالعجوز دينا كبيرة الطاهيات ورئيسة جناح المطبخ كله ، لما اعتبرته تدخلا فى شئونها الخاصة . وانتهاكا لحرمة امتيازاتها . ولقد كان استنكارها لهذا التدخل أقوى من استنكار أى أمير اقطاعى فى عهد « الماجناكارتا» لاعتداء القصر الملكى على امتيازاته .

وكانت لدينا من بعض الوجوه شخصيتها الخاصة التى تجعلنا نسىء الى ذكراها اذا لم نصور للقارىء بعض جوانب منها . لقد كانت مواطنة زنجية وطاهية بارعة مثل العمة كلو . ذلك أن طهو الطعام من المواهب الأصيلة فى الجنس الافريقى . ولكن كلو كانت

طاهية مدربة ومنظمة تجول فى نطاق رتيب مرسوم ، بينما كانت دينا عبقرية عصامية ، علمت نفسها بنفسهـــا ، ومن ثم كانت كالعباقرة بوجه عام ، متمكنة الرأى عنيدة الطبع كثيرة الأخطاء ٠

وكانت دينا تحتقر بشدة كل ما يتعلق بالمنطق والاستـــدلال على أى وجه من الوجوه وتلجأ دائما الى حدســـها الذى تمليـه عليها فطنتها الطبيعية ولقانتها ولا يمكن زحزحتها عنه بحال شأنها فى ذلك شأن طبقة معينة من الفلاسفة المحدثين ، ولم يكن من المستطاع لأى قدر من المواهب ، أو السلطة ، أو الشرح ، أن يجعلها تعتقدأن طريقة ما أفضل من طريقتها هى ، أو أن السبيل الذى سلكته فى أبسط الأمور يمكن تعديله أقل تعديل ٠ وكان هذا أمرا مسلما به من سيدتها الكبيرة أم مارى ، وكانت مس مارى ، كما كانت دينـــا تسمى سيدتها الشابة حتى بعد زواجها ، ترى أيسر لهـــا أن تنزل على رأيها بدلا من الجدل والمناقشة ـ وهكذا تعودت دينا أن تكون لها الكلمة العليا ٠ وكان هذا ييسر الأمور كثيرا لأنها كانت تجيد ذلك الفن الدبلوماسى الذى يجمع بين الخضوع التام وبين أشـــد أنواع الصلابة ٠

وكانت دينا بارعة فى فن خلق المعاذير بجميع أنواعه عالمـــة بجميع أسراره وكان مبدؤها الذى تؤمن به هو أن الطاهية لا يمكن أن تخطىء ، وفى وسع الطاهية فى بلاد الجنوب أن تجد الكثيرين ممن تستطيع أن تلقى عليهم بتبعات الأخطاء دائما ، حتى تظل هى معصومة من كل خطأ ٠فاذا حدث أن كان جانب من الطعام على غير ما ينبغى وجدت لذلك خمسين سببا قويا لا جدال فيها وخمسين شخصا مسئولين بلا جدال عما حدث وان دينا لتنهال على هـــؤلاء جميعا باللوم والتقريع ٠

ولكن كان من النادر جدا أن تأتى النتيجة الأخيرة لأعمال دينا على غير ما ينبغى ، ومع أن طريقتها فى صنع كل شىء كانت ملتوية غير مستقيمة ، بلا ترتيب أو نظام ، ومن غير تقدير للزمـــان أو للمكان ـ ومع أن مطبخها كان يبدو كأنما نظمته عاصفة هوجاءهبت فى داخله ، وأن لها من الأماكن التى تضع فيها آنية الطهو بقـــدر

ما فى السنة من أيام ، ومع هذا كله فان الانسان آذا تذرع بالصبر وأتاح لها ما يكفى من الوقت ، فانها تقدم الطعام بأحسن نظام ، وبأسلوب من آلاعداد والتنسيق لا يمكن أن يجد فيه الأبيقــورى الخبير ما يلومها عليه ٠

وها نحن أولاء فى بداية اعداد طعام العشاء ، وها هى ذى دينا ــ التى تحتاج عادة الى فترات طوال من الاستجمام والتأمل ، والى الحرص على الراحة فى جميع أعمالها ــ جالسة على أرضية المطبخ ، تدخن فى قصبة قصيرة المبسم كانت مدمنة التدخين فيها ، كمــا كانت تشعلها دائما كأنها نوع من المباخر كلما استشعرت الحاجة الى الالهام فى التحضير والاعداد ٠ وكانت تلك طريقة دينــا فى إستثارة الوحى فى الأعمال المنزلية ٠

وكان يجلس حولها عدد من ذلك الجنس النــاشىء الذى يكثر وجوده فى الحياة المنزلية بولايات الجنوب ٠ وكانوا جميعا منهمكين فى استخلاص حبوب البسلة وتقشير البطاطس ، والتقاط جــذور الريش من الدجاج المذبوح وغير ذلك من الاعداد والتحضير ــوكانت دينا بين الحين والآخر تقطع حبل تأملاتها لتلكز جنب هــذا أو تضرب رأس ذاك من أعوانها الصغار بعصا النشاب الملقاة بجانبها، والواقع أن دينا كانت تحكم تلك الرءوس الصغيرة المفلفلة الشــعر بيد من حديد ، ويبدو أنها كانت ترى أنهم لم يخلقوا فى هــذه الدنيا الا « لتوفير خطواتها » ــ على حد تعبيرها ــ وتلك كانت روح الطريقة التى نشأت عليها ، والتى تواصل الآن السير عليهــا بحذافيرها ٠

أما أوفيليا ، فانها بعد أن قامت بجولتها الاصلاحية فى مختلف جوانب البيت ، دخلت الآن المطبخ ٠ وكانت دينا قد سمعت ــ من مصادر مختلفة ــ بما يجرى ، وقررت أن تثبت فى الدفــاع عن عرينها ــ قررت فى نفسها أن تعارض وأن تهمل كل اجــراءات جديدة دون أن تدخل فى نزاع حقيقى واضح صريح ٠

وكان المطبخ غرفة فسيحة ذات أرضية من الآجر ، وموقد طهو كبير عتيق الطراز يمتد على طول جــانب منه ــ وهو موقد حاول

سانت كلير عبثا أن يقنع دينا بأن توافق على أن تستبدل به فرنا حديثا ولكنها رفضت ذلك بتاتا · لا·· فليست دينا التى تفعل هذا· وليس ثمة انسان شديد المحافظة على كل قديم يبزها فى الحرص على الأشياء التى يتوجها الزمن بالعراقة والقدم ·

وكان سانت كلير عندما عاد فى أول الأمر من الشمال متأثرا بالنظام المتبع فى مطبخ بيت عمه ، قد زود مطبخه بالكثير من الخزانات والأدراج ومختلف المعدات يرجو بها أن ينشىء نظاما جديدا قد يساعد دينا فى اعدادها للطعام · ولكن كان خيرا له لو أنه زود به سنجابا أو غرابا · ذلك أنه كلما ازداد عدد الأدراج والخزانات ، ازداد عدد المخابىء التى تخصصها دينا للخرق البالية، والأمشاج ، وأمشاط الشعر ، والأحذية القديمة ، والأشرطة ، والزهور الصناعية المهملة ، وغير هذا وذاك من مختلف النفايات التى كان يسرها الاحتفاظ بها ·

ولم تنهض دينا من مكانها عندما دخلت أوفيليا المطبخ ، بل بقيت تدخن فى هدوء وتعال ، وترمق حركاتها بطرف عينها ، وان تظاهرت بالاهتمام فقط بما يدور حولها من أعمال ·

وبدأت أوفيليا تفتيشها بفتح مجموعة من الأدراج ، وهى تقول :

ــ ماذا تفعلين بهذا الدرج يا دينا ؟

فقالت دينا :

ــ ان من السهل أن يوضع فيه كل شىء تقريبا ·

وهكذا كان يبدو فعلا · فمن بين الأشياء التى كان يحتويها ، أخرجت أوفيليا غطاء منضدة مصنوعة من الدمقس وملوثا بالدماء كان ــ كما يبدو ــ قد استعمل فى لف اللحم النىء · وقد قالت أوفيليا :

ــ ما هذا يا دينا ؟ أتلفين اللحم فى أحسن المفارش التى تمتلكها سيدتك ؟

ـ لا والله يا آنسة • لقد كانت الفوط غير موجودة فاستعملت هذا المفرش فى لف اللحم • وقد وضعته هنا ريثما أغسله •

وقالت أوفيليا لنفسها :

ـ « مهملة •• »

ومضت تفحص محتويات الدرج حيث وجدت علبة لجوز الطيب فيها جوزتان أو ثلاث جوزات ، وكتاب أناشيد من أناشيد المثديين ومنديلين ملوثين من الحرير الهندى ، وبعض أدوات الخياطـــــة والتطريز ، ولفة تبغ وقصبة تدخين ، وعددا قليـــلا من كسارات البندق ، وطبقا أو طبقين من الخزف المذهب لا يزال فيهمــا بعض المراهم ، وواحدا أو اثنين من الأحذية الرفيعة القديمة ، وقطعة من قماش فانيللا معدة بعناية لحفظ كمية من البصل الأبيض الصغير، وعددا كبيرا من فوط المائدة الحريرية ، وبعض فوط الحمام الخشنة الغليظة ، وبعض ابر الخياطة وبكر الخيط ، وكثيرا من لفـــائف الأوراق المثقوبة التى انسابت منها فى الدرج بعض التوابل •

وقالت أوفيليا فى مظهر الانسان الذي يطلب من الله أن يجملـــه بالصبر

ـ أين تحتفظين بجوز الطيب يا دينا ؟

ـ فى أى مكان تقريبا •• بعضها فى ذلك الفنجان المكســـور ، هناك ، وبعضها الآخر فى تلك الخزانة •

فقالت أوفيليا وهى تتناول بعض جوزات الطيب فى يدها

ـ وهذا بعضها فى هذا المنخل •

ـ آه •• نعم • لقد وضعتها هنا فى هذا الصباح ـ فأنا أحب أن أجعل ما أحتاج اليه فى متناول يدى •

وفجأة أردفت قائلة وهى تلكز بعصاها الغلام جاك :

ـ لماذا تقف هكذا يا جاك ؟ انك ستعطل أعمالى أيها الخبيث • امض فى عملك • اسكت يا من هناك •

وقالت أوفيليا وهى تمسك بصحن المرهم :

ـ وما هذا ؟

ـ عجبا ! انه دهان شعرى · لقد وضعته هنا ليكون قريبا منى ·

ـ أتستعملين أحسن أطباق سيدتك لهذا الغرض ؟

ـ أوه ، لقد كنت منهمكة متعجلة ، وكنت أنوى أن أعيده الى مكانه هذا اليوم ·

ـ وهاتان فوطتا مائدة من الدمقس ·

ـ لقد وضعتهما بيدى فى هذا المكان لكى أغسلهما فى يوم ما ·

ـ أليس لديك هنا مكان خاص لحفظ الأشياء التى ستغسل ؟

ـ بلى · لقد جاء السيد سانت كلير بذلك الصوان ، وقال انه لهذا الغرض · ولكننى أحب أن أخلط على سطحه البسكويت ، وأضع عليه بعض الأشياء ، كما أن غطاءه ثقيل عند رفعه ·

ـ ولم لا تخلطين عجائن البسكويت على هذه المنضدة الخاصة بصنع الحلوى !

ـ انها تزدحم فى أحيان كثيرة بالأطباق وما الى هذا بحيث لا أجد متسعا لشىء آخر ، وفى هذه الأيام ـ

ـ ولكن ألا ينبغى أن تغسلى الأطباق أولا بأول وتعيديها الى أماكنها ؟

فقالت دينا فى صوت مرتفع النبرات وقد بدأ غضبها يغلب شعورها الطبيعى باحترام سادتها :

ـ أغسل الأطباق ؟ اننى أريد أن أعرف ماذا « تفهم السيدات » فى شئون العمل ! متى اذن أعد الطعام لسيدى اذا كنت أقضى وقتى فى غسل الأطباق واعادتها الى أماكنها ؟ ان المس مارى لم تتحدث الى على هذا النحو ·· أبدا ·

ـ وهنا كمية من البصل ٠

ـ آه ٠ نعم ٠ لقد وضعتها فى ذلك الدرج حقا ٠ ولكنى نسيتها انها نوع خاص من البصل كنت أدخره لهذا الحساء بالذات ٠ لقد نسيت أننى وضعتها فى هذه الفانلة القديمة ٠

وتناولت أوفيليا بعض لفائف الأوراق المنسابة منها التوابل ٠

لكن دينا أسرعت تقول بحزم :

ـ أرجو من الآنسة ألا تلمسها ، فأنا أحب أن أضع الأشياء حيث أجدها حين أحتاجها ٠

ـ ولكنك لا تحبين أن تبقى هذه الثقوب فى هذه الأوراق ؟

ـ انها تصلح لرش التوابل منها مباشرة ٠

ـ ولكنها تتناثر كما ترين فى كل أنحاء الدرج ٠

ـ نعم ٠ طبعا ٠ انها تتناثر ما دامت الآنسة تعبث بها على هذا النحو ٠

وأردفت دينا قائلة وهى تقبل على الدرج فى قلق

ـ لقد سكبت الآنسة الشىء الكثير منها ٠ ولو أن الآنسة صعدت الى الطابق الأعلى حتى يحين وقت التنظيف ، اذن لرتبت ونظمت كل شىء ٠ ولكننى لا أستطيع أن أفعل شيئا والسيدات حـــولى يعطلننى ٠

ثم أردفت قائلة للغلام سام :

ـ أنت أيها الخبيث سام ، لا تعط الطفل علبة السكر هذه ، اننى سأحطم رأسك اذا لم تطع أمرى ٠

وقالت أوفيليا :

ـ سأطوف بكل أنحاء المطبخ وأنظم وأرتب كل شىء فيه ، مرة واحدة ، وأنا أنتظر منك يا دينا أن تحافظى على نظامه بعد ذلك ٠

ـ عجبا يا مس أوفيليا ؟ ما شأن السيدات وهذا ٠ انني لم أر فى حياتى سيدات يقمن بهذا العمل ٠٠ لا سيدتى الكبيرة ، ولا مس مارى ٠ كما أنى لا أرى أن الأمر فى حاجة الى مثل هذا اطلاقا ٠

وأخذت دينا تدور فى جوانب المطبخ وهى غاضبة ، بينما شرعت أوفيليا تجمع الأطباق وتفرزها وترتبها ، وتفــرغ عشرات علب السكر المتناثرة فى علبة واحدة كبيرة ، وتعد الفوط والمفــارش والميادع للغسيل ، وكانت تنظف وتجفف وتنظم بيديها فى سرعة واتقان مما جعل دينا تنظر اليها فى دهشة رغما عنها ، ثم تقـول لأحد أعوانها بصوت لا يصل الى أذنى أوفيليا :

ـ يا الهى ٠ اذا كان هذا ما تفعله السيدات فى الشمال ،فانهن غير سيدات على الاطلاق ٠ اننى أحب أن تكون حاجياتى منظمــة ونظيفة كأى انسان آخر ، وذلك عنــــدما يحين وقت التنظيف والتنظيم ٠ ولكننى لا أحب أن تأتى احدى السيدات هنا لتعوقنى عن أعمالى ولتضع كل حاجياتى حيث لا أعرف مكانها ٠

ولكيلا نظلم دينا ، نقول ان نوبـــات من العمــــل فى التنظيم والترتيب تعتريها فى أوقات غير منتظمة ، تسميها « أوقــــات الترتيب » وكانت تبدؤها بحماسة شديـــدة ، فتقلب كل درج وقمطر رأسا على عقب وتفرغ كل محتوياتها على الأرض أو فــوق المناضد ثم تجعل الفوضى العادية تتضاعف سبع مرات ، وأخــيرا تشعل قصبة تدخينها ، وتأخذ ، وهى تدخن على مهل ، فى فــرز مختلف الأشياء وتصنفها متيحة الفرصة لأعوانها الصغار ليجلوا العلب الصفيح ، ويظل النشاط مستمرا على أشده فى هذه الفوضى بضع ساعات تجيب خلالها كل من يسألها انها مشـــغولة بتنظيم المطبخ وترتيبه ، وانها « لا تستطيع أن تترك الأشـــياء فى تلك الفوضى كما كانت ، وأنها من ثم تعلم هؤلاء الخدم الصغار كيف يحسنون تنظيم الأشياء » ذلك أن دينا نفسها كانت ، بطريقة ما ، تتوهم أنها هى روح الترتيب والنظام وأن الصغار وجميع من فى المنزل هم السبب المباشر فى كل قصور عن الكمال فى هذا المجـال فاذا ما تم تنظيف جميع العلب والاحقاق ، وتنظيف الموائد ، حتى

تصبح بيضاء ناصعة ، واخفاء كل ما يؤذى النظر فى الثقوب والأركان ، ارتدت دينا أفخر أثوابها ، وأنظف ميادعها ، ووضعت على رأسها عمامتها المرتفعة الزاهية الألوان ،وأمرت جميع «الصغار» الذين لا يستقرون فى مكان بالخروج من المطبخلأنها تنوىالاحتفاظ بكل شيء ظريفا لطيفا • والحق أن تلك النوبات الموسمية كانت من بواعث ازعاج جميع من فى البيت ، لأن الأوعية التى نظفتتصبح عزيزة على نفس دينا الى حد يجعلها تمنع استعمالها لأى غرض من الأغراض ، أو فى القليل ألا تستعمل حتى تهدأ حماسة الترتيب والتنظيم •

واستطاعت أوفيليا فى أيام قليلة أن تعيد تنظيم كل جزء منأجزاء البيت وأن تنظمها على خير وجه •ولكن كلالجهود التى كانتتتطلب معاونة الخدم لها ، ذهبت أدراج الرياح فلما أيأسها اصلاح الأمور ، لجأت الى سانت كلير شاكية وقالت له :

ــ يبدو أنه لا سبيل الى اشاعة روح النظام والتنسيق فى هذا البيت •

فقال سانت كلير

ــ هذا حق بلا شك •

ــ اننى لم أر فى حياتى مثل هذه الفوضى والتبديد والاهمال فى الرقابة والادارة •

ــ أعتقد أنك لم ترى مثل هذا أبدا •

ــ ما كنت لتنظر الى الأمر بمثل هذه البساطة لو أنك كنت مسئولا عن تدبير شئون المنزل •

ــ يحسن بك يا ابنة عمى العزيزة أن تفهمى للمرة الأولىوالاخيرة الطيبين المسالمين الكارهين للقسوة والاضطهاد نقرر أن نحتملالشيء أننا معشر السادة ننقسم الى طبقتين • ظالمين ومظلومين • فنحن الكثير من المشقة • فما دمنا نحتفظ لمزاجنا الخاص بعدد من الخدم العبيد الجهلة المنحلين المستخفين بكلشيء ،فعلينا أن نحتملالنتيجة

المترتبة على هذا • ولقد مرت بى حالات قليلة لسادة استطاعوا بالكياسة والمرونة أن يفرضوا فى بيوتهم النظام والتنسيق بلا حاجة الى استعمال القسوة ـ ولكننى لست من هؤلاء • ولهذا السبب قررت منذ أمد بعيد ، أن أترك الأمور تسير على هذا النحو الذى تسير فيه • اننى لا أقبل أن أرى هؤلاء الأبالسة المساكين من عبيدى يجلدون ويمزقون بالسياط وهم يعرفون هذه الحقيقة عنى • ومن ثم يعرفون أيضا أنهم ، على هذا الوضع أصحاب اليد العليا •

ـ ولكن هل يعنى هذا أن يدار البيت بهذه الطريقة الخالية من كل نظام أو حزم أو تقدير لقيمة الوقت ؟

ـ يا عزيزتى فيرمونت ، انكم يا سكان الولايات الشمالية تسرفون فى تقدير قيمة الوقت • ولكن ما قيمة الوقت لشخص يعرف أن لديه منه ضعفى ما يحتاج اليه منه • أما من حيث النظام والترتيب فى مكان لا عمل للانسان فيه الا الاسترخاء على أريكة ، وقضاء الوقت فى القراءة ، فان تأخر الفطور أو العشاء عن موعده أو تقدمه عنه ساعة لا أثر له على الاطلاق • وها هى ذى دينا تعد لنا حساء ودجاجا مشويا ، وحلوى ، ومثلجات ، وما اليها ، وهى تصنع هذا كله من تلك الفوضى الضاربة أطنابها فى ذلك المطبخ • وأظن أن قيامها بهذا العمل مفخرة لها بحق • ولكننا وأيم الله اذا خطر لنا أن نمضى الى المطبخ لنرى الدخان والفوضى والصياح والهرج والمرج أثناء اعداد الطعام ، ما أكلنا أبدا • أنصحك يا ابنة عمى أن تنفضى يديك من هذا الموضوع انه فى حاجة الى صبر قديس ، ثم هو لا جدوى منه فى النهاية • وكل ما سيحدث أنك ستثورين غضبا وتربكين دينا ، ولهذا يحسن بك أن تتركيها وشأنها •

ـ ولكنك يا أوجستين لا تعرف كيف وجدت الأمور هنا •

ـ ألا أعرف ؟ ألا أعرف أن عصا النشابة تحت سريرها ، وأن علبة جوز الطيب فى جيبها مع كيس التبغ ، وأن هناك خمسا وستين علبة سكر مختلفة فى كل فجوة فى البيت علبة منها ، وأنها تغسل الأطباق بفوط المائدة يوما وبأمشاج بالية من سترة قديمة

فى اليوم التالى ، ؟ولكن العجيب فى الأمر أنها تنجح فى طهو طعام فاخر ، وفى عمل قهوة ممتازة ، والواجب عليك أن تحكمى عليها كما يحكم الناس على المحاربين ورجال الحكم ٠٠ بنجاحهم ٠

ــ ولكن ما قولك فى الاسراف ٠٠ والتبذير ؟

ــ اذن ٠ فأغلقى الأدراج والخزانات على كل شىء بالمفتاح ، واحتفظى به معك ، وقدمى المقادير بالحساب ، ولا تسألى عن هذا الشىء وذاك ، هل هذا ما تريدين ؟ ليس هذا هو خير الوسائل ٠

ــ ان هذا الموضوع يقلقنى يا أوجستين ٠ وأنا لا يسعنى الا أن أشعر بأن هؤلاء الخدم ليسوا فى منتهى الأمانة ٠ فهل أنت واثق من أنهم يمكن الاعتماد عليهم ؟

وضحك أوجستين بأعلى صوته لما ارتسم على وجه المس أوفيليا من أمارات القلق والجد وهى تلقى السؤال ٠ وأخيرا قال :

ــ هذا اسراف منك يا ابنة العم فى انتظار الصلاح فى الناس ، أتذكرين الأمانة ؟ كأنما هى فضيلة متوقعة منهم ؟ عجبا ! انهم ليسوا أمناء بطبيعة الحال ، ولم يكونون أمناء ؟ وأى شىء يغريهم بالأمانة فى هذا الوجود ؟

ــ لماذا لا تعلمهم أنت الأمانة ؟

ــ أعلمهم ؟ هراء ٠ وأى تعليم تظنين ان على أن ألقنهم اياه ؟ أترين أننى أليق لهذا العمل ؟ أما عن مارى ، فان لها من قوة الروح ما يمكنها ، على وجه اليقين ، من أن تقتل عبيد مزرعة كاملة اذا أتيحت لها فرصة الادارة ، ولكنها مع هذا لا تستطيع أن تنزع رذيلة الخداع من نفوسهم ٠

ــ ألا يوجد بينهم أشخاص أمناء ؟

ــ بلى ٠ يوجد بين الحين والآخر واحد أمين منهم ٠ وقد خلقه الله ساذجا ، غير عملى ، صادقا ، أمينا ، لا يفسده أى تأثير سىء ٠ ولكن الطفل الملون ــ كما ترين ــ يرى منذ طفولته أنه لا توجد طرق مفتوحة أمامه غير الطرق الملتوية ، انه لا يستطيع أن يمضى فى أية طرق أخرى مع

والديه ، أو مع سيدته ، أو مع سيده الصغير ، أو مع أترابه الذين يلعبون معه • وهكذا يصبح المكر والخداع والاحتيال من العـادات الضرورية التى لا مفر له منها • وليس من الانصاف أن ينتظر منه أى شىء غير هذا • ومن ثم لاينبغى أن يعاقب عليها • أما عن الأمانة، فان العبد يبقى دائما معتمدا على غيره فى معاشه ، وكأنه طفل ،ومن ثم فلا يوجد ما يجعله يدرك معنى حقـوق الملكية ، أو يشـعر أن حاجيات سيده ليست حاجياته هو اذا استطاع أن يظفر بها • وأنا لا أدرى كيف يمكن أن يكونوا أمناء • وان شخصا مثـل توم ، لهو معجزة فى الأخلاق الطيبة •

فقالت أوفيليا :

ــ وما هو مصير أرواحهم ؟

فقال سانت كلير :

ــ مبلغ علمى أن هذا ليس من شأنى • ولست أتحـدث الا عن حقائق هذه الدنيا ومن بين هذه الحقائق أن الناس هنا يعتقدون أن الجنس الزنجى بأكمله قد سخره الشـيطان لمصلحتنا ــ فى هـذا العالم ، مهما يكن من أمره فى غير هذه الدار •

فقالت أوفيليا :

ــ ان هذا الأمر رهيب حقـا • ويجب أن تستشعروا الخزى من أنفسكم •

فرد عليها سانت كلير بقوله :

ــ اننى لا أدرى حقيقة موقفى فى هذا الشأن ــ ولكنى أعتقد أننى متضامن مع الجميع هنا فى كل هذا ، كما يكون النـاس عادة فى الشئون العامة العـادية • انظرى الى جميع الطبقات الدنيا منهـا والعليا فى كل أنحاء العالم ، تجدى القصة نفسها••• تجدى الطبقات الدنيا تستغل جسما ونفسا وروحا لصالح الطبقات العليا • هكذا الأمر فى انجلترا ، وهكذا الأمر فى كل مكان • ومـع هـذا فان العالم المسيحى ينظر الينا فى فزع واستنكار لأننا نفعل هـذا كله

بطريقة تختلف قليلا عن الطريقة التى يفعله بها ٠

ـ ولكننا لا نفعل هذا في فيرمونت ٠

ـ آه ٠ نعم ٠ ان الناس فى نيوانجلاند وفى الولايات التى ألغت نظام الرق ، أفضل منا ٠ ولا مندوحة من الاعتراف بهذا ـ ولكن ـ لقد دق جرس العشاء ، فهلم يا ابنة العم نغفل هـــذه الخـــلافات الطبيعية الطبقية ، ولنمض الى الطعام ٠

وفيما كانت أوفيليا فى المطبخ فى آخــــر النهار إذا هى تســمع الأطفال السود يهتفون قائلين :

ـ آه ، هذه برو آتية تقبع كما تفعل دائما ٠

وهنا دخلت المطبخ امرأة ملونة طويلة عجفاء تحمـــل على رأسها سلة مليئة بالفطائر والشطائر الساخنة ٠

وقالت دينا :-

ـ ها ٠٠ لقد أتيت يا برو ٠

وكان لوجه برو طريقة خاصـــة للتعبير عن التجهم والضـيق ، ولصوتها نبرات تنم عن الاستنكار والتذمر ٠ وبعد أن وضعت السلة عن رأسها وتربعت جالسة وأراحت مرفقيها على ركبتيها ، قالت :

ـ يا الهى ٠ لشد ما أتمنى لو أننى مت قبل هذا !

فقالت أوفيليا :

ـ ولم تتمنين الموت ؟

فقالت المرأة بغلظة دون أن ترفع عينيها عن الأرض :

ـ لكى أستريح من شقائى ٠

فقالت خادم شابة خلاسية كانت تحلى أذنيها بقرطين من حجارة المرجان يتأرجحان وهى تتحدث :

ـ ما حاجتك اذن الى ادمان السكر يابرو ثم الاسراف فى الشكوى؟

فألقت المرأة عليها نظرة غامضة ساخطة ثم قالت :

ـ لعلك تعانين ما أنا فيه ذات يوم • وسوف أبتهج حين أراك يومذاك • وسوف تبتهجين أنت عندئذ بقطرات من الشراب لكى تنسى ـ مثلى ـ شقاءك •

وقالت دينا :

ـ هيا يابرو •• اعرضى علينا فطائرك ، فان مس أوفيليا هذه سوف تنقدك ثمنها •

واشترت أوفيليا من الفطائر أربعا وعشرين •

وقالت دينا :

ـ توجد كمية من التذاكر فى ذلك الابريق المشروخ القائم على الرف الأعلى ياجاك ، اصعد اليه وائت بها •

فقالت أوفيليا :

ـ تذاكر ؟ وما شأنها ؟

ـ اننا نشترى هذه التذاكر من سيدها ونأخذ بها الفطائر منها •

وقالت برو

ـ وسيدى يحصى ويقارن التذاكر المبيعة بالنقود عندما أعود اليه ، والويل لى اذا وجد خطأ فى الحساب •

وقالت جين الخادم ذات اللسان السليط :

ـ وأنت خليقة بهذا مادمت تأخذين أموالهم لتسكرى بها • فهذا ماتفعله ياسيدتى •

ـ وهذا ما سوف أفعله دائما ـ اننى لا أستطيع الحياة على نحو آخر • غير أن أسكر وأنسى همومى •

فقالت أوفيليا :

ـ انك شريرة جدا ، وحمقاء جدا لأنك تسرقين مال سيدك

وتجعلين من نفسك به وحشا بغيضا ٠

ـ قد يكون هذا ياسيدتى ، ولـكننى لن أقلع عنه ـ نعم ٠٠ لن أقلع عن السكر ٠ آه يا الهى ٠ ياليتنى مت قبل هـذا ، نعم ٠٠ ياليتنى مت واسترحت من بؤسى ٠

ثم أخذت المرأة العجوز تنهض متباطئة متصلبة وتعيد وضع السلة على رأسها ولكنها ، قبل أن تنصرف ، التفتت الى الفتـاة الخلاسية التى بقيت واقفة تعبث بقرطها وقالت :

ـ انك تتوهمين أنك رائعة الجمال بهذه الدلايات ، ولهذا تختالين بهز رأسك وتحتقرين كل انسان ـ من يدرى ؟ فلعلك تعيشين حتى تصبحى امرأة عجوزا فقيرة منقطعة مثلى ـ أدعو الله أن يكون هـذا مصيرك ٠ نعم ٠ أدعـوه ٠ وعندئذ سنرى هـل تشربين الخمر ، وتشربين ٠٠ وتشربين حتى تعذبى بذلك نفسك ٠ وعندئذ تستحقين كل ما يجرى عليك ٠

ثم غادرت المرأة المكان وهى تنعق نعيق البوم ٠

وقال أدولف الذى كان يجهز المياه الدافئة لحلاقة ذقن سيده :

ـ يالها من حيوان عجوز منفرة ، لو كنت سيدها ، لجعلتها أسوأ حالا مما هى ٠

فقالت دينا :

ـ ما كنت لتستطيع أن تفعل بها ذلك بحال من الأحـوال ٠ ان منظر ظهرها لرهيب ٠ انها لا تطيق لمس الثوب له ٠

وقالت جين :

ـ أعتقد أنه لا ينبغى السماح لمثل هـذه المخلوقات الحقـيرة أن تدخل بيوت الأسر الراقية ٠

ثم أومأت برأسها فى دلال نحو أدولف وأردفت وهى تقول :

ـ ما رأيك يامستر سانت كلير ؟

وهنا ينبغى أن نلاحظ أن أدولف تعود أن يستعير ـ فيما يستعير من حاجيات سيده ـ اسمه ولقبه • وأنه كان يعرف فى دوائر الملونين بمدينة أورلينز باسم « المستر سانت كلير » •

وأجاب أدولف قائلا :

ـ اننى بالتأكيد متفق معك فى هذا لرأى يامس بنوار •

وكان « بنوار » هو اسم أسرة مارى زوجة سانت كلير ، وكانت جين من جوارى هذه الأسرة •

وعاد أدولف يقول :

ـ معذرة يا مس بنوار ، أتسمحين أن أسألك ، هل هذان القرطان لحضور الحفلة الراقصة غدا مساء ؟ انهما يقينا قرطان فاتنان •

فقالت جين وهى تهز رأسها فى دلال حتى أبرق القرطان مرة أخرى :

ـ لست أدرى يامستر سانت كلير ، ماذا تكون عاقبة وقاحتكم أيها الرجال • واذا تماديت فى أسئلتك فلن أرقص معك طيلة السهرة •

فرد عليها أدولف بقوله :

ـ لا يمكن أن تبلغ بك القسوة هذا الحد • لقد كنت أتحرق شوقا لأعرف هل تحضرين الحفلة بثوبك القرمزى ؟

فقالت روزا الخادمة الصغيرة الخلاسية المرحة التى أقبلت مسرعة الى المطبخ فى تلك اللحظة :

ـ فيم تتحدثون ؟

ـ أيمكن أن يكون المستر سانت كلير شديد الجرأة وقحا الى هذا الحد ؟

وقال أدولف :

ـ بشرفى أنى سأترك هذا الموضوع لروز الآن ٠

وقالت روزا وهى توازن نفسها على قدمها الصغيرة وتنظر بخبث الى أدولف :

ـ أنا أعرف أنه مخلوق سليط دائما ٠ وهو لا ينفك يغضبنى منه أشد الغضب ٠

فقال أدولف :

ـ سيداتى ٠٠ سيداتى ٠٠ انكن يقينا ستحطمن قلبى بينكن ٠ ولسوف يعثرون بى ميتا فى سريرى ذات صباح ، ونلقى تبعة هـذا عليكن ٠

فقالت الفتاتان وهما تضجان بالضحك :

ـ اسمعوا الى هذا المخلوق البغيض وهو يتحدث ٠

وقالت دينا :

ـ هيا اخرجن جميعـا ٠ فأنا لا أطيق هرجكن فى المطبـخ ، واعتراضكن لسبيلى ، وعبثكن هذا الفارغ ٠

وقالت روزا :

ـ ان العمة دينا خائفة لأنها لا تستطيع شهود الحفلة الراقصة ٠

فقالت دينا :

ـ اننى لا أرغب فى حضور حفلاتكن الراقصة البذيئة هذه ، حيث تتوهمن أنكن من الجنس الأبيض وأنتن فى الواقع زنجيات مثلى ٠

وقالت جين :

ـ أن العمة دينا تكثر من وضع الدهون على شـعرها المفلفل كل يوم حتى تجعله لينا مستقيما ٠

وقالت روزا فى خبث وهى تهز خصلات شعرها الناعم الطويل

ـ ولكنه سيبقى مفلفلا صوفيا على الدوام ٠

فقالت دينا :

ـ أن الشعر المفلفل فى نظر الله كأى شعر آخر على كل حال ٠ وأحب أن أعرف رأى سيدتى فى أينا أفضل: أواحدة مثلى ، أم اثنتان مثلكما ؟ اخرجا من هنا أيتها الفارغتان ـ فانى لا أريدكما حولى ٠

وهنا انقطعت المحادثة بطريقة مزدوجة ٠ فقد سمع صوت المستر سانت كلير على رأس السلم وهو يسأل أدولف هل يبقى طيلة المساء دون أن يأتى بماء الحلاقة ٠ وفى الوقت نفسه خرجت أوفيليا من قاعة الطعام وهى تقول :

ـ جين وروزا ؟ لماذا تضيعان وقتكما هنا ؟ اذهبا للقيام بعملكما فى خياطة قماش الموصلين ٠

وكان صاحبنا توم ، الذى حضر المناقشة فى المطبخ أثناء وجود بائعة الفطائر ، قد تبعها الى الشارع ، ورآها تمضى فى طريقها وهى تئن بين الحين والحين أنينا مكتوما حتى وضعت السلة أخيرا على عتبة باب ، وراحت تنسق طيات مطرفها القديم الكالح الذى كان يغطى كتفيها ، فقال لها توم فى عطف واشفاق :

ـ سوف أحمل عنك السلة بعض الطريق ٠

فقالت المرأة :

ـ ولم هذا ؟ اننى فى غير حاجة الى مساعدة ٠

فأجابها توم بقوله :

ـ يبدو انك مريضة ، أو متعبة ، أو بك شىء من هذا القبيل ٠

فقالت المرأة بعبارة موجزة :

ـ لست مريضة ٠

فنظر توم اليها نظرة جد وقال :

ـ اننى أرجو ٠٠ أرجو لو استطعت أن أقنعك بالاقلاع عن شرب الخمر ٠ ألا تعلمين أن فى هذا هلاكك ٠٠ جسما وروحا ؟

فقالت المرأة فى اكتئاب ظاهر :

ــ أنا أعرف أن العذاب هو مصيرى ، فلا حاجة بك لأن تقول لى هذا . اننى بشـــعة .. اننى شريرة ، ان العذاب هو مصـــيرى . يا الهى .. اننى أتمنى أن يكون الأمر هكذا .

وسرت الرعدة فى جسم توم وهو يسمع هــذه الكلمات الرهيبة تلفظ فى اكتئاب وجد وقوة .

ــ ليرحمك الله أيتها المسكينة . ألم تسمعى يوما ما عن الله ؟

ــ الله ؟ ومن هو ؟

ــ عجبا ! انه الرحمن الرحيم .

ــ أظن أنى سمعت عنه ، كما سمعت عن الحساب والعقاب .لقد سمعت عن هذا .

ــ ولكن ألم يخبرك أحد عن الله الذى يحبنا نحن الفقراء المساكين؟

فقالت المرأة :

ــ لست أعرف شيئا من هذا . ان أحدا لم يخبرنى أبدا منذ مات زوجى .

فسألها توم :

ــ وأين نشأت ؟

ــ فى ولاية كنتكى . كان يحتفظ بى رجل هناك لألد له أطفالا يبيعهم فى ســـوق الرقيق ، وكان يبيعهم بمجرد أن يكبروا . ثم باعنى آخر الأمر لأحد السماسرة . ومنه اشترانى سيدى الحالى .

ــ وما الذى دفع بك الى هذه الرذيلة ، رذيلة ادمان الخمر ؟

ــ لكى أهرب من شقائى . لقد كان لى ابن بعد وصولى الى هنا ، وخطر لى أنه سيبقى معى لأربيه . لأن ســـيدى لم يكن من تجار الرقيق . وكان ابنى هذا من ألطف الأبناء ، وكانت سيدتى شديدة

الاهتمام به ، فى أول الأمر • فهو لم يكن يبكى أبدا ، كما كان موفور الصحة ، ممتلىء الجسم • ولكن سيدتى مرضت بالحمى ، فقمت على رعايتها ، وانتقلت الحمى الى ، فجف اللبن فى ثديى ، وهزل ابنى حتى أصبح جلدا وعظاما • وأبت سيدتى أن تشترى له اللبن • كما رفضت أن تستمع الى حين قلت لها ان اللبن جف فى ثديى ، وقالت انها تعرف أن فى مقدورى اطعامه مما يطعمه بقية الناس • وظل الطفل يزداد هزالا ويبكى من الجوع ويبكى ••ويبكى ليلا ونهارا حتى أصبح عظاما وجلدا • وضاقت سيدتى به ذرعا وقالت انه لم يبق فيه شىء غير الفظاظة واللؤم • وقالت انها تتمنى له الموت • وأبت أن تسمح لى برعايته ليلا ، لأنه على حد قولها يجعلنى أسهر طيلة الليل ، ومن ثم لا أصلح لشىء فى النهار • وأرغمتنى على النوم معها فى غرفتها ، فكنت أضطر الى وضعه فى غرفة صغيرة على سطح الدار ظل يبكى حتى فارق الحياة فى احدى الليالى ، وعندئذ الجأت الى الشراب لأبعد صيحات بكائه عن أذنى • نعم • أدمنت الشرب ، وسوف أبقى هكذا حتى لو دخلت النار لهذا السبب • وسيدى يقول اننى سأدخل النار ، وأنا أقول له اننى الآن أعيش فى هذه النار فعلا •

فقال توم :

ــ آه أيتها المخلوقة المسكينة • ألم يخبرك أحد أن الله يحبك ؟ ألم يقولوا لك انه سيساعدك ويغفر لك بحيث تدخلين الجنة فى النهاية وتستريحين ؟

فقالت المرأة :

ــ هل أبدو فى عداد الذاهبين الى الجنة ؟ أليست هى التى سيدخلها البعض ؟ ولنفرض أنى دخلتها معهم ؟ اننى عندئذ أفضل الحياة فى النار كى أهرب من سيدى وسيدتى •

قالت هذا وهى تئن كعادتها وتضع السلة على رأسها ، وتمضى فى طريقها متجهمة الوجه مكفهرة •

واستدار توم ، وسار محزون القلب نحو البيت ، وهناك ، فى

الفناء ، التقى بالصغيرة ايفا ـ وكانت تضع على رأسها تاجا من زهور الياسمين البحرى وقد تألقت عيناها بالبهجة والسرور ٠

وقالت له وهى تمسك بيده :

ـ آه يا توم ٠ أهـــذا أنت ؟ يسرنى أن عثرت عليك ٠ يقـــول أبى ان فى مقدورك اعداد المهرين ومصاحبتى فى مركبتى الصـغيرة الجديدة ٠ ولكن ٠٠ ماذا بك ياتوم ؟ انك تبدو غير مرح ٠

فقال توم والحزن باد عليه :

ـ اننى أشعر بالأسى يامس ايفا ٠ ولكننى سأعد الجوادين لك ٠

ـ ولكن ٠٠ اخبرنى ياتوم ٠ ماذا بك ٠ لقد رأيتك تتحدث الى تلك العجوز الغاضبة برو ٠

وذكر توم لايفا قصة المرأة فى عبارات بسيطة جدية ٠ ولم تصرخ هى أو تدهش أو تبك ، كما يفعل غيرها من الأطفال ٠ بل امتقعت وجنتاها ، وطاف بعينيها ظل عميق من الألم ، ثم وضعت كلتا يديها على صدرها وتنهدت وزفرت زفرات عميقة ٠

الفصل التاسع عشر

تجارب المس أوفيليا وآراؤها .. (تتمة)

وقالت ايفا :

ـ ياتوم .. لا داعى لأن تعــد لى الجيــاد . فانى لا أرغب فى الخروج .

ـ ولم لا يا مس ايفا ؟

فقالت ايفا :

ـ ان هذه الأشياء تحز فى قلبى .

ثم رددت العبارة فى جد قائلة وهى تستدير وتنصرف الى البيت :

ـ ان هذه الأشياء تحز فى قلبى ، ولا أرغب فى الخروج .

وبعد أيام قليلة ، أقبلت امرأة أخرى ، بدلا من العجــوز برو ، تبيع الفطائر ، وكانت أوفيليا فى المطبخ . وصاحت دينا قائلة :

ـ يا لله ماذا حدث لبرو ؟

فقالت المرأة قولا غامضا خفيا :

ـ ان برو لن تأتى بعد اليوم .

فقالت دينا :

ـ ولم لا تأتى ؟ انها لم تمت ؟ أو تراها قد ماتت ؟

فقالت المرأة وهى تنظر الى أوفيليا :

ـ اننا لا ندرى على وجه التحديد . فهى محبوسة فى قبو المئونة .

وبعد أن حملت أوفيليا الفطائر ، تبعت دينا المرأة الى الباب وقالت لها :

ـ اخبريني ، ماذا حدث لبرو ؟

ولاح على المرأة أنها تريد أن تتحدث ، ولكن في شيء من التمنع ، وأخيرا أجابت في صوت خافت غامض :

ـ اسمعي ، حذار أن تقولي لأحد ! لقد سكرت برو مرة أخرى • واضطر سادتها الى ايداعها قبو المئونة • وقد تركوها طيلة اليوم ، وسمعتهم يقولون ان الذباب يحط عليها ، وأنها ماتت •

ورفعت دينـــا يديها ، واذا هي ترى ، وهي تلتفت ، الصغيرة ايفانجلين واقفة بجانبهـــا كالطيف وقد ارتسمت أمارات الفزع في عينيها الواسعتين البريئتين ، وانحسرت كل قطرة دماء عن شفتيها وخديها •

وصاحت دينا قائلة :

ـ ليرحمنا الله • ان ايفا توشك أن يغمى عليها ! ماذا دهانا حتى نجعلها تسمع حديثا كهذا ! ان أباها سوف يجن غضبا •

فقالت الطفلة بثبات :

ـ انني لن أفقد وعيي يادينا • ولماذا لا ينبغي لي أن أســمع مثل هذا الحديث ؟ أكثير علي أن أسمعه ، وليس بكثير على المسكينة برو أن تعانيه ؟

ـ يرعاك الله ! ان مثل هـــذه المآسي ليست مما يصح أن تسمعه أمثالك الصغيرات الرقيقات اللطيفات فهي تكفي لقتلهن •

وتنهدت ايفا مرة أخرى ، وراحت تصعد السلم بخطوات بطيئـة مهمومة •

وسألت أوفيليا عن قصة المرأة في قلق واهتمام ، فقدمت دينـــا اليها صورة مليئة بالثرثرة ، وأضاف اليها توم بعض التفاصـــيل التي استقاها من المرأة في ذاك الصباح •

وصاحت أوفيليا وهى تدخل الغرفة التى رقد فيها سانت كلير يقرأ صحيفته :

ــ انها حالة كريهة ــ بشعة !

وقال سانت كلير :

ــ آه ٠٠ أرجو أن تخبرينى أى جور قد حدث أخيرا ؟

ــ أخيرا ؟ عجبا ! ان هؤلاء القوم قد جلدوا برو حتى الموت ٠

ثم أخذت تسرد فى حماسة شديدة تفاصيل مأساة المرأة ، وتتبسط فى ذكر وقائعها البشعة ٠ ولكن سانت كلير قال وهو يواصل قراءة صحيفته :

ــ لقد ظننت أن هذا سوف يحدث لها ذات يوم ٠

ــ ظننت ! ألا تنوى أن تتخذ أية اجراءات فى هذا الشأن ؟ ألا تعرف أحدا من النواب أو أى شخص يمكن أن يتدخل للنظر فى هذه الشئون ؟

ــ ان المفروض عادة هو أن حق الملكية وقاء كاف فى هذه الأحوال ٠ فاذا شاء الناس أن يدمروا ممتلكاتهم ، فأنا لا أدرى ماذا فى وسعى أن أفعل ٠ ويلوح أن تلك المرأة المسكينة كانت لصة وسكيرة ، ولهذا فليس ثمة أمل كبير فى استدرار العطف عليها ٠

ــ ان هذا أمر شنيع جدا يا أوجستين ٠ بشع ٠ انه سينزل لعنات الله عليكم يقينا ٠

ــ اننى يا ابنة عمى العزيزة لم أفعل بها هذا ٠ ولم يكن فى وسعى أن أمنعه ، ولو استطعت لفعلت ٠ فاذا شاء السفلة المتوحشون أن يفعلوا فعال السفلة المتوحشين ، فماذا أستطيع أنا أن أفعل ؟ ان لهم السيطرة الكاملة على عبيدهم ٠ انهم طغاة مستهترون ٠ ومن ثم فلا جدوى من التدخل ، لأنه لا يوجد قانون يبيح التدخل فى أمثال هذه الحالات ٠ وخير ما يمكننا أن نفعل هو أن نغمض عيوننا ، ونصم آذاننا ، وندعهم وشأنهم ، فهذا هو السبيل الوحيد الباقى أمامنا ٠

ـ كيف يمكن أن تغمض عينيك وتصم أذنيك ؟ كيف يمكن أن تترك هذه الأمور وشأنها ؟

ـ ماذا تنتظرين ياطفلتى العزيزة ؟ فها هنا طبقة ـ مهينة ،خاملة، مثيرة للأعصاب ، وضعت بأكملها بلا قيد أو شرط في أيدى أناس يتصفون بما تتصف به الكثرة الغالبة ، أناس لا يرعون لأحد حقا ولا يستطيعون السيطرة على أنفسهم ، بل انهم فى هذا العالم ليس لهم ادراك سليم لمصالحهم الخاصة ـ تلك هى حال الكثرة العظمى من سكان هذا العالم • وماذا يستطيع أن يفعله الرجل الشريف الرحيم القلب الذى يعيش فى مجتمع ـ هذه حاله ـ الا أن يغمض عينيه ويغلظ قلبه • اننى لا أستطيع أن أشترى كل مخلوق بائس أراه • اننى لا أستطيع أن أكون رسول الخير وقاضى العدالة والانصاف لكل ظلم يقع فى هذه المدينة • وخير ما يمكن أن أفعله هو أن أحاول الابتعاد عن هذا الظلم •

وكان وجه سانت كلير مكتئبا فى تلك اللحظة • وكان الاستياء يبدو عليه بوضوح ، ولكنه لم يلبث أن ابتسم فى مرح وقال :

ـ هيا •• هيا •• لا تقفى هكذا كأنك احدى ربات الأقدار •انك لم ترى الا لمحة بسيطة من خلال الستار ومثلا مما يجرى فى العالم كله من مآس مختلفة الأشكال والألوان • فاذا نحن فتشنا وتحرينا عن كل بلايا الحياة ، فلن يبقى لنا قلب تحس به أى شيء آخر •

ثم أردف قائلا وهو يتراخى على الأريكة ويعاود الانشغال بصحيفته :

ـ ان هذا شبيه بتدقيق النظر فى دقائق مطبخ دينا •

وجلست أوفيليا وتناولت أشغال الابرة ، وقد ارتسمت على وجهها أمارات الاستياء الشديد • وأخذت تعمل بابرتها ، وكانت نيران الغضب تضطرم فى نفسها أثناء تفكيرها ، وأخيرا انفجرت قائلة :

ـ اسمع يا أوجستين • اننى لا أستطيع أن أتغلب على المتاعب

كما تتغلب عليها أنت • وأشد ما أبغضه منك أن تدافع عن هـذا النظام ، هذا هو رأيى •

فرفع سانت كلير رأسه عن الصحيفة وقال :

ـ هه ماذا تقولين ؟ أنعيد الحديث فى هذا الأمر ؟

وقالت أوفيليا وقد أخذ غضبها يزداد حدة :

ـ أقول ان أشد ما أبغضه منك أن تدافع عن هذا النظام •

فقال سانت كلير :

ـ أأدافع أنا عنه ياسيدتى العزيزة ؟ من قال اننى دافعت عنـه يوما من الأيام ؟

ـ انك تدافع عنه طبعا ـ انكم جميعا تفعلون هذا ـ أنتم ياسكان الجنوب جميعا • والا فلماذا تحتفظون بالعبيد ؟

ـ هل أنت غافلة حقا حتى تظنى أنه لا يوجد فى هذا العالم أناس يأتون أعمالا لا يرون أنه يحق لهم أن يفعلوها • أهذا شأنك حقـا ؟ أم أنك لا تفعلين ولم تفعلى أبدا شيئا تعتقدين أنه ليس صوابا •

فقالت أوفيليا وهى تعمل بابرتها فى نشاط :

ـ اذا حدث هذا منى ، فأنا أرجو أن أكفر عنه •

وراح سانت كلير يقشر برتقالته ويقول :

ـ وهذا ما أفعله أنا • فأنا أكفر عنه طيلة الوقت •

ـ ولماذا تستمر فى اتيانه اذن ؟

ـ ألم تستمرى أبدا فى ارتكاب الخطأ بعد أن تكفرى عنه يا ابنة العم الكريمة ؟

فأجابته أوفيليا بقولها :

ـ هذا لا يحدث الا عندما أثار الى حد كبير •

ـ وتلك هى حالتى ، فأنا أستشار أشد الاستشارة • وهذه مشكلتى •

ـ ولكننى دائما أعقـــد العزم على ألا أرتكب الخطأ مرة أخـرى ، وأحاول أن أتخلص منه •

فقال سانت كلير :

ـ لقد كنت دائما أعقد العزم على هذا المرة بعد الأخرى طيلة هذه السنوات العشر • ولكننى لسبب ما ، لم أستطع التخلص من أخطائى وخطاياى ، فهل استطعت أنت يا ابنة العم أن تتخلصى من أخطائك ؟

فقالت أوفيليا بلهجة جادة وهى تضع أشغال الابرة جانبا :

ـ اسمع يابن عمى أوجستين • أعتقـــد أننى أستحق أن تأخـذ على نقائصى ، وأنا أعرف أن كل ما تقول حق وصدق ، وما من أحد يشعر بها كما أشعر بها أنا • ولكن يلوح لى ، مع هـــذا كله ، أن هناك فرقا بينى وبينك • فأنا أوثر أن أقطـــع يدى اليمنى على أن أستمر يوما بعد يوم فى ارتكاب ما أراه خطأ • ولكن مع هذا فان سلوكى لا يطابق تماما اعترافى هذا ، فلا عجب أن تلومنى على فعلى •

فقال أوجستين وهو يجلس على الأرض ، ويضع رأسه على حجرها :

ـ لا تتناولى الأمور بمثل هذه النظرة المفرطة فى الجـــد يا ابنة عمى ، فأنت تعرفين كيف عشت طيلة حيـاتى لا أصلح لشىء ، وكل ما فى الأمر أنى أحب اثارتك لأراك تتحمسين • وأنا أعتقـــد أنك طيبة كريمة أكثر ممـــا يجب • وان التفكير فى هـــذا ليتعبنى الى أقصى حد •

فقالت أوفيليا وهى تضع يدها على جبهته :

ـ ولكن الموضوع جد خطير يا أوجستين !

ـ نعم •• الى حد يسبب لى الحـــزن والاكتئاب •• لا أحب أبدا الحديث الجاد فى الجو الحـــار • فالانسان لا يستطيع أن يرتفع بنفسه الى آفاق عالية من الأخلاق ، مع لسعات البعوض وما اليها •

ثم أردف قائلا وهو يتحمس فجأة :

ـ وأنا أعتقد بوجود نظرية • نعم • اننى أدرك الآن لماذا يمتاز الشماليون بالفضائل عنا نحن الجنوبيين ـ لقد عرفت الموضوع كله الآن •

ـ آه يا أوجستين •• يالك من ثرثار بائس مهوش العقل •

ـ أهكذا أنا ؟ يبدو أنى كذلك حقا ؟ ولكننى سأكون جادا فى هذه المرة ـ ولكن ناولينى سلة البرتقال هذه • أترين ـ ان عليك أن تسترضينى بأباريق الشراب وترفهى عنى بالتفاح اذا أردت أن أبذل هذا المجهود •

ومضى أوجستين يقول وهو يدنى منه سلة البرتقال :

ـ وسوف أبدأ الحديث الآن : اذا ما استلزم الأمر ـ فى سياق الأحداث الانسانية ـ أن يحتفظ الانسان بطائفة من الديدان الآدمية فى الأسر ، فان المراعاة الواجبة لآراء المجتمع تتطلب منه ـ

فقاطعته أوفيليا قائلة :

ـ اننى لا أرى شيئا من الجد فى حديثك •

ثم مضى يقول وقد اكتسى وجهه الوسيم بغلالة من التعبير الجاد الرزين :

ـ انتظرى ، وسوف تسمعين كل شيء • ان خلاصة الأمر يا ابنة العم فى موضوع الرق ، هذا الموضوع المعنوى المجرد ، هو أنه لا يوجد، فى ظنى ، غير رأى واحد : ان أصحاب المزارع الذين يجمعون الثروات عن طريقه ، ورجال الدين الذين يعملون على استرضاء أصحاب المزارع ، والسياسيين الذين يريدون الحكم عن هذا الطريق ، قد يستطيعون ابتكار وصياغة العبارات واخضاع اللغة والتعبيرات الى حد يدهش العالم من دهائهم • انهم يستطيعون أن يستعينوا بالطبيعة والكتاب المقدس وما يعرفه الناس وما لا يعرفونه أيضا لمصالحهم ، ومع هذا كله ، فلا العالم ، ولا هم أيضا ، يمكن أن يقتنعوا بسلامة نظام الرق لحظة واحدة •أنه نظام مصدره الشيطان• هذا هو كل ما فى الأمر • وأنا أعتقد أن الرق مجرد مثل له شأنه لما يستطيع الشيطان أن يفعله فى الطريق الذى هو ماض فيه •

وتوقفت أوفيليا عن عملها بالابرة ، وقد لاحت الدهشة على وجهها • أما سانت كلير فقد مضى يقول وقد بدا أنه مستمتع بدهشتها :

ــ يلوح أنك مندهشة • ولكن اذا أتحت لى الفرصة الكافية ، أفضيت اليك بكل ذات نفسى • أى شيء هذا النظام الخبيث •• الملعون من الله والناس • انتزعى منه كل زخارفه ، وانفذى بفكرك الى أعماقه وجذوره ، فماذا ترين فيه ؟ عجبا ! ألأن أخى كوشى جاهل وضعيف وأنا متعلم وقوى ، ولأننى أعرف كيف أخدعه ، وأستطيع هذا ، يجوز لى ، من ثم ، أن أستولى على كل شيء وأحتفظ به لنفسى ولا أعطيه الا ما يرضى هواى • وقد أجعل كوشى يقوم بدلا عنى بكل عمل شاق قذر غير لائق ، لأنى لا أحب العمل• ولأن الشمس تحرقنى يجب أن يبقى كوشى فى الشمس بدلا منى • يجب أن يكسب كوشى المال لكى أنفقه أنا • يجب أن يتمرغ كوشى فى الوحل لكى أعبر فوقه حتى لا يتلوث حذائى • يجب أن ينزل كوشى على ارادتى ، لا ارادته ، طيلة أيام حياته ولا تتاح له فرصة للدخول فى ملكوت السموات الا باذن منى ؟ ان هذا كله فى رأيى هو نظام الرق • واننى لأتحدى أى انسان أن يقرأ بنود الرق كما وردت فى كتب قوانيننا وأن يجد فيها شيئا غير ما أقول •أتتحدث عن مساوىء الرق ؟ هذا هراء •• ان الرق نفسه هو أس كل سوء • وانالسبب الوحيد الذى لم تنخسف من أجله الأرض ــ كما حدث فى سدوم وعمورة ــ هو أن نظام الرق يمارس بطريقة أحسن كثيرا مما هو فى الحقيقة • فنحن نصطنع العطفونخشى العار لأننا بشر، لا حيوانات متوحشة ، ومن أجل هذا فانالكثير منا لا يستخدمون ــ ولا يجرءون على أن يستخدموا ــ جميع السلطة التى يضعها القانون فى أيدينا بل اننا لنستحى من أن نستخدم هذه السلطة كاملة وان الذين يتمادون فى قسوتهم ، ويبلغون الحد الأقصى فى تعنتهم مع العبيد، انما يفعلون هذا فى نطاق القانون الذى يبيح لهم هذا كله •

وكان سانت كلير قد هم واقفا ، وفعل مايفعله دائما عندما تهتاج مشاعره ، فراح يذرع الغرفة جيئة وذهابا بخطوات سريعة • وكان وجهه الذى يشبه تمثالا اغريقيا يبدو كأنه يتوهج فعلا بحرارة

مشاعره ، واذا عيناه الواسعتان الزرقاوان تضطرمان ، واذا هـــو يلوح بيديه حماسة لاشعورية ، ولم تكن أوفيليا قد رأته على هـذه الحالة من قبل فجلست صامتة لا تنبس ببنت شفة ٠

ثم وقف أمامها على حين غفلة وقال :

ـ انني أعلن اليك (وان كان لا جـــدوى من الحديث في هــــذا الموضوع أو التأثر به) ولكنني أعلن اليك أنه جاءت على أوقات قلت فيها لنفسي انه لو عمدت بلادي كلها الى اغراق كل هذا الشقاء وكل هذه المظالم واخفائها عن الأنظار ، لأغرقت نفسي طواعية معهـا ٠ فعندما كنت أطوف هنا وهناك في سفننا ، أو عندما كنت أمضي في جولاتي لتحصيل ايرادي ، ثم أفكر في كل شخص وضيع فظ حقير وحشي الطبـاع ألتقي به يحق له ـ قانونا ـ أن يكون المالك المطلق التصرف في أي عدد من الرجال والنساء والأطفـــال يستطيع أن يشتريهم بأموال جاء بها من الخداع والسرقة والمقامرة ـ عندما أرى هؤلاء الأشخاص ملاكا لأطفال ضعاف مساكين ، وفتيـات في سن الصبا ، ونساء ، أجد نفسي أكاد ألعن بلادي وألعن معهـــا الجنس البشري كله ٠

فقالت أوفيليا :

ـ أوجستين ٠٠ أوجستين ٠٠ حسبك ما قلت ٠ فأنا لم أســمع شيئا كهذا في حياتي ، حتى في ولايات الشمال ٠

فقال سانت كلير وقد تغيرت فجأة الامارات المرتسمة على وجهه، فاذا هو يعود الى طابعه المستخف المعتاد :

ـ في ولايات الشمال ! ها ٠٠ ها ٠٠ ان سكان ولاياتك الشمالية قوم باردو الاحساس ٠ أنكم باردون في كل شيء ٠ انكم لاتستطيعون أبدا أن تثوروا على الأوضاع القائمة كما نثور نحن اذا ما استثرنا ٠

فقالت أوفيليا :

ـ ولكن السؤال هو ـ

ـ آه ٠ نعم ٠ بالتأكيد ٠ ان السؤال هو ـ وهو سؤال لعين حقا :

كيف وصل بك الحال الى كل هذه الخطايا والبلايا ؟ لسوف أجيب بنفس العبارات الطيبة القديمة التى كنت تلقنينني اياها فى أيام الآحاد ، لقد وصلت الى هذا الحال بتعاقب الأجيال • لقد كان عبيدى عبيد أبى ، بل وأكثر من هذا ، عبيد أمى أيضا ، وهم الآن عبيدى ••هم وذريتهم ،ويلوح أنهمسيزداد عددهم كثيرا على مر الأيام• لقد جاء أبى أولا كما تعلمين — من نيوانجلاند ، وكان رجلا لا يختلف كثيرا عن أبيك • كانت له صفات الرجل الرومانى القديم ، كان رجلا مستقيما موفور النشاط ، نبيل الفكر ، قوى الارادة •واستقر والدك فى نيوانجلاند ليبسط نفوذه على الحجارة والصخور وينتزع من الطبيعة قوته • واستقر أبى فى لويزيانا ليبسط نفوذه على الرجال والنساء وينتزع قوته منهم •.

وهنا نهض سانت كلير وتقدم نحو صورة فى نهاية الغرفة ، وتطلع اليها بوجه كله التقديس والتبجيل ، ثم مضى يقول :

— وكانت أمى ملاكا • لا تنظرى الى هذه النظرة • فأنت تعرفين ما أعنى • لقد كانت فى أغلب الظن من الآدميين بمولدها ، ولكن لم يكن فيها ، بقدر ما استطعت أن ألاحظ عليها ، أى أثر للضعف أو الأخطاء الآدمية • وان جميع الأحياء الذين يذكرونها سواء كانوا أحرارا أو عبيدا ، معارف أو أقارب ، ليقولون هذا عنها • لقد كانت هذه الأم يا ابنة عمى ، الحاجز الوحيد الذى حال بينى وبين الالحاد سنوات طوالا ، كانت صورة مجسمة نابضة للعهد الجديد • كانت حقيقة حية تحتاج الى شرح وتفسير وليس ثمة ما تفسر به الا أنها صورة حية صادقة فيما تنطوى عليه من عوامل الحق والصدق • أوه •• أماه •• أماه ••

وعقد سانت كلير يديه كما يفعل الرجل الذى فقد سيطرته على مشاعره ، ثم اذا هو يعود الى نفسه فجأة ، ويستدير عائدا الى المتكأ فيجلس عليه ويقول :

— كنت وأخى توأمين ، وهم يقولون ، كما تعلمين ، أنه ينبغى أن يتشابه التوأمان ولكننا كنا على النقيض فى كل شىء • كانت له

عينان سوداوان ناريتان ، وشعر فاحم السـواد ، وملامح رومانية قوية حادة ، ووجه خمرى اللون • أما أنا فكان لى شـعر ذهبى ، وعينان زرقاوان ، وملامح اغريقية ، ووجه أبيض ، وكان هو نشيطا دقيق الملاحظة متيقظا ، وأنا انسان حالم أميل الى السـكون • وقد كان كريما مع أصدقائه وأترابه ، ولكنه مختـال فخور مسيطر ، متعال على من هم دونه يطأ بتعليه كل ما يقف فى سـبيله • وكان كلانا صادقا مع نفسه : هو بسبب كبريائه وشجاعته ، وأنا بسبب مثاليتى الفكرية المجردة • وكان كل منا يحب الآخر كما هـو شأن الأولاد عادة ، فى كل حالة أو ظرف • وكان هـو أثيرا عند أبى ، وكنت أنا أثيرا عند أمى •

ومضى سانت كلير فى حديثه قائلا :

ـ وكنت دائما مرهف الاحساس فى نظرتى الى جميع الموضوعات ولم يكن هو أو أبى يدركان شيئا من احساسى هذا أو يعطفان عليه، ولكن أمى كانت تفهمه ، وعندما كنت أختلف مع أخى الفريد ،وأرى أبى ينظر الى فى تجهم ، ألجأ الى غرفة أمى وأجلس بجانبها • وانى لأتذكر كيف كانت ترنو الى بوجنتيهـا المستديرتين وبعينيهـا الهادئتين العميقتين الجادتين ، وثوبها الأبيض ـ فقد كانت دائمـا ترتدى الأبيض من الثياب ـ كنت دائما أفكر فيها كلما قرأت فى سفر الرؤيا عن القديسين الذين يرتدون الملابس البيضاء الناعمـة النظيفة • وكانت على جانب كبـير من النبوغ فى بعض النواحى ، لا سيما فى الموسيقى • وكانت تجلس الى أرغنها وتعزف عليه روائع ألحان الكنيسة الكاثوليكية ، وتغنى بصوت أقرب الى صـوت ملاك منه الى صوت انسان • وكنت أضع رأسى على حجرها وأبكى وأحلم وأحس ، الى أقصى حد ، بعواطف تعجز اللغة عن وصفها •

ولم يكن موضوع الرق فى تلك الأيام مثار أية مناقشة كما هـو الشأن الآن ، ولم يكن أحد يحلم بوجود أى ضرر فى هذا •

وكان أبى أرستقراطى المنبت والنشأة ، وأعتقد أنه لابد كان ، فى حياة أخرى سابقة ، فى دوائر الأرواح العليا ، ومن ثم جاء معه بكل ما فى تلك الحياة القديمة السابقة من كبرياء ، ذلك لأن التعـالى

كان يسرى فى دمه ويختلط بعظامه رغم أنه ينحدر من أصول فقيرة أبعد ما تكون عن عراقة المحتد ، وكن أخى صورة طبق الأصل منه . وأنت تعلمين أن الانسان الأرستقراطى الآن ، فى كل أنحاء العالم ، لا يتصف بالعواطف الانسانية الا فى نطاق معين من المجتمع . وهذا النطاق فى انجلترا ، فى جانب معين ، وفى بورما فى جانب آخر ،وفى أمريكا فى جانب ثالث . ولكن الطابع الأرستقراطى فى كل هـــذه البلاد لا يتعدى هذا النظام . فان ما تراه فى طبقة ما متاعب ومآسى ومظالم ، تراه فى طبقة خرى أمورا عادية مألوفة . وكان الفارق بين الطبقات فى رأى أبى هو اللون . فهو بين أترابه من الجنس الأبيض لا يعلو عليه أحد فى الكرم والانصاف ، ولكنه كان يرى الزنجى ، أيا كانت درجة سواده ، حلقة فى سلسلة التطور بين الانســـان والحيوان . ومن ثم كان يبنى كل آرائه عن الكرم والانصاف طبقـا لهذه النظرية . وأنا أعتقد ، عن يقين ، أنه لو سأله انسان فى صراحة وجرأة هـــل للزنوج أرواح خالدة ، لكان من المحتمـــل أن يتلعثم ويضطرب ويهمهم ثم يقول نعم . ولكن أبى لم يكن بالرجل الذى يهتم كثيرا بالمسائل الروحيـــة . ولم يكن له عواطف دينيـــة ، أكثر من الشعور بالاجلال لله باعتباره ـ فى نظره ـ رئيس الطبقات العليـا فى المجتمع .

وكان يعمل عند أبى خمســـمائة عبد ، وكان رجل أعمـــال قوى الشكيمة ، صلب الرأى يعنى بكل صغيرة وكبيرة ويســـير كل شىء عنده فى نظام وفى دقة واتقان لا يتحول عنهمـا أبدا . فاذا راعيت أن كل هذا العمل كان يتم على أيدى جموع من العمـــال الكسالى المستهترين المهملين الذين نشأوا طيلة حياتهم لا يجدون ما يحفزهم لأن يتعلموا أى شىء غير « الاهمال » كما تقولون أنتم يا آل فيرمونت . أدركت أنه قد توجد فى مزارعه بطبيعة الحال أشـياء كثيرة رهيبة مؤلمة لطفل حساس مثلى .

هذا الى أنه كان له رئيس عمال ـ رجـــل طويل عريض ضخم شديد البطش من أبناء فيرمونت « وأرجو المعـذرة » كان قد تدرب بانتظام على القسوة والوحشية ، ونال أخيرا « الدرجة » التى تؤهله

لأن يمارس مهنته • ولم تكن أمي تطيقه يوما ما ، ولا أنا • ولكنه كان له سلطان كبير على أمي ، وكان هذا الرجل هو الطاغية المستبد في المزرعة •

وكنت عندئذ حدثا صغير السن ، ولكنني كنت أشعر وقتئذ ـ كما أنا الآن ـ شديد الحب لكل ما له صلة ببني الانسان : كنت شغوفا بدراسة الانسانية بجميع صورها وأشكالها • وكان يحلو لي البقاء كثيرا في أكواخ العبيد وبين عمال المزارع ، ومن ثم كنت محبوبا جدا منهم بطبيعة الحال ، وكانوا يسرون الى بكل أنواع شكاواهم وآلامهم فكنت أنقلها الى أمي • وأنشأت معها شبه لجنة لازالة أسباب شكواهم • وقد جنبناهم بالفعل الكثير من القسوة ، ولطالما هنأنا أنفسنا على ما قمنا به من أعمال خير كثيرة ، حتى انتهى الأمر ـ كالمعتاد ـ الى الاسراف في حماستي للعمال والعبيد • ومن هنا أخذ ستبز ـ رئيس العمال ـ يشكو لأبي من أنه لم يعد قادرا على أن يسيطر على العمال ، وأن لابد له من الاستقالة • وكان أبي زوجا محبا لزوجته ، متسامحا معها ، الا أنه لم يكن يتراجع قيد أنملة ، عما يراه ضروريا • ومن ثم وقف سدا منيعا بيننا وبين عمال مزارعه ، وقال لأمي بلهجة صريحة حازمة واضحة ، وان لم يعوزها الاحترام والتبجيل ، انها سيدة البيت المطاعة صاحبة الأمر والنهي على الخدم فيه ، أما أعمال المزارع ، فانه لا يسمح أبدا بأي تدخل فيها من جانبها • وكان يحترمها ويبجلها أكثر من أي مخلوق حي ، ولكنه ما كان ليتردد في أن يقول هذا القول نفسه لمريم العذراء نفسها اذا تدخلت في النظام الذي فرضه •

وكنت أحيانا أسمع أمي تناقشه في بعض الحالات ، وتحاول أن تثير في نفسه مشاعر العطف والشفقة • فكان ينصت الى أحر التوسلات في أدب جم وهدوء أبعد مايكونان عن تشجيعها على مواصلة الجدل ثم يقول « ان الأمر كله يتلخص في هذا : اما أن أفصل ستبز واما أن أحتفظ به • وستبز هو نموذج الدقة والأمانة والكفاءة ، وهو رجل أعمال متقن لعمله ، وقد أوتي من الشفقة ما أوتي معظم الناس • اننا لا نستطيع أن نحصل على الكمال المطلق • واذا كان لا مندوحة من الاحتفاظ به ، فيجب أن أرتضي ادارته

بجملتها وان حدثت منه ، بين حين وآخـــر ، تصرفات لا ترضينا . ذلك أن حكم الناس بجميع أشكاله لا يخلو أحيانا من الشدة ، التى لابد منها ، فالقواعد العامة تكون شديدة الوقع فى حالات خاصة »
وكان أبى يعتبر هذا الرأى الأخير مبررا لكثير من أنواع القسوة التى تعزى الى ستبز . وكان اذا قال هذا ، يجمــع قدميه على الأريكة كما يفعل الرجل الذى نفض يديه من شئون العمل ، ثم يغفى اغفاءة قصيرة أو يقرأ الصحيفة حسب الظروف .

والحق أن أبى كان يتمتع بمواهب رجال الحكم لا يفترق عنهـم فى شىء . كان فى مقدوره أن يقسم بولندا بنفس الســهولة التى يقسم بها برتقالة و يطأ بقدميه ايرلندا فى هدوء ونظام كما يفعـل أى انسان على وجه الأرض . وأخيرا استسلمت أمى يائســة . وما أظن أن أحدا سيعرف يوما ما ــ حتى يوم الحساب ــ مدى ما كانت تعانيه هى وأمثالها من النفوس النبيلة المرهفة الاحساس ــ عنـدما تتردى فى استســلام تام ويأس كامل فى هاوية الظلم والقسوة ، دون أن يعرف من حولها مبلغ هذا الظلم وهذه القسوة . لقــد كان ذلك العهد لمثل هذه النفوس النبيلة آلاما وأحزانا متصلة فى عالمنـا هذا الذى يبدو كأنه قطعة من الجحيم . وماذا تبقى لها الا أن تنشىء أبناءها على آرائها وعواطفها . ومع ذلك ، فان الأطفـال ، رغم كل ما يقال عن وسائل التربية وأصولها، ينمون ويشبون حسبفطرتهم المتأصلة فيهم وحدها ، لا يحيدون عنها فى جوهرها ، ومصداقذلك أن ألفريد كان منذ نعومة أظفاره أرستقراطى الطبــع ، وكانت كل عواطفه وميوله وآرائه ــ أثناء نموه ــ تنمو معــه . ومن ثم ذهبت تعاليم أمى له أدراج الرياح . أما أنا ، فقد كانت تعاليمهــا تستقر فى أعماق نفسى . ولم تكن تحاول أبدا أن تعارض معارضة ظاهرة ما كان يقوله أبى أيا كان ، ولم يكن يبدو أنها تختنف عنه اختــلافا صريحا . ولكنها كانت تطبع فى أعماق نفسى بكل ما فى طبيعتهــا من جد وقوة ، ما للنفوس البشرية مهما صغرت وهانت من قيمــة وكرامة . وكنت أنظر الى وجهها فى رهبة وخشوع وهى تشير الى نجوم الليل وتقول لى :

ــ أنظر يا أوجست . ان أحقر وأصغر روح فى مزارعنا ســوف

تبقى حية عندما تنطىء هذه النجوم الى الأبد • سوف تبقى ما بقى الله سبحانه •

وكان لديها بعض لوحات فنية قديمة جميلة ولا سيما لوحة منهـا للمسيح وهـو يشفى الأكمـة ، وكانت لوحات جميلة جـدا ، وطالما كانت تترك فى نفسى أثرهـا العميق • وكانت تقـول لى « اسمع يا وجست ، ان الرجل الأكمه كان متسولا ، بائسا ، تشمئز منه النفس • ولهذا فان المسيح لم يرض أن يشفيه من بعيـد ، بل ناداه اليه ووضع يده عليه • فتذكر هذا يا ولدى » • ولو أننى بقيت تحت رعايتها حتى كبرت ، لكان من الممكن أن تجعل منى ما لا أدرى ماذا من ذوى الرسالات ـ كان يمكن أن أكون قديسـا أو مصـلحا اجتماعيا ، أو شهيدا • ولكن •• وا أسفاه •• لقد افترقت عنها وأنا فى الثالثة عشرة من عمرى لا أكثر ، ولم أرها بعد ذلك أبدا •

وأراح سانت كلير رأسه على يديه ، وبقى صامتا بضع لحظـات • ثم رفع رأسه بعد قليل ومضى يقول :

ـ أى سخف حقير وضيع ذلك الذى يقال عن الفضائل الانسانية؟ ليست هذه الفضائل فى معظم الأحـوال الا مسألة طـول وعرض وموقع جغرافى تتفاعل مع المزاج الطبيعى • وهى فى الجانب الأكبر منها لا تعـدو أن تكون بنت الصدفة • فوالدك مثلا قد اسـتقر فى فيرمونت ، وهى مدينة كل من فيها أحرار متسـاوون • وقد أصبح عضوا بالكنيسة وشماسا ، ثم انضم فى الوقت المناسب الى جمعية « الغاء الرق » وراح ينظر الينا على أننا لا نزيد كثيرا على أن نكون جمـاعة من الكفرة • ومع ذلك ، فانه فى نظر العـالم كله صـورة مكررة من أبى فى جسمه وعاداته • وفى مقدورى أن أرى التشابه بينهما فى أكثر من خمسين ناحية مختلفة • لقد كان لكـل منهما نفس الروح القوية المتعالية المسيطرة وأنت تعرفين تماما كيف يستحيل عليك بأية حال أن تقنعى بعض سكان قريتك بأن والدك المحترم سنكلير لا يحس بأنه يعلو عليهم • والحق أنه على الرغم من وجوده فى بيئة ديموقراطية ، وأنه اعتنق المبـادىء الديموقراطية ، فانه فى قرار نفسه ارستقراطى النـزعة كأبى الذى كان يحكم

خمسمائة من العبيد أو ستمائة ٠

وأحست الآنسة أوفيليا بميل الى معارضته فى هذه الصورة التى رسمها ، فوضعت أشغال الابرة جانبا لتبدأ هذه المعارضة ، ولكن سانت كلير فوت عليها غرضها اذ أسرع يقول :

ـ أنا أعرف كل كلمة تنوين التفوه بها ٠ فأنا لا أقول أنهما متماثلان فى الواقع ، فأحدهما وجد نفسه فى ظروف كل شىء فيها ضد ميوله الطبيعية ، والثانى وجد نفسه فى ظروف كل ما فيها يتجاوب مع طبيعته ٠ ولهذا أصبح الأول من الطراز القديم عنيدا ، صلب الرأى ، وأصبح الثانى طاغية من الطراز القديم عنيدا صلب الرأى أيضا ٠ ولو أنهما كانا من أصحاب المزارع فى لويزيانا ،لكان الاثنان متماثلين فى كل شىء كأنهما رصاصتان صبا فى قالب واحد ٠

فقالت المس أوفيليا :

ـ يا لك من ولد عاق ٠

فقال سانت كلير :

ـ اننى لا أقصد أن أحقرهما بأى حال ٠ وأنت تعرفين أن احترام الناس ليس من الصفات المميزة لى ، ولكن لنعد الى قصتنا :

لما مات أبى ، ترك جميع ممتلكاته لنا نحن ابنيه التوأمين لكى نقسمها بيننا حسبما نتفق عليه ٠ وأعتقد أنه لا يوجد فى أرض الله الواسعة انسان أنبل نفسا وأكرم طبعا من ألفريد مع جميع الذين فى مستواه الاجتماعى ٠ ومن ثم تقاسمنا التركة على أحسن حال دون أن تصدر من أحدنا كلمة سوء أو احساس غير مستحب مهما صغر ٠ لقد اتفقنا على أن ندير المزرعة ونتولى أمرها معا ، واستطاع ألفريد بتجاربه وكفاءاته وقوته التى هى ضعف قوتى ، أن يكون مزارعا شديد التحمس لعمله ، وبلغ من النجاح غايته ٠

ولكن ما بذلته من محاولات خلال عامين أقنعنى بأنى لا أستطيع أن أكون شريكا فى ذلك العمل ٠ لقد كان امتلاك جماعة كبيرة من سبعمائة من الناس ، لا أستطيع التعرف على أشخاصهم أو أشعر

باهتمام خاص بكل منهم ، قوم مشترون بالمال ، يساقون الى العمل، ويقدم لهم المسكن والطعام ، ويعملون كما تعمل الأنعام ، ويخضعون لنظام عسكرى يرهقهم ارهاقا ولا يحيدون عنه قيد انملة ، والتفكير فى أقل قدر من متع الحيـــاة العادية يحتاجونه للقيـــام بعملهم بانتظام ، والعلم بأنه لابد من وجـــود من يســوقهم الى العمـــل ويشرف عليهم فيه وأن الســوط هو الوسيلة الأولى والأخـــيرة لدفعهم الى العمل واقناعهم بالكلام به ــ كل هذا كان بغيضا لنفسى تشمئز منه ولا تطيقه • وكانت تزداد بشاعته فى نظرى كلما فكرت فى تقدير أمى للنفس البشرية • ان من لغو القول بلا مراء أن يحدثنى أحد عن «استمتاع» العبيد بكل هذا• فأنا الى هذا اليوم لا أطيق ذلك السخف الشـــديد الذى يلغو به بعض الشــماليين فى حماستهم للاعتذار عن خطـــايانا • فنحن أكثر دراية بالأمر منهم ــ فأين هو الرجل الذى يرغب فى العمل طول حياته من مطلع الفجر الى ظلمـــة الليل ترقبه عين سيده التى لا تغفل ، دون أن تكون له القدرة على أن يبدى رأيا ، أو يعبر عن ارادة ، ولو مرة واحدة ، فى سياق عملـــه الدائم الممل الذى لا يتغير ، وكل هذا نظير سروال وحذاء فى العام ، والقليل من الطعام والمأوى الضروريين لتمكينه من اســـتمراره فى العمل • اننى أتمنى أن يجرب هذا أى رجل يعتقد أن الآدميين يمكن بوجه عام أن يشعروا بالراحة والرضى عن هذا النوع من الحيـــاة • لخير للانسان أن يشترى كلبا ويستغله وهو مرتاح الضمير •

وقالت المس أوفيليا :

ــ لقد كنت دائما أعتقد أنكم جميعا راضون عن هذا كله ، وترونه حقا وصوابا طبقا لمبادىء الكتب المنزلة •

ــ هراء • اننا لم ننحدر بعد الى هذا المستوى • ان ألفريد الذى هو من أشد الطغاة استبدادا لا يلجأ الى هذه الحجة للدفـــاع عن نفسه ــ لا ــ انه يؤمن فى كبرياء وتعال بذلك المبدأ القديم الطيب ، وهو حق أقوى النـــاس فى السيطرة على أضعفهم ويقول ــ وهو فى رأيى قول معقول ــ ان المزارع الأمريكى « انما يعمـــل ما تعمله الأرستقراطية والرأسماليون الانجليز مع الطبقات الدنيـــا » وهو

يقصد ـ كما أفهم ـ استغلالهم جسما وعظما وروحا ونفسا لمصالحها وأسباب راحتها كما يقول • وهو يدافع عن الصورتين وأقل ما يقال انه يدافع عنهما دفاعا منطقيا ، فيقول انه لا يمكن وجود حضارة عليا دون استعباد واستغلال للجماهير سواء كان هذا الاستعباد اسميا أو حقيقيا • وأنه لا مندوحة ـ كما يقول ـ من وجود طبقة دنيا مخصصة للمجهود البدني ، ومحصورة في نطاق الطبيعة الحيوانية ، وطبقة أخرى أعلى تستمتع بالفراغ والثراء لتوسيع آفاق الفكر ولتحسين وسائل المعيشة ، ولتصبح الروح الموجهة للطبقة الدنيا • هذه هي حجته لأنه ، كما قلت ، أرستقراطي المولد ، وأنا لا أومن بهذا لأني ولدت ديموقراطيا •

فقالت المس أوفيليا :

ـ بالله كيف يمكن المقارنة بين النظامين ؟ ان العامل الانجليزى لا يباع ولا يتجر فيه ، ولا ينتزع من أسرته ، ولا يجلد بالسياط •

ـ انه خاضع لارادة صاحب العمل كأنه عبد بيع له • ان مالك العبد يستطيع أن يجلد عبده بالسوط حتى يقتله ، والرأسمالى يستطيع أن يقتل عامله جوعا ، أما عن استمتاعه بالأمن والطمأنينة بين أسرته ، فأنا لا أدرى أيهما شر من الآخر أن يرى الانسان أبناءه يباعون أو يراهم يموتون جوعا فى بيته •

ـ ولكن البرهنة على أن الرق ليس أسوأ من نظام سيء آخر لايعتبر دفاعا عن الاسترقاق بأى حال من الأحوال •

ـ لم أقل هذا للدفاع عنه ، بل أقول أكثر من هذا ، ان نظامنا أشد جرأة واستهتارا فى خروجه على حقوق الانسان : انه فى الواقع شراء الرجل ، كما يشترى الجواد بعد فحص أسنانه ، وطقطقة مفاصله ، وتجربة خطوه ، ثم أداء الثمن بعد ذلك • انها تجارة لها سوق فيها المضاربون بالأسعار ومربو السلالات ، والتجار والسماسرة كلهم يعملون فى الاتجار بالآدميين أجسادا وأرواحا ، انه نظام معمول به فى مواجهة العالم المتمدين بصورة واضحة صريحة ، وذلك رغم أنه فى طبيعته يماثل النظام الآخر فى امتلاك طبقة من المخلوقات

الآدمية لصالح طبقة أخرى وتحسين أحوالها دون أى اعتبار لمصلحة الطبقة المستغلة •

فقالت المس أوفيليا :

ـ اننى لم أفكر فى الموضوع أبدا على هذا النحو •

ـ لقد سافرت الى انجلترا ، وتجولت فيها حينا ، واطلعت على عدد كبير من الوثائق الخاصة بأحوال الطبقات الدنيا من أهلها ، وأنا فى الواقع أؤيد ألفريد فى قوله ان عبيده احسن حالا من طائفة كبيرة من سكان انجلترا • وينبغى ألا تستدلى مما قلت لك على أن ألفريد من السادة الغلاظ الطغاة القساة • لأنه ليس كذلك • فهو مستبد لا يرحم من يتمرد عليه • وهو يقتل بالرصاص أى شخص يعارضه ، دون أن يحس بوخز الضمير الا بقدر ما يحس به حين يقتل طبعا ، ولكنه بوجه عام يستشعر لونا من الفخر فى تقديم الطعام الجيد والمأوى المريح لعبيده •

وعندما كنت أقيم معه ، أصررت على وجوب عنايته بعض العناية، بتعليمهم • وأراد أن يسترضينى فاستعان بقسيس ليلقى عليهم المواعظ فى أيام الآحاد ، وان كنت أعتقد أنه كان يرى فى أعماق نفسه أنهم لن يفيدوا من هذه المواعظ الا بقدر ما يفيد من مواعظ القس• والحق أن العقل اذا تبلد من ساعة مولده حتى أصبح صاحبه كالحيوان الأعجم ـ لما يحيط به من آثار سيئة لاعداد لها ، والذى يقضى أيام الأسبوع كلها يكدح كدحا لا يتيح له التفكير فى شىء ـ لا يمكن أن يفيد شيئا من بضع ساعات من المواعظ والارشاد كل يوم أحد • ولعل مدرسى مدارس الأحد بين العمال بانجلترا وبين عمال الزراعة فى بلادنا ، يستطيعون أن يشهدوا بهذه النتيجة نفسها هنا وهناك ، ومع ذلك فالأمر لا يخلو من حالات استثنائية بيننا تستلفت النظر أساسها : أن الزنجى بطبيعته أكثر تأثرا بالعاطفة الدينية من الرجل الأبيض •

فقالت المس أوفيليا :

ـ ولكن قل لى كيف أقلعت عن الحياة الزراعية ؟

ــ لقد مضينا فى العمل معا بمشقة فترة من الزمن حتى أدرك ألفريد بوضوح أننى لست مزارعا بطبيعتى · وقد رأى أن من السخف أن أبقى غير راض بعد كل ما قام به من تغيير وتحسين واصلاح فى كل مكان وفقا لآرائى · فالحقيقة كانت ، وستكون ، رغم كل شىء هى ذلك الشىء الذى أكرهه ·· هى استغلال هؤلاء الرجال والنساء ·· هى استمرار كل هذا الجهل وهذه الوحشية وتلك الرذائل لا لشىء الا لجمع المال لى·

هذا الى أنى كنت دائما أتدخل فى تفاصيل العمل · ولما كنت بطبيعتى أكسل خلق الله ، فقد كنت أعطف فوق ما يجب على الكسالى من الناس · ومن ثم كان يبدو لى أنى ما كنت لأتردد فى أن أفعل ما يفعله هؤلاء الكسالى البائسون عندما يضعون الحجارة فى قاع سلال القطن لكى تثقل وزنها · أو الأتربة فى الأكياس وفوقها القطن · وعلى هذا لم أكن أقبل أو أستطيع أن أقبل أن يجلدوا لهذا السبب ، واختل النظام فى المزرعة بطبيعة الحال · ووصل الأمر بينى وبين ألفريد الى ما وصل اليه بينى وبين أبى المحترم قبل ذلك بعدة سنين ، فقال لى أخى ان عواطفى أشبه بعواطف النساء واننى لا أصلح أبدا للحياة العملية ، ونصحنى بأخذ كل ما لدينا من أسهم فى المصارف ، وقصر الأسرة فى نيو اورلينز ، وأن أنصرف الى كتابة الشعر ، وأن أتركه يتولى أمر المزرعة · وهكذا افترقنا وجئت أنا الى هذا المكان ·

ــ ولكن ·· لم لم تعتق عبيدك ؟

ــ لا ·· لم يصل أمرى الى هذا الحد · نعم اننى لا أستطيع أن أحتفظ بهم ليكونوا أدوات لجمع المال · أما بقاؤهم معى لمعاونتى على انفاق المال فلم يصل الى هذا الحد من الشناعة · هذا الى أن بعضهم كانوا خدما ، خدما قدامى فى المنزل ، وكنت دائما شديد التعلق بهم ، وكان صغار السن منهم أبناء للكبار · وكانوا كلهم راضين كل الرضا عما هم فيه ·

وصمت سانت كلير قليلا ، ثم راح يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، وهو منهمك فى التفكير ثم قال :

ـ لقد مرت بى فترة من الوقت راودتنى فيها الآمال ووضعت الخطط للقيام بشيء فى هذا العالم أكثر من مجرد العيش والانسياق فى تيار الحياة بلا هدف • لقد كنت أحس بحنين غامض غريزى بأن أكون أحد العاملين على تحرير الرقيق ـ فأحرر بذلك بلادى من هذه الوصمة • وأظن أن جميع الشبان قد انتابتهم مثل هذه النوبة الحماسية فى وقت من الأوقات ـ ولكن ••

فقالت المس أوفيليا :

ـ ولم لم تفعل ؟ لم يكن من حقك أن تضع يدك على المحراث ثم تنظر بعينك الى الوراء •

ـ سبب ذلك أن الأمور لم تجر معى كما كنت أتوقع ، فاستولى على اليأس من الحياة ، كما حدث للملك سليمان • وأعتقد أن هذا الشعور كان فى حياتنا نحن الاثنين احدى نوبات الحكمة التى تصادف الناس أحيانا ولكنى أصبحت من ذلك الحين كقطعة من الخشب الطافى على سطح الماء يعبث بها التيار • وأن ألفريد ليؤنبنى كلما التقى بى ، وأنا أعترف أنه أحسن حالا منى • لأنه فى الواقع يعمل ولأن حياته هى النتيجة المنطقية لما يؤمن به • أما حياتى فليست الا خواء لا خير فيه •

ـ أيمكن يا بن عمى العزيز أن تكون راضيا عن هذه الطريقة التى تستنفد بها ما أفدته من التجارب ؟

ـ راضيا ؟ ألم أقل لك الآن اننى أحتقر هذه الحياة ؟ ولكن ، لنعد الى هذه النقطة من حديثنا ، لقد كنا نتحدث عن موضوع تحرير العبيد • لست أظن أن شعورى نحو الرق خاص بى وحدى • فانى أجد كثيرا من الناس يتفقون ـ فى أعماق نفوسهم ـ معى فى هذا الشعور • ان البلاد تئن منه • واذا كان الرق شرا على العبيد ، فهو أكثر من ذلك شرا على السادة ، ولسنا فى حاجة الى كثير من النظر لنرى أن وجود طبقة كبيرة بيننا من الناس الفاسدين المنحطين غير المدبرين مبعث شر لنا ولهذه الطبقة نفسها أيضا • وأن الرأسماليين والأرستقراطيين فى انجلترا لا يشعرون بهذا كما نشعر به نحن ،

لأنهم لا يختلطون بهذه الطبقة التى يمتهنونها كما نفعل نحن هنا • ان أفراد هذه الطبقة موجودون فى بيوتنا ، متصلون بأبنائنا ، وفى استطاعتهم أن يصوغوا عقول هؤلاء الأبناء بأسرع مما نفعل نحن ، لأنهم جنس من الناس يتعلق به الأطفال دائما ويمتزجون بأفراده• ولولا أن ايفا ، الآن ، ملاك طاهر أكثر من المعتاد ، لفسدت حياتها بسبب هذا الاختلاط • وما مثلنا حين نترك أبناءنا بين أيدى فئة جاهلة فاسدة الأخلاق ، ثم نظن أنهم لن يتأثروا بها الا كمثل من يترك مرض الجدرى يتفشى بين هؤلاء الأبناء ونظن أنهم لن يصابوا به • ومع ذلك فان قوانيننا تحرم صراحة وضع أى نظام عام صالح لتعليم العبيد ، ونحن نسعى فى ذلك عن حكمة • لأنك اذا بدأت تعليم جيل من العبيد تعليما وافيا ، فان هذا النظام كله لا يلبث أن ينهار من أساسه • لأننا فى هذه الحال اذا لم نمنحهم الحرية فسوف ينتزعونها منا انتزاعا •

فقالت المس اوفيليا :

ـ وماذا تكون عاقبة هذا كله فيما تظن ؟

ـ لست أدرى • ولكن هناك شيئا واحدا أراه مؤكدا هو احتشاد الجماهير فى العالم كله ، وان ثمة فورات اجتماعية فى طريقها الى الظهور عاجلا أو آجلا • ان هذا ما يعتمل فى مجتمع أوروبا وفى انجلترا وفى هذه البلاد • وقد كانت أمى تحدثنى عن العصر السعيد الذى سيحل يوما ما وفيه يحكم المسيح ، ويصبح جميع الناس أحرارا هانئين •وقد علمتنى ،وأنا طفل، ترنيمة « ليأت ملكوتك » • وانه ليخطر لى أحيانا أن كل هذه الآهات والانات والآلام فى عالم العبيد تنبىء بقرب مجىء ما كانت تحدثنى به • ولكن منذا الذى سيبقى حتى يشهد يوم ظهوره ؟

فوضعت أوفيليا أشغال الابرة جانبا وتطلعت فى قلق الى ابن عمها ثم قالت :

ـ انى لأظن أحيانا يا أوجستين أنك لست بعيدا عن هذا الملكوت•

ـ شكرا لك على حسن ظنك بى • ولكن المسألة بالنسبة لى فى

علو وانخفاض ، علو الى أبواب السماء نظريا ، وانخفـــاض الى ثرى الأرض واقعيا . ولكن .. ها هو ذا جرس الشاى يصلصل . فهيا بنا الآن ولا تقولى اننى لم أتحدث اليك ذات يوم حديثا جادا كـل الجد .

وأشارت مارى سانت كلير وهى على مائدة الشــاى ، الى حادث برو وقالت :

ـ أظن يا ابنة العم أنك تحسبيننا جميعا من الهمج المتوحشين .

فقالت المس أوفيليا :

ـ أظن أن ما حدث عمل وحشى همجى ، ولكنى لا أظن أنكم جميعا من الهمج .

فقالت مارى :

ـ اننى أعرف أن من المستحيل احتمال بعض أولئك الخلائق . انهم من الشر بحيث لا ينبغى أن يعيشوا . وأنا لا أشعر بأى عطف أو اشفاق فى مثل هذه الحالات . فلو أنهم أحسنوا السلوك لماحدث شىء من هذا .

فقالت ايفا :

ـ ولكن تلك المخلوقة المسكينة يا أماه كانت بائسة ، وهـــذا ما جعلها تشرب الخمر .

فقالت مارى وهى تفكر :

ـ هذا هراء لا يصلح أن يكون عذرا . فأنا فى كثير من الأحيان غـير سـعيدة ، فيما أظن . وقد قاسيت من متـــاعب الحيـــاة أكثر ممـــا قاست ولـــكن أولئـك الزنوج قـــوم أشرار . وان منهـــم من لا يمكن تأديبه بأى لون من ألوان القســـوة . وأذكر أنه كان لأبى عبد بالغ الكسل اذ كان يؤثر الهرب حتى لا يعمل . ويلجأ الى المستنقعات يتمرغ فيها وراح يسطو ويسرق ويرتكب كل أنواع الجرائم البشعة . وقد قبض على هذا الرجل المرة بعد الأخرى

وجلد بالسياط ، ولكن ذلك لم يصلح من شأنه • وفي المرة الأخيرة هرب زاحفا ، لأنه لم يكن يستطيع المشى ، وعاد الى الضيعة لأنه لم يكن يقوى على المشى ، حيث قضى نحبه • ولم يكن هنـــاك سبب ما لهذا العمل •

وقال سانت كلير :

ـ لقد استطعت ذات مرة اصلاح واحد من هؤلاء بعد أن عجـــز جميع المشرفين وعجز سادته عن اصلاحه •

فقالت ماري :

ـ أنت ؟ • انى ليسرنى أن أعرف متى قمت بشىء من هذا القبيل؟

ـ لقد كان عبدا ضخما شديد القوة ، افريقى المولد • ويبدو أن غريزة الحرية البدائية كانت تتملكه الى حد كبير ، لقد كان وحشــا افريقيا بحق ، وكانوا يسمونه « سكبيو » ولم يكن فى مقدور أحــد أن يصلح شأنه • وقد ظل يباع من مشرف الى آخر حتى اشـــتراه ألفريد أخيرا وهو يعتقد أن فى مقدوره أن يسوسه • وقد حدث فى يوم أن ضرب رئيس العمال وصرعه أرضا وهرب الى المستنقعات • وكنت عندئذ أقوم بزيارة أخى ألفريد فى المزرعة بعد أن فســخنا الشركة • ورأيت ألفريد فى أشد حالات الغضب ، ولكنى ذكرت له أنه المسئول عما حدث ، ثم راهنته على أى شىء بأن فى مقـــدورى اخضاع ذلك الرجل وترويضه • وتم الاتفاق أخيرا على أنى اذاظفرت به ، أبقيه معى لأجرى تجاربى عليه • ومن ثم حشدوا جماعة من ستة رجال أو سبعة ومعهم البنادق والكلاب لمطاردته • والناس كما تعلمين يتحمسون لصيد الآدميين كما يتحمسون لصيد الظباء ، اذا كان هذا الأمر مألوفا بينهم • والحق أنى كنت أنا نفسى قد تأثرت مشاعرى بغض الشىء رغم أننى لم أذهب معهم الا لأكون وسيطـــا شفيعا اذا قبضوا عليه •

وارتفع نباح الكلاب وعواؤهم ، ومضينا نحن الى المستنقعات حيث ضربنا فيها نطاقا ، وأخيرا فاجأناه ، فاندفع يجرى كالظبى ، وظل بعض الوقت يسبقنا بمسافة طويلة ، ولكنه وقع أخيرا فى أجمة من

الغاب لاسبيل الى النفاذ منها،فاستدار الينا وشرع يدافع عن نفسه•وأنا أؤكد لكم أنه قاوم الكلاب ببسالة فائقة ، وراح يطوح بها ذات اليمين وذات الشمال وصرع ثلاثة منها بيديه العاريتين ، حتى ألقته طلقة نارية على الأرض ، جريحا ، داميا ، عند قدمى • وتطلع المسكين نحوى وقد لاحت فى عينيه مظاهر الرجولة واليأس ، فأبعدت الكلاب عنه ورددت الرجال بعيدا حينما أسرعوا هاجمين عليه، وطالبت به أسيرا لى • وكان أقصى ما فى وسعى أن أفعله أن أمنعهم من اطلاق الرصاص عليه فى نشوة النصر • ولكننى أصررت ، فاضطر ألفريد الى بيعه لى • فاستوليت عليه ، وبعد أسبوعين لا أكثر روضته وجعلته هادئا أليفا لطيفا كما يهوى القلب •

فقالت مارى :

ـ بربك قل لى ماذا فعلت به •

ـ لقد كانت الطريقة التى اتبعتها معه بسيطة فعلا • فقد أخذته الى غرفتى الخاصة ، وأمرت باعداد سرير حسن وثير له ، وضمدت له جراحه بنفسى ، وتوليت تمريضه ورعايته حتى استرد قواه • وأعددت له فى خلال ذلك كله وثائق تحريره وقلت له انه حر يستطيع أن يذهب الى حيث يريد •

فقالت المس أوفيليا :

ـ وهل ذهب ؟

ـ لا • لقد مزق الأحمق المسكين وثائق تحريره ،ورفض رفضا باتا أن يتركنى وأعتقد أننى لم يكن لى فى حياتى خادم أحسن منه ، أو أكثر منه شجاعة • أشجع أو أوفى منه أو أشد أمانة • واعتنق الديانة المسيحية بعد ذلك وغدا رقيقا كالطفل • وتعود أن يشرف على ضيعتى عند البحيرة ، وقد نجح فى هذا أيما نجاح • وقد فقدته فى أول وباء للكوليرا • والحق أنه ضحى بحياته من أجلى • لأنى مرضت بها حتى أشرفت على الموت ، وبينما هرب الجميع من حولى فى فزع ورعب من الوباء ، بقى سكبيو بجانبى يمرضنى ويعنى بى حتى شفيت • ولكن المسكين البائس ، أصيب بالمرض بعد شفائى مباشرة

ولم يكن ثمة سبيل لانقاذه · واعترف أنى لم أحزن على فقد أحد كما حزنت على فقده ·

وكانت ايفا قد راحت تقترب تدريجيا من أبيها وهو يسرد قصته وقد انفرجت شفتاها الصغيرتان ، واتسعت عيناها فى لهفة بالغة واهتمام شديد ملك عليها جميع مشاعرها حتى اذا فرغ من حديثه طوقت عنقه فجأة بذراعيها وانفجرت باكية وراحت تنتحب وترتجف ·

وقال سانت كلير وهو يرى جسم الفتاة الصغير يهتز ويرتعد من عنف انفعالاتها :

ـ ايفا ·· يا ابنتى العزيزة · ماذا بك ؟

ثم أردف قائلا :

ـ يجب ألا تسمع هذه الصغيرة أمثال هذا الحديث · انها عصبية ·

فقالت ايفا وهى تتمالك نفسها فجأة بقوة عزيمة لا مثيل لها فى طفلة فى مثل سنها :

ـ لا يا أبى ، اننى لست عصبية ·· لست عصبية · ولكن هذه الأشياء تنفذ الى أعماق قلبى ·

ـ ماذا تعنين يا ايفا ؟

ـ لا أستطيع أن أقول لك يا أبى · اننى أفكر فى أشياء كثيرة ، وربما أخبرتك بها فى يوم من الأيام ·

فقال سانت كلير :

ـ امعنى فى التفكير يا عزيزتى · وكل الذى أحبه ألا تبكى وتزعجى أباك · أنظرى ما أجمل هذه الخوخة التى جئت بها اليك ·

وتناولتها ايفا وهى تبتسم رغم الاختلاج العصبى الذى كان واضحا عند زاويتى فمها ·

وتناول سانت كلير يدها وتقدم معها الى الشرفة وهو يقول لها :

ـ تعالى وأنظرى الى هذه السمكة الذهبية ٠

وما هى الا لحظات حتى كان رنين الضحكات البهيجة ، ينساب من خلال الستائر الحريرية ٠ فقد كانت ايفا وأبوها يتقاذفان بالزهور ويطارد أحدهما الآخر بين منعطفات الفناء ٠

نخشى أن يضيع صاحبنا المتواضع توم بين أحداث أبناء الذوات فى هذه القصة ٠ ولكن اذا مضى قراؤنا معنا الى غرفة صغيرة فوق مربط الخيول ، وقد يعلمون بعض الشيء من شئونه ٠ كانت غرفة لطيفة ، تحتوى على سرير ، ومقعد ، ومنضدة صغيرة بدائية الصنع كان عليها الكتاب المقدس وكتاب الترانيم ٠ وكان فى الوقت الذى نتحدث عنه جالسا الى المنضدة وأمامه لوح الاردواز ، مركزا اهتمامه على شيء بدا أنه يكلفه كثيرا من التفكير ٠

والحقيقة هى أن حنين توم الى وطنه كان قد استبد به بحيث التمس من ايفا صفحة من ورق الكتابة ، ثم استجمع كل محصوله الضئيل من الأدب ، الذى حصل عليه بارشاد السيد الصغير جورج، ثم قرر تنفيذ هذه الفكرة الجريئة ، وهى كتابة رسالة ٠ وهو الآن مشغول بكتابة مسودتها على لوحة الاردوازى ٠ ووجد توم نفسه يواجه مشكلة عويصة لأنه نسى كل النسيان صور بعض الحروف، والذى تذكره منها لم يعرف بالدقة أيها يستعمل ٠ وفيما هو يعمل وقد تقطعت أنفاسه من فرط الاهتمام ، اذا أيفا تحط ، كالطائر ،على حلقة المقعد وراءه ، وراحت تختلس النظر من فوق كتفه وتقول :

ـ أى عمى توم ٠ ما هى هذه الأشياء المضحكة التى تعملها ؟
فقال توم وهو يمسح عينيه بظاهر يده :

ـ اننى أحاول يا مس ايفا أن أكتب لزوجتى البائسة ولأطفالى الصغار ولكنى أخشى ألا أنجح فى هذه المحاولة ٠

ـ أرجو أن أستطيع مساعدتك ياتوم ٠ فلقد تعلمت بعض الكتابة وفى العام الماضى تعلمت كتابة جميع الحروف ، ولكنى أخشى أن أكون قد نسيتها ٠

وهنا قربت ايفا رأسها الذهبى الصغير من رأسه ، وشرع الاثنان فى مناقشة هامة جادة ، وكل منهما لا يقل حماســــة عن الآخر ، ويكادان يتساويان فى جهلهما · وبعد الشىء الكثير من تبادل المشورة والنصيحة بشأن كل كلمة ، بدآ تدبيج الرســـالة بشىء يشبه فى نظرهما الكتابة ، وراودهما أمل كبير فى النجاح ·

وقالت ايفا وهى تحملق فى الكتابة بسرور :

ــ نعم يا عمى توم · لقد بدأت فى الواقع تبدو جميلة · وستسر منها زوجتك كل السرور ، وكذلك أطفالك الصغار المســاكين · ان من العار أن ترغم على فراقهم · فى عزمى أن أطلب الى أبى أن يسمح لهم بأن تعود اليهم وتقضى معهم بعض الوقت ·

فقال توم :

ــ لقد وعدتنى سيدتى السابقة أن ترسل لى بعض المال بمجرد أن تحصل عليه ، وأظن أنها ستفعل · وقال سيدى الصغير جورج انه سيأتى ليأخذنى وقد أعطانى هذا الدولار دليلا على هذا ·

ثم تناول توم من تحت ملابسه الدولار الثمين · وقالت ايفا :

ــ سيأتى اذن بلا ريب ! وسوف يسرنى هذا كل السرور ·

ــ وأنا أريد أن أرسل الخطاب ، كما تعلمين ، لكى يعرفوا أين أنا ، ولأقول لزوجتى كلو المسكينة اننى بخير ، لأنها كانت شديدة الحزن ·· تلك المسكينة ·

وفى هذه اللحظة سمع صوت سانت كلير يقول وهو يقبـــل الى الغرفة :

ــ اسمع يا توم ·

وفزع توم وايفا ، وعاد سانت كلير يقول بعد أن وصل ورأى لوح الاردواز :

ــ ماذا أرى ؟

فقالت ايفا :

ـ انها رسالة توم وأنا أساعده على كتابتها ، أليست لطيفة ؟

فقال سانت كلير :

ـ انني لا أحب أن أثبط همتكما • ولكني أرى من الأفضل ياتوم أن تجعلني أكتب لك رسالتك ولسوف أفعل هذا بعد عودتي من جولتي على صهوة جوادي •

فقالت ايفا :

ـ ان أمر خطابه مهم جدا ، لأن سيدته السابقة سوف ترسل من المال ما يكفي لتحريره ، كما تعلم يا أبي • ولقد قال لي انهم قالوا له هذا •

وخطر لسانت كلير في نفسه ، ان هذا ـ في أكبر الظن ـ قد لا يكون الا وعدا من هذه الوعود التي يقولها الملاك الطيبون لخدمهم ، ليخففوا بها من فزعهم عندما يباعون دون أن تكون لديهم النية لتحقيق الأمل الذي أثاروه في نفوس هؤلاء الخدم • ولكنه لم يعلق بحديث مسموع على هـــذا ، وكل الذي فعله أن أمر توم بأن يعد الجياد للخروج في جولة •

وكتبت رسالة توم له في الصورة المطلوبة في ذلك المساء وألقيت في صندوق مكتب البريد •

واستمرت المس أوفيليا تبذل جهودها في الأعمال المنزلية • وكان الرأى قد انعقد بين جميع خدم المنزل ، ابتداء من دينا الى أصغر خادم ، على أن المس أوفيليا « عجيبة » وهو اصطلاح يطلقه الخدم الجنوبيون على كل سيدة لا ترضى مزاجهم •

أما الطبقة العليا من الخدم ، ومنهم أدولف وجين وروزا ، فقد انعقد الرأى بينهم على أنها ـ ليست سيدة • لأن السيدات لا يواصلن العمل في شئون المنزل دائما كما تفعل ، وأنها محرومة من « طابع » السيادة ، وأن من دواعي العجب أن يكون من أقرباء آل سانت كلير بل ان ماري سانت كلير نفسها صرحت أنها يتعبها أشد التعب أن ترى ابنة عمها أوفيليا مشغولة دائما • والحق أن مجهودات

المس أوفيليا المتواصلة كانت من الأسباب المبررة لهذه الشكوى ٠ ذلك أنهـا كانت تخيط وترتق من الصـباح الى المساء بنشـاط الشخص المطلوب منه عمل عاجل ٠ وعنـدما يضعف الضوء وتطوى أعمال الخياطة والرتق ، اذا أشغال الابرة بين يديها ، واذا هى تعمل وتعمل بنفس الهمة والنشاط ٠ والحق أن رؤيتها وهى دائبة العمل لما يتعب الانسان ويضايقه ٠

الفصل العشرون

توبسى

كانت أوفيليا مشغولة ذات صباح فى بعض الشئون المنزلية ، واذا هى تسمع صوت سانت كلير يناديها من أسفل السلم :

ـ تعالى هنا يا ابنة العم ، فان لدى شيئا أحب أن تريه ·

فقالت أوفيليا وهى تهبط وأعمال الخياطة فى يديها :

ـ ما هو ؟

ـ لقد اشتريت شيئا جديدا يدخل فى اختصاصاتك ·· انظرى·

قال سانت كلير هذا وهو يقدم صبية زنجية فى الثامنة أو التاسعة من عمرها · وكانت من أشد أبناء جنسها سوادا · وكانت عيناها المستديرتان اللامعتان كالخرز الزجاجى تتحركان بنظرات سريعة خاطفة على كل شيء فى الغرفة · وكان فمها نصف المفتوح من فرط دهشتها لروائع غرفة سيدها الجديد ، يكشف عن أسنان بيضاء لامعة · وشعرها الخشن كان مجدولا فى ضفائر صغيرة منتصبة بارزة فى كل اتجاه · وكان التعبير المرتسم على وجهها مزيجا عجيبا من الدهاء والمكر ينسدل عليهما ، كالغلالة أو النقاب، تعبير آخر ينم عن الجد والأسى والوقار· وكانت ترتدى ثوبا واحدا باليا قذرا مصنوعا من أكياس القطن · وقد وقفت وهى تعقد يديها على صدرها فى وقار واحترام · وكان فى مظهر الصبية بوجه عام شيء عجيب ليس بينه وبين مظهر الآدميين شبه ·· شيء قالت عنه أوفيليا انه « وثنى الطابع » مما ملأ نفس هذه السيدة الطيبة رعبا وفزعا ، وجعلها تستدير الى سانت كلير وتقول له :

ـ أوجستين · بالله لم جئت بهذه المخلوقة هنا ؟

ـ جئت بها ، طبعا ، اليك لتعلميها وتدربيها كما تحبين أن تكون . لقد خطر لى أنها نموذج ظريف فى عالم العبيد . هيا ياتوبسى .

ثم أرسل صفيرا كما يفعل الانسان حين يثير انتباه كلب ،وأردف قائلا :

ـ غنى الآن وأرينا بعض رقصاتك .

فالتمعت العينان السوداوان الزجاجيتان بنظرات كلهـا المجون الخبيث ثم اذا صوتها ينطلق رفيعا صافيا مرددا أغنية زنجيةغريبة كانت توازن ايقاعها بيديها وقدميها ، وهى تدور حول نفسـها ، وتصفق بيديها وتضرب ركبتيها الواحدة بالأخـرى ، فى نوع من التوقيت البدائى ، مطلقة من حنجرتها كل تلك النبرات الحلقيـة الغريبة التى تمتاز بها موسيقى ذلك الجنس من الآدميين ، وأخـيرا بعد أن انقلبت مرة أو مرتين ، وبعد أن اختتمت الأغنية بنغمـة طويلة عجيبة شاذة كأنها صفير قاطرة ، هبطت فجـأة على البساط ووقفت معقودة اليدين ، مصطنعة أبلغ أمارات الخضوع والوداعـة على وجهها ، لا تقطعها الا تلك النظرات الماكرة التى كانت تلقيهـا شذرا من ركنى عينيها .

ووقفت أوفيليا صامتة وقد فقدت قدرتها على الحـركة من فرط الدهشة . وبدا أن سانت كلير المولع بالدعابة والخبث كشأننا به، قد سر من دهشتها ، فعاد يقول للصبية :

ـ توبسى . هذه سيدتك الجديدة ، وسأسلمك لها الآن ،وعليك أن تحسنى السلوك معها .

فقالت توبسى وهى لا تزال تصطنع الخشوع والخبث وقد أبرقت عيناها :

ـ نعم يا سيدى .

فعاد سانت كلير يقول :

ـ ستكونين فتاة طيبة ياتوبسى . أتفهمين ؟

فقالت توبسى وقد أبرقت عيناها مرة أخرى وطوت يديهـا على

صدرها فى خشوع :

ـ نعم ياسيدى ·

ـ وهنا قالت أوفيليا :

ـ لماذا جئت بهذه يا أوجستين ، بحق السماء ؟ ان البيت مزدحم بمثل هذه البلايا ، بحيث لا يوجد موضع لقدم بينهم ·فأنا أستيقظ فى الصباح فأجد واحدا منهم نائما وراء الباب ، وأرى رأسا أسـود يبرز من تحت المائدة ، وثالثـا راقدا على ممسحة الأقدام · وانهم جميعا ليغمغمون ويتزاحمون ويضحكون ببلاهة بين الأسوار فى كل مكان ويتساقطون على أرض المطبخ · فلماذا جئت بهذه أيضا ؟

ـ جئت لك بها لتعليمها · ألم أقل هـذا ؟ انك دائمـا تنادين بوجوب التعليم ومن ثم خطر لى أن أقدم اليك هدية من صنف عثرت عليه حديثا لكى تجرى عليها تجاربك وتنشئيها عـلى النمط الواجب أن تنشأ عليه ·

ـ أنا واثقة أنى لا أريدها ·فان لدى منهم أكثر ممن أحتاج اليهم ·

ـ هكذا أنتم أيها المسيحيون · انكم تبحثون عن مجتمـع ، ثم ترسلون اليه أحد المبشرين المساكين ليقضى طيلة حيـاته بين أمثال هؤلاء الوثنيين ، ولكن أين منكم ذلك الذى يقبـل أن يأخذ أحـد الوثنيين الى بيته ويتولى أمر تعليمه وهدايته بنفسه · لا أرى أحدا يفعل هذا بل انه اذا وصل الأمر الى هذا الحد ، فان هؤلاء المساكين يصبحون قذرين كريهين ، ويحتاجون الى مجهود كبير ، وهكذا ·

فقالت أوفيليا وقد بدا بوضوح أنها لانت :

ـ أنت تعرف يا أوجستين اننى لم أنظر الى الأمر هذه النظرة ·

ثم نظرت الى الصبية نظرة أكثر عطفا من ذى قبل وأردفت قائلة:

ـ قد يكون فى تعليم هذه الصبية نوع من أعمال التبشير الحق·

وكان سانت كلير قد لمس الوتر الحسـاس فى نفس أوفيليا ، وخاطب ضميرها المستيقظ دائما · الا أنها أضافت قائلة :

ـ ولكنني لا أرى حاجة لشراء هذه الصبية ، فان في بيتك مايكفي لشغل كل أوقاتي واستغراق كل حذقي ٠

فقال سانت كلير وهو ينتحي بها جانبا :

ـ اسمعي اذن يا ابنة العم ٠ انني أعتذر لك عن أحاديثي التافهة الفارغة ٠ فانك لطيبة كريمة ، بحيث تبدو أحاديثي معك خالية من المعنى ٠ ولكن الحقيقة هي أن هذه الصبية كانت لرجلين سكيرين يديران مطعما رخيصا كنت أمر عليه كل يوم ، وقد سئمت من سماع صراخها ، ومن أصواتهما وهما يضربانها ويسبانها وكانت تبدو لي أيضا ذكية خفيفة الروح يمكن أن تكون ذات نفع ٠ ولهذا اشتريتها وسأهبها لك ٠ والآن عليك أن تحاولي أن تنشئيها نشأة نيوانجلاندية صحيحة ثم انظري كيف يكون الأمر معها ٠ وأنا ، كما تعلمين ، لست موهوبا في هذه الناحية ، ولكنني أحب أن تحاولي أنت ٠

فقالت أوفيليا :

ـ سأبذل جهدي ٠

ثم اقتربت من الجارية الجديدة بقدر ما يمكن أن يقترب الانسان من عنكبوت أسود اذا افترض أنه يعرف النوايا الحسنة لمن يقترب منه ، ثم قالت :

ـ انها شديدة القذارة ، ونصف عارية ٠

ـ عليك أن تمضي بها الى الطابق الأعلى وتأمري بعض الخدم بأن ينظفوها ويلبسوها بعض الثياب ٠

ومضت أوفيليا بالصبية الى جناح المطبخ ٠

وقالت دينا وهي تستعرض الوافدة الجديدة بنظرات خالية من المودة والترحيب :

ـ لا أدري ماذا يبغي سانت كلير من المجيء بزنجية أخرى ٠ انني شخصيا لا أقبل أن أراها تحت قدمي ٠

وقالت كل من روزا وجين في تقزز شديد :

ـ أف لها ! لنحرص على الابتعاد عن طريقنا . ماذا يريد سانت كلير من وجود زنجية أخرى حقيرة هنا ؟ اننا لا ندرى .

فقالت دينا لروزا وقد أحست أن العبارة الأخيرة تنطبق عليها :

ـ كفى تطاولا . انها ليست زنجية أكثر منك يا روزا . يبدو أنك تظنين نفسك من الجنس الأبيض . والحقيقة أنك لا من البيض ولا من السود ، وأنا شخصيا أفضل أن أكون اما من هؤلاء واما من أولئك .

ورت أوفيليا أنه لا يوجد في محيط الخدم من يقبل أن يتولى أمر تنظيف الوافدة الجديدة وكسوتها ، ومن ثم اضطرت الى أن تقوم بهذه المهمة بنفسها تساعدها جين في جفاء وبغير رغبة .

وليس يليق بآذان الخلائق المؤدبين أن نسمع تفاصيل الاجراءات الأولى التي اتبعت لتنظيف صبية مهملة منبوذة . والحق أنه لابد أن تعيش الكثرة الغالبة من الجماهير في هذا العالم في حالة لا يحسن أن نصدم بوصفها الأعصاب المرهفة لاخوانهم الأحياء . وقد كانت لأوفيليا عزيمة طيبة قوية عملية جعلتها تواجه بشجاعة واتقان كل تفاصيل عملية التنظيف ، وان كان لابد لنا من الاعتراف بأنها لم تكن تقوم بهذا في روح طيبة جدا ، لأن الاحتمال كان آخر ما يمكن أن تدفعها اليه مبادئها المثالية . وعندما رأت على ظهر الصبية وكتفيها عقدا كبيرة وبقعا دامية هي بلا شك آثار النظام الذي نشأت عيه أحست بقلبها يمتلىء بالعطف والرثاء .

وقالت جين وهي تشير الى العلامات :

ـ أنظرى الى هذه ، أليست دليلا على أنها جرباء . وأعتقد أنها ستحتاج الى الشيء الكثير من مجهوداتنا . واني لأكره هؤلاء الزنوج الصغار ، فانهم جد منفرين . ولست أدرى ماذا يريد السيد من شرائهم .

وكانت « الزنجية الصغيرة » المشار اليها في هذا الحديث تسمع

هذه التعليقات بذلك الاكتئاب المكبوت الذى يبدو أنه من عادتها ، وكل ما كانت تفعله أنها ترسل نظرات مختلسة نافذة من عينيها السوداوين الى القرطين اللذين تحلى بهما جين أذنيها • وعندما ارتدت أخيرا ثيابا نظيفة ، وبعد أن قص لها شعر رأسها ، قالت أوفيليا ، بشيء من الرضا انها بدت أقرب الى الآدميين مما كانت ، وبدأت فى دخيلة نفسها تضع بعض المشروعات لتعليمها •

وأجلست أوفيليا الصبية أمامها وبدأت تسألها :

ــ كم عمرك يا توبسى ؟

فقالت الصبية بابتسامة بلهاء أخرى :

ــ لا أدرى ياسيدتى •

ــ ألا تعرفين كم تبلغين من العمر ؟ ألم يخبرك أحد به ؟ من هى أمك ؟

فقالت الصبية بابتسامة بلهاء ، أخرى :

ــ لم يكن لى أم أبدا •

ــ لم يكن لك أم ؟ ماذا تعنين ؟ أين ولدت ؟

فقالت توبسى باصرار وقد أرسلت ابتسامة أخرى بدت كأنها من عالم الجن :

ــ أنا لم أولد أبدا •

ولو أن أوفيليا كانت عصبية بطبيعتها لخطر لها فيما تظن أن الصبية ليست الا جنية صغيرة سوداء من أرض العفاريت • ولكن أوفيليا لم تكن عصبية ، بل كانت سيدة عادية واقعية ، ومن ثم قالت فى شىء من الحزم :

ــ يجب ألا تردى على بهذه الطريقة يابنية • اننى لا ألعب معك• اخبرينى أين ولدت ، ومن هما أبوك وأمك ؟

فأجابت الصبية بتأكيد أشد من ذى قبل :

ـ أنا لم أولد أبدا ، ولم يكن لى أب أو أم أو أى أحد • لقد نشأت مع عدد كبير من أمثالى الذين كان يمتلكهم أحد النخاسين • وكانت العمة العجوز سو تعنى بنا •

ولاح أن الطفلة كانت صادقة جادة ، وانفجرت جين بضحكة قصيرة وقالت :

ـ يا الهى ياسيدتى ، ان هنـــاك أكواما من هذه المخلوقات التى يشتريها النخاسون صغيرة بثمن بخس ، ثم يربونها للسوق •

ـ كم من الزمن عشت مع سيدك وسيدتك ؟

ـ لا أعرف ياسيدتى •

ـ هل عشت معهما سنة أو أكثر أو أقل ؟

ـ لا أعرف ياسيدتى •

فقالت جين :

ـ يا الهى ياسيدتى • ويل لهؤلاء الزنوج المنحطين ، انهم لايدرون ولا يعرفون شـــيئا عن الوقت • لا يعرفون ما هى الســـنة • ولا يعرفون ما هى أعمارهم •

ـ هل سمعت ياتوبسى شيئا عن الله ؟

فارتسمت الحيرة على وجه الطفلة ، ولكنها ابتسمت كعادتهـــا ، فعادت أوفيليا تقول لها :

ـ هل تعرفين من خلقك ؟!

فأرسلت الطفلة ضحكة قصيرة وقالت :

ـ لا أعرف أن أحدا خلقنى !

ولاح أن هذه الفكرة أعجبتها جدا ، لأن عينيها التمعتا وأردفت قائلة :

ـ أعتقد أننى نموت كما ينمو الزرع • ولا أظن أن أحدا خلقنى •

فرأت أوفيليا أن تحول مجرى أسئلتها الى شيء ملموس محسوس أكثر من ذى قبل :

ــ هل تعرفين كيف تخيطين ؟

ــ لا ياسيدتى ·

ــ ماذا تستطيعين أن تفعلى ؟ ماذا كنت تؤدين من أعمال لسيدك وسيدتك ؟

ــ آتى لهما بالماء وأغسل الصحاف ، وأنظف السكاكين ، وأخدم القادمين ·

ــ هل كانا يحسنان معاملتك ؟

فتطلعت الصبية الى وجه أوفيليا بمكر وقالت :

ــ أعتقد أنهما كانا ·

ونهضت أوفيليا من هذه المحادثة المشجعة ، وعندئذ قال سانت كلير ، وكان معتمدا الى ظهر مقعدها :

ــ انك تجدين هنا أرضا بكرا يا ابنة العم ، اغرسى فيها أفكارك ، ولن تجدى هنا كثيرا من الأفكار التى لابد لك ان تقتلعيها ·

وكانت آراء أوفيليا عن التربية والتعليم ــ كسائر آرائها ــ معدة ومحددة ، ومن النوع الذى كان سائدا فى نيو انجلاند منذ قرن من الزمان ، والذى لا يزال منتشرا فى بعض المناطق المنعزلة النائية التى يسودها الجهل ولا توجدبها سكك حديدية · ويمكن ايجازها بقدر الامكان فى عبارات قليلة :

تعليم الصغار أن يلتفتوا اذا تحدث اليهم أحد ، وتلقينهم المواعظ الدينية وتدريبهم على الخياطة والقراءة ، وضربهم بالسوط اذا كذبوا · ومع أن هذا النوع من التعليم يعد متأخرا عن زمانه بطبيعة الحال ازاء هذه النهضة الكبيرة التى شملت ميدان التعليم ، فان الحقيقة التى لا مراء فيها أن جداتنا قد استطعن أن يربين رجالا ونساء طيبين وطيبات الى حد ما تحت سلطان هذا الأسلوب ، كما

يشهد بذلك الكثيرون منا ويتذكرون • ومهما يكن من هـــذا الأمر فان أوفيليا تعرف أسلوبا آخر للتعليم ، ومن ثم راحت تبذل جهودها مع الزنجية الوثنية بقدر ما تستطيع من دأب واجتهاد •

وكانت الطفلة تنادى فى محيط الأسرة على أنها فتاة مس أوفيليا • وتعد كذلك فى الواقع ، ولما كان وجـــودها فى المطبخ غير مرغوب فيه ، فقد قررت أوفيليا أن تقصر مجال أعمالها وتعليمها على غرفتها الخاصة • واعتزمت أن تضحى بتلك التضحية التى ستكون موضع تقدير بعض قرائنا ، ذلك أنها ، بدلا من أن تقوم بنفسها على ترتيب سريرها ، وكنس غرفتهـــا وتنفيضها ، وهى مهمـــة طالما أنفت أن تساعدها فيها أية خادمة ، نقول انها بدلا من هذا حكمت على نفسها ذلك الحكم الرهيب وهو تعليم توبسى أن تقوم بهذه الأعمال ــ آه ، لو أن أحد قرائنا قد فعل هذا لقدر مدى ما بذلتـــه أوفيليـــا من تضحية •

لقد بدأت بأخذ توبسى الى غرفتها فى صباح أول يوم ، وشرعت بلهجة جادة تقدم لها برنامجا من الارشـــاد عن فن وأسرار ترتيب الفراش •

ولننظر الآن الى توبسى ، بعـــد أن اغتسلت وحلقت ضـــفائرها الصغيرة التى طالما كانت تزهو بها ، وارتدت ثوبا نظيفـــا ، وميدعة منشاة ، واقفة بخشوع أمام أوفيليا ، وقد ارتسمت على وجهها أمارات من الجد والوقار تصلح للسير فى الجنازات •

ــ اسمعى ياتوبسى ، ســـأريك الآن كيف يرتب سريرى • وأنا شديدة العناية بسريرى هـــذا • وعليك أن تتعلمى بالضبط كيف ترتبينه •

فقالت توبسى وهى تتنهد بعمق وبوجه ينم عن الجد والأسى :

ــ نعم ياسيدتى •

ــ والآن ، انظرى ياتوبسى ، هذه حافة الملاءة ، وهذا هو وجهها ، وهذا هو باطنها • هل تتذكرين هذا ؟

فقالت توبسى بزفرة أخرى :

ــ نعم يا سيدتى ٠

ــ عظيم ٠ ان الملاءة التحتية يجب أن تبسطيها الى ما فوق الوسادة، هكذا ، ثم تدسى حافتها تحت الحشية وتسويها أحسن تسوية ٠ هكذا ــ هل تفهمين !

فقالت توبسى فى انتباه بالغ :

ــ نعم يا سيدتى ٠

ومضت أوفيليا تقول :

ــ ولكن الملاءة العليا يجب أن تفرشيها على هذا النحو ، وأن تدسى طرفها عند مؤخرة السرير تحت الحشية بقوة ــ هكذا ٠ ومن ثم يغدو الطرف الأضيق من الملاءة عند مؤخرة السرير ٠

وقالت توبسى « نعم يا سيدتى » كما سبق أن قالت ، ولكنها تضيف الى هذا شيئا لم تلحظه أوفيليا ٠ ذلك أنه خلال استدارتها بظهرها أثناء حماستها فى التوجيه والارشاد ، استطاعت « التلميذة الصغيرة » أن تنشل قفازا وشريطا حريريا وأن تخفيهما ببراعة فى كميها ، ثم تقف كما كانت ويداها معقودتان بخضوع على صدرها ٠

ورفعت أوفيليا الملاءات والأغطية ثم جلست وهى تقول :

ــ والآن ياتوبسى أريد أن أرى كيف تفعلين هذا ؟

وقامت توبسى فى جد وبراعة ، بأداء هذا التمرين أداء رضيت عنه أوفيليا أتم الرضاء ٠ فقد سوت الملاءات ، وأزالت كل انكماش فيها ، وأظهرت أثناء العملية كلها ، من الاهتمام والجد ما أرضى معلمتها أتم الرضاء ٠ لكن حدث لسوء الحظ ، أن طرفا من الشريط برز من كمها عندما أوشكت أن تفرغ من عملها ، وما ان وقعت عليه عين أوفيليا حتى هجمت عليه وصاحت بها قائلة :

ــ ما هذا أيتها الطفلة الشريرة الخبيثة ، هل سرقت هذا ؟

وجذبت الشريط من كم توبسى ، ومع ذلك فانها لم يبد عليها أى

اهتمام أو قلق ، بل نظرت اليه أشد ما تكون دهشة وبراءة وقالت :

ـ يا لله · عجبا · هذا شريطك يا مس فيلى ، أليس كذلك ؟ كيف اشتبك بكمى ؟

ـ توبسى ، أيتها الفتاة الشقية ، لا تكذبى على · لقد سرقت هذا الشريط ·

ـ سيدتى ، أقسم أنى لم أسرقه ·· بل انى لم أره الا فى هــذه المحظة المباركة ·

فقالت أوفيليا :

ـ توبسى · ألا تعلمين أن الكذب شر رذيلة ؟

فقالت توبسى فى لهجة جادة بريئة :

ـ اننى لا أكذب أبدا يا مس فيلى · ان ما قلته لك الآن هو الحق ولا شىء سواه ·

ـ توبسى ، سأضربك بالسوط اذا كذبت هكذا ·

ـ ويحى ياسيدتى انك اذا ضربتنى بالسوط طيلة اليــوم ، فلن أقول غير ما قلت ، وبدأت توبسى تتلعثم وتقول :

ـ اننى لم أر هذا الشريط أبدا · لابد أنه تعلق بكمى · لابد أن مس فيلى قد تركته على السرير فاشتبك فى ملابسى وزحف الى كمى ·

وبلغ من استنكار أوفيليا لكذب الصبية الواضح أنها أمسكتبها وهزتها وقالت لها :

ـ لا تقولى لى هذا مرة أخرى !

وأوقعت الهزة القفاز من الكم الآخر الى الأرض ، فقالت أوفيليا :

ـ والآن ! هل تقولين انك لم تسرقى الشريط !

واعترفت توبسى وقتئذ بسرقة القفاز ، ولكنها أصرت على انكارها سرقة الشريط · فقالت أوفيليا :

ـ اسمعى ياتوبسى ، اذا إعترفت بكل الحقيقـــة ، فلن أضربك بالسوط هذه المرة ٠

وازاء مناشدة أوفيليا اياها على هذا النحو اعترفت توبسى بسرقة الشريط والقفاز وهى تعرب عن ندمها وتوبتها ٠ وقالت أوفيليا

ـ والآن ٠ اخبرينى ٠ فأنا أعرف أنك سرقت أشـــياء أخرى منذ أن جئت الي هذا البيت ، لأنى تركتك وشأنك طيلةيوم أمس ٠والآن خبرينى اذن هل سرقت أى شيء وأنا لن أضربك بالسوط ٠

ـ ويحى يا سيدتى ، لقد أخذت ذلك الشيء الأحمر الذى تضعه مس آيفا حول رقبتها ٠

ـ أفعلت هذا أيتها الطفلة الكنود ٠ وماذا أيضا ؟

ـ وأخذت قرطى روزا ٠٠ الأحمرين ٠

ـ اذهبى وائتنى بهما ٠٠ كليهما ٠

ـ ويحى ياسيدتى ! اننى لا أستطيع ٠ لقد احترقا جميعا ٠

ـ احترقا ؟ ما هذا الهراء ٠ اذهبى وائتنى بهمـــا ، والا ضربتك بالسوط ٠

وأعلنت توبسى بالدموع والتأوهات وأغلظ الايمان أنها لا تستطيع « لأنهما آحترقا جميعا ـ نعم احترقا »

فقالت أوفيليا :

ـ ولماذا أحرقتهما ؟

ـ لأنى ٠٠ لأنى شريرة ـ هكذا أنا ٠ فأنا شريرة جـــدا ، ولا يسعنى الا أن أكون كذلك ٠

وفى تلك اللحظة أقبلت ايفا ـ ببراءة ـ الى الغرفة ، وحول عنقها ذلك العقد المرجانى المشار اليه ٠ فقالت أوفيليا :

ـ عجبا يا ايفا ٠ من أين جئت بهذا العقد ؟

ـ جئت به ؟ عجبا ، لقد كنت أتقلده طيلة اليوم ٠

ـ وهل كنت تتقلدينه أمس ؟

ـ نعم ومن العجب أنه كان حول رقبتى طوال الليل أيضا ، فقد نسيت أن أخلعه حين آويت الى الفراش ·

وارتسمت الدهشة البالغة على وجه أوفيليا ، وقد زادت دهشتها عندما أقبلت ، فى تلك اللحظة الفتاة روزا الى الغرفة ، تحمل على رأسها سلة الملابس التى تم كيها أخيرا ، وقرطا المرجان يتأرجحان فى أذنيها ·

وقالت أوفيليا وقد استبد بها اليأس :

ـ لست أدرى والله ماذا أستطيع أن أفعل مع هذه الطفلة ؟ بالله أخبرينني لماذا قلت انك أخذت هذه الأشياء ياتوبسى ؟

فقالت توبسى وهى تفرك عينيها :

ـ عجبا · لقد أمرتنى سيدتى أن لابد أن أعترف ، فلم أجد ما أعترف به غير هذا ·

فقالت أوفيليا :

ـ ولكننى طبعا لم أرغب فى أن تعترفى بأشياء لم تسرقيها · ان هذا لا يقل كذبا عن غيره ·

فقالت توبسى ، وقد بدت عليها دهشة بريئة :

ـ ويحى ؟ أحق هذا ؟

فقالت روزا وهى تنظر غاضبة الى توبسى :

ـ ها · ليس فى هذه الجرباء شىء من الصدق أبدا ، ولو كنت فى مكان السيد سان كلير لضربتها بالسوط حتى أسيل دمها ـ نعم ·· لضربتها حتى الموت ·

فقالت ايفا بهذه اللهجة الآمرة التى تستطيع الطفلة اصطناعها أحيانا :

ـ لا لا ياروزا • يجب ألا تتحدثى هكذا يا روزا • اننى لا أطيق هذا الحديث •

ـ بالله يامس ايفا انك لمفرطة فى طيبة القلب ، ولا تعرفين كيف تعاملين هؤلاء الزنوج • ان الطريقة الوحيدة لمعـــاملتهم هى تمزيق أجسامهم بالسوط • أؤكد لك هذا •

فقالت ايفا وقد التمعت عيناها واحمرت وجنتاها :

ـ روزا • اسكتى • لا تلفظى بكلمة أخرى من هذا النوع •

وخنعت روزا فورا ، ثم قالت وهى تنصرف من الغرفة :

ـ ان دماء سانت كلير تجرى فى عروق ايفا • ان هذا واضح تماما كل الوضـــوح • فهى تستطيع أن تتحدث كمـــا يتحدث والدها بالضبط •

ووقفت ايفا تنظر الى توبسى •

وقفت الطفلتان •• تمثلان الطرفين المتناقضين فى المجتمـــع • الطفلة البيضاء ، العريقة المحتد ، الذهبية الشـــعر ، ذات العينين القويتين ، والجبهة النبيلة الرومانية والحركات الشـــبيهة بحركات الأمراء ، وبجوارها الفتاة السوداء النافذة العينين ، الماكرة الذكية• انهما ترمزان الى جنسيهما الجنس السكسونى المنحدر من أجيال مثقفة ، آمرة ، متعلمة ، سامية جسما وخلقـــا ، والآخـــر الزنجى المنحدر من أجيال كلهـــا الظلم والخضوع ، والجهـــل ، والكدح ، والرذيلة !

ولعل شيئا من هذا دار بخلد ايفا • ولكن أفكار الأطفال تكون عادة غرائز غامضة غير محددة • وكانت أفكار ايفا ذات الطبيعـــة الخيرة تدور حول معان من اللهفة والرغبة فى عمل الخير لا تستطيع التعبير عنها • فلما تحدثت أوفيليا عن سلوك توبسى الشرير الكنود، ارتسمت أمارات الحيرة والحزن على وجه الطفلة ، ولكنها قالت فى رقة ولطف :

ـ يا توبسى ، أيتها المسكينة ، ما حاجتـــك الى السرقة ؟ انك

ستكونين الآن موضع الرعاية والعناية • وأنا واثقة من أنني أفضل اعطاءك أي شيء أمتلكه على أن أراك تسرقينه •

وكانت تلك أول عبارة حنان وعطف سمعتها الصبية في حياتها• وكان لعذوبة الصوت وأسلوب الحديث أثر عجيب في قلب الصبية البدائي الغليظ ، فاذا شيء كقطرة الدمع تلمع في عينيها المستديرتين النافذتين البراقتين ، ولكن لم تلبث أن أعقبتها ضحكة قصيرة ، ثم البسمة البلهاء المعتادة • لا • ان الأذن التي لم تسمع في حياتها الا السباب واللعنات لا تصدق نفسها حين تسمع شيئا ربانيا ساميا ، مثل العطف والحنان ، ومن ثم حسبت توبسى أن حديث ايفا ليس الا شيئا مضحكا لا تفقه له معنى ، فلم تصدقه •

ولكن ما العمل مع توبسى ؟ لقد وجدت أوفيليا أنها أمام لغز محير• ان القواعد التي وضعتها لتربيتها لم تجد معها • وقد خطر لها أن تفكر في حل لهذه المشكلة في متسع من الوقت • وأرادت أن تكسب هذا الوقت • ومن أجل هذا وأملا في أن تكون لدى الصبية بعض الفضائل التي تظنها مخبوءة في الغرف المظلمة أودعت أوفيليا توبسى في غرفة مغلقة ، وجلست هي تنسق أفكارها لمعالجة هذا الأمر •

وقالت أوفيليا لسانت كلير :

ـ لست أدرى كيف أسوس هذه الطفلة دون أن ألجأ الى ضربها بالسوط •

ـ ليكن • اجلديها اذن كما تشائين • وأنا أترك لك كل الحرية الكاملة في أن تفعلي بها ما تحبين •

فقالت أوفيليا :

ـ لابد من ضرب الأطفال دائما ، وأنا لم أسمع أبدا عن أطفال قوموا بلا ضرب •

فقال سانت كلير :

ـ هذا لا شك فيه ، افعلى ما ترينه الأصلح . وكل ما أشير به عليك هو هذا . لقد رأيت هذه الصبية تضرب بسيخ من الحديد ، وتضرب بالمجرفة والمقابض الحديدية ، اذا كان هذا أو ذاك أقرب اليها أو بغير هذه كلها ، واذ كانت قد اعتادت هذا النوع من المعاملة فانى أظن أن جلدك اياها يجب أن يكون شديدا اذا شئت أن يثمر فيها .

فقالت أوفيليا :

ـ ماذا يمكن أن نفعل معها اذن ؟

فأجاب سانت كلير بقوله :

ـ لقد ألقيت على سؤالا خطيرا . وليتك تجيبين عنه . ماذا يمكن أن يفعله الانسان مع انسان لا يمكن السيطرة عليه الا بالسوط ؟ وقد فشل السوط فى هذا ، وتلك حالة شائعة فى هذه المناطق .

ـ لست أشك فى أننى لا أعرف ، فأنا لم أر فى حياتى طفلة كهذه .

فقال سانت كلير :

ـ ان أولئك الأطفال كثيرون بيننا . بل ان الرجال والنساء كثيرون بيننا أيضا . فكيف يمكن حكمهم ؟

فقالت أوفيليا :

ـ اننى واثقة أن هذه المشكلة أعقد من أن أعرف لها حلا .

وأضاف سانت كلير قائلا :

ـ ولا أنا أيضا . ان أحداث القسوة الرهيبة وانتهاك الحرمات الانسانية التى تتسرب أنباؤها الى الصحف بين الحين والآخر ، كمأساة برو ، مثلا ـ ما سببها ؟ انها فى حالات كثيرة تنشأ عن أعمال القسوة التى يتصف بها تدريجا كلا الطرفين . فالمالك يشتد فى كل يوم قسوة كلما ازداد الخادم تبلدا فى مشاعره . ان الضرب والسب كالأفيون . لابد لك من مضاعفة الجرعة منه عندما تتبلد

الحواس • وقد رأيت هذا من أول الأمر عندما غدوت مالكا للعبيد• ومن ثم قررت ألا أبدأ هذا العمل لأنى لا أعرف متى يجب أن أقف• فقررت أن أقل ما يجب على هو أن أحافظ على طبيعتى البشرية • وكانت النتيجة أن خدمى أصبحوا يتصرفون كالأبناء المدللين الفاسدين • ولكنى أرى أن هذا أفضل من أن تكون الوحشية هى صفاتنا جميعا • لقد تحدثت كثيرا عن مسئولياتنا نحو تعليمهم ، يا ابنة العم • ولقد أردت حقا أن تحاولى تعليم طفلة واحدة هى مثل آلاف من نوعها بيننا •

فقالت أوفيليا :

ــ ان نظامكم هو الذى يوجد مثل هذه الطفلة •
فقالت أوفيليا :

ــ أنا أعرف هذا • ولكنهم الآن موجودون فعلا • فماذا ينبغى أن نفعل معهم ؟

ــ اننى لا أستطيع أن أشكر لك اتاحتك التجربة لى • ولكن مادام الأمر يبدو واجبا على ، فسوف أثابر على العمل وأحاول القيام به ، وأمضى فيه على أحسن وجه أستطيعه •

وقد ظلت أوفيليا ، بعدئذ ، تعمل بغيرة وحماسة تشكر عليهما لتربية تلميذتها الجديدة • وخصصت لها ساعات معينة للتعليم وللعمل كل يوم ، وتولت بنفسها تعليمها القراءة والخياطة •

وأما من حيث القراءة فقد كانت الصبية سريعة فى تعلمها • وقد عرفت الحروف الهجائية كأنما كان ذلك بسحر ساحر • وسرعان ماأصبحت قدرة على القراءةالعادية،أما الخياطة فكانأمرها أصعب • ذلك أن تلك المخلوقة كانت لها ليونة القطة ، ونشاط النسناس ولهذا كانت الخياطة وما تتطلبه من لزوم مكان واحد موضع مقتها الشديد ، فكانت تكسر الابر وتلقى بها خفية من النافذة أو فى شقوق الجدران • ثم كانت تعقد الخيط أو تقطعه أو تلوثه ، أو تلقى فى حركة خفية ــ ببكرة منه كاملة من النافذة • وكانت حركاتها سريعة تكاد تعادل سرعتها حركات الحاوى المتمرن على عمله ، ولمتكن

تقل عنه قدرة على السيطرة على تعبيرات وجهها • ومع أن أوفيليا لم يكن يسعها الا أن تحس أن هذه الأحداث لا يمكن أن تتوالى بهذه الطريقة عفوا ، فانها لم تكن تستطيع أن تضبط الصبية الا اذا راقبتها مراقبة لا تترك لها من الوقت ما تقضيه في القيام بأي عمل آخر •

وسرعان ما أصبحت توبسى شخصية بارزة في مجتمع القصر • ذلك لأنه لم يكن هناك ، كما بدا ، حد لمواهبها في المزاح والتجهم والتقليد الساخر لغيرها ولا في الرقص والقفز والتسلق والغناء والصفير وتقليد كل صوت يخطر ببالها • وفي ساعات لعبها ، كان جميع الأطفال الموجودين في القصر ، بلا استثناء ، يلاحقونها فاغري الأفواه من شدة الاعجاب بها والعجب منها حتى ايفا التى لاح أنها قد سحرتها توبسى كما تسحر الحمامة أحيانا بالأفعى البراقة • وقد أحست أوفيليا بالقلق خشية أن تألف ايفا البقاء مع توبسى كثيرا • وقد التمست من سانت كلير أن يمنعها من هذا ، فقال :

ـ لا • دعى الطفلة وشأنها فانها ستفيد من صحبتها لتوبسى •

ـ ولكن ألا تخشى أن تلقن طفلة فاسدة كهذه ابنتك بعض الشرور؟

ـ انها لا تستطيع أن تعلمها الشر • فهي قد تعلم الشر لغيرها من الأطفال أما ايفا ، فان الشر ينزلق عن عقلها انزلاق الندى عن ورقة كرنب دون أن تترسب قطرة واحدة فيه •

ـ لا تكن واثقا الى هذا الحد • فأنا أعرف أني لا أستطيع أن أترك طفلا لي يلعب مع توبسى •

فقال سانت كلير :

ـ لا حاجة لأطفالك أن يلعبوا معها • أما أبنائي ففي وسعهم أن يلعبوا واذا كان مستطاعا أن تفسد ايفا لفسدت منذ سنوات •

وكانت توبسى في أول الأمر موضع احتقار الطبقة العليا من الخدم وازدرائهم ، ولكن سرعان ما وجدوا من الأسباب مايحملهم على تغيير آرائهم فيها • ذلك أنهم لم يلبثوا أن تبينوا أن أي واحد منهم

يلقى بنظرة ازدراء أو احتقار الى توبسى أو يسىء اليهـا ، لا ينجو من حادث يؤذيه بعد وقت قصير ـ فاما أن يفقد قرطيه أو حليـة أثيرة لديه ، أو يجد قطعة من ملابسه تلفت أشـد التلف أو يتعثر المسىء فجأة فى دلو ماء ساخن ، أو تقع على رأسه بعض الأقذار من أعلى وهو فى أفخر ملابسه • وعندما يجرى التحقيق فى هذهالحالات للبحث عن « المذنب » فان الأمر لا ينتهى الى شىء • وكانت توبسى تستدعى للتحقيق معها ، وكم من مرة وقفت أمام محكمـة المنزل ، ولكنها كانت على الدوام تخرج من هذا التحقيق بريئة كـل البراءة وعليها سيماء الوقار والجد • ولم يكن أحد يشك فيمن ارتكب هذه الأفعال كلها ، لم يكن هناك دليل مباشر يؤيد هذا الظن • ومن ثم لم يكن فى مقدور أوفيليا ذات الاحساس المرهف بالعدالة والانصاف ـ أن تفعل مع توبسى شيئا بلا دليل •

كذلك كانت تلك المساوىء تحـدث فى أنسب الأوقات فيضفى ذلك مزيدا من الحماية على المسىء • مثـال ذلك أن الأوقات التى ينتقم فيها من الوصيفتين روزا وجين كانت تختار دائما فى المناسبات ـ وما أكثرها ـ التى تكون فيها الاثنتان موضع غضب سـيدتهما ، وبذلك لا تلقى شكايتهمـا بطبيعـة الحال أى عطف منها • وجملة القـول أن توبسى سرعان ما جعلت كل من فى الدار يدركـون أن مصلحتهم أن يتركوها وشأنها ، وقد تركت وشأنها فعلا •

وكانت توبسى نشطة بارعة فى كل الأعمال اليدوية وكانتتتعلم كل ما يلقن لها بسرعة مدهشة • فبعد دروس قليلة تعلمت كيف ترتب وتنسق غرفة سيدتها بطريقة لم تستطع معها هـذه السيدة الدقيقة نفسها أن تجد فيها خطأ • فما كانت أيد بشرية تستطيع أن تفرش الملاءات أو تسوى الوسائد بألطف وأدق مما تفعل يداها ، أو تكنس وتنفض وتنسق أفضل منها اذا شاءت ولكنها فى أحيانكثيرة لم تكن تشاء • فاذا حدث أن اطمأنت أوفيليا بعد ثلاثة أيام أو أربعة من الاشراف والمراقبة الدقيقة الى أن توبسى قد عرفت طبعها ، وأنها تستطيع أن تقوم بالعمل بلا رقابة ، ومن ثم تذهب للقيام بمشاغلها الأخرى ، فان توبسى لا تلبث أن تخلط الحابل بالنابل وأن تحدث من الفوضى مايدوم ساعة أو سـاعتين ، فتراها بدلا من أن ترتب

السرير تعمد الى العبث والتسلية ، تنزع أكياس الوسائد ، وتدفن رأسها ذا الشعر الجعد بين الوسائد حتى تنزع منها ريشا يزدان به هذا الرأس زينة عجيبة تدعو الى السخرية أو تتسلق عمود السرير وتتعلق منه ورأسها الى أسفل كالنسناس وتلقى بجميع الملاءات فى جوانب الغرفة • أو تلبس بعض الحشايا ملابس أوفيليا المليلية ، وتقوم بتمثيل مناظر مختلفة فتغنى وتصفر وتقلب سحنتها أمام المرآة • وعلى الجملة ، تقلب كيان الغرفة »وقصارى القول أنها كانت تخرج الشيطان من الأرض كما تقول أوفيليا •

ومرة وجدت أوفيليا أن توبسى قد لفت على رأسها فى شكل عمامة ـ أجمل مطرف قرمزى اللون من الحرير الهندى كان عندها• وأخذت تقوم بدورها المسرحى أمام المرآة على أحسن وجه وكانت أوفيليا قد تركت المفتاح فى أحد الأدراج وكان هذا اهمالا لم يعرف عنها فى يوم من الأيام •

وكانت تقول عندما ينفد صبرها :

ـ يا توبسى ! ما الذى يدفعك الى هذا التصرف ؟

ـ لا أعرف ياسيدتى ـ أعتقد أن الذى يدفعنى اليه انى شريرة جدا •

ـ اننى لا أدرى يا توبسى ماذا فى وسعى أن أفعل معك •

ـ ويحى يا سيدتى • يجب أن تجلدينى • لقد كانت سيدتى السابقة دائما تجلدنى ، وأنا لم أتعود العمل الا اذا جلدت •

ـ عجبا يا توبسى ؟ اننى لا أريد أن أجلدك • ان فى مقدورك أن تحسنى العمل اذا أردت • فما هو السبب الذى يجعلك لا تفعلين ؟

ـ ويحى ياسيدتى • لقد اعتدت أن أضرب • وأعتقد أنه يفيدنى•

وحاولت أوفيليا أن تعمل بهذه النصيحة ، وكانت توبسى تثير ضجة هائلة بصريخها وتوجعاتها وتوسلاتها ، وان كانت ، بعد نصف ساعة ، عندما يحلق حولها بعض الصغار المعجبين بها فى ركن

من الشرفة ، تعرب عن أشد الاحتكار لهذا الأمر كله وتقول :
ـ ها ! أتعرف مس فيلي كيف تجلد ؟ ان ضربها لا يقتل ذبابة ! عليها أن ترى كيف كان سيدى السابق يمزق اللحم ويجعله يتطاير بضرباته ! نعم ان سيدى السابق كان يعرف كيف يضرب !

وكانت توبسى تزهو كثيرا برذائلها وشناعة أعمالها ، وكأنها بلا ريب كانت تراها من خصائصها المميزة لها عن غيرها • وكانت تقول لبعض المستمعين اليها :

ـ ها ، أيها الزنوج • ألا تعلمون أنكم جميعا مذنبون خاطئون ؟ انكم كذلك ـ وكلنا هكذا • والناس البيض أيضا مذنبون • هكذا تقول مس فيلي •ولكنى أعتقد أن الزنوج هم أكثر الناس خطايا •ولكن لا • ليس بينكم من يضارعنى فى الشر • فقد بلغت من المكر والخبث وسوء الطوية مايجعل الجميع عاجزين أمامى • لقد تعودت أن أجعل سيدتى السابقة تضيع نصف وقتها فى صب اللعنـات على رأسى • وأعتقد أننى أخبث مخلوقة فى هذا العالم •

وهنا تقوم توبسى بقفزة عالية ، ثم تنتصب واقفة على مكان أكثر ارتفاعا وكأنما هى تزهو بما تمتاز به عن غيرها •

وكانت أوفيليا تعمل جادة فى أيام الآحاد لتعليم توبسى مبادىء الدين • وكانت لتوبسى ذاكرة قوية للحفظ والاستيعاب غير عادية • فكانت تحفظ مايلقى اليها من مواعظ بسرعة تشجع معلمتها كثيرا •

وكان سانت كلير يقول لها :
ـ أى خير تظنين أن تجنيه توبسى من هذا ؟

ـ لقد أفاد الأطفال منه على الدوام • وهو كمـا تعلم مايجب أن يتعلمه الأطفال على الدوام •

فقال سانت كلير :

ـ سواء فهموه أو لم يفهموه ؟
ـ ان الأطفال لا يفهمون هذه المواعظ حين يسمعونها ولـكنهم ، حين يكبرون ، يتذكرونها ويفهمونها •

فقال سانت كلير :

ـ اننى لم أتذكر أو أفهـــم ما سمعت من مواعظ وان كنت أقر بأنك لقنتنى منها الشىء الكثير فى أيام حداثتى •

فقالت أوفيليا

ـ لقد كنت دائما بارعا فى حفظ هذه المواعظ يا أوجستين •وقد اعتدت أن أضع فيك آمالا كبارا •

فرد عليها سانت كلير بقوله :

ـ آه • أليس لك أمل فى الآن ؟

ـ لقد كنت أرجو أن تكون صالحا كما كنت وأنت غلام يا أوجستين

فقال سانت كلير :

ـ وأنا أيضا كنت أرجو هذا يا ابنة عمى • تلك حقيقـة لا ريب فيها • عليك أن تستمرى فى تعليم توبسى المواعظ فربما استطعت أن تصلحى من أمرها •

وكانت توبسى ، خلال هذه المحادثة ، واقفة كتمثال أســـود ، عاقدة يديها على صدرها فى أدب جم • فلما أشارت لها أوفيليا راحت تقول :

ـ « ان أبوينا الأولين ، عندما تركت لهما حرية التصرف كمــا يريدان ، خرجا من الجنة التى خلقهما الله فيها »

وأبرقت عينا توبسى ونظرت الى أوفيليا نظرة من يريد أن يسأل عن شىء •

فقالت أوفيليا :

ـ ماذا تريدين يا توبسى ؟

ـ أرجوك ياسيدتى • أكانت تلك الجنة هى كنتكى ؟

ـ ماذا تعنين ؟

ـ الجنة التى خرجا منها • لقد تعودت أن أسمع سيدى يصف كيف خرجنا جميعا من كنتكى •

وهنا ضحك سانت كلير وقال :

ـ عليك أن تزوديها بالمعانى ، والا ابتكرت هى معانى من عندها• ويبدو أن هناك أحاديث عن الهجرة من هناك •

فقالت أوفيليا :

ـ يا أوجستين • أرجو أن تلتزم الصمت • كيف أستطيع أن أفعل شيئا وأنت تضحك هكذا ؟

ـ معذرة • بشرفى لن أقطع درسك معها مرة أخرى •

ثم تناول صحيفته ومضى الى غرفة الاستقبال حيث بقى حتى فرغت توبسى من القاء « محفوظاتها » وقد أحسنت القاءها جميعا ، الا أنها كانت بين الحين والآخر تبدل مواضع الكلمات الهامة ، ثم تصر على الخطأ رغم كل ما يبذل من مجهود لاصلاحه • وكان سانت كلير ، رغم كل وعوده الطيبة يشعر بابتهاج خبيث لهذه الأخطاء ، ويستدعى توبسى اليه كلما أراد أن يسلى نفسه ، ويطلب اليها أن تكرر تغيير القاء الفقرة التى أخطأت فيها رغم احتجاجات أوفيليا التى كانت تقول :

ـ كيف تظن أنى أستطيع افادة الصبية بشىء اذا كنت تستمر على هذه الحالة يا أوجستين ؟

ـ انه لذنب عظيم ، لن أعود الى هذا مرة أخرى • ولكننى أحب أن أرى هذه الأعجوبة المضحكة وهى تتعثر فى هذه الكلمات الضخمة•

ـ ولكنك تجعلها تثبت على هذه الأخطاء •

ـ وماذا فى هذا ؟ ان أية كلمة لا تكاد تختلف عن غيرها فى نظرها •

ـ لقد طلبت الى أن أحسن نشأتها ، وعليك أن تذكر أنها مخلوقة عاقلة ، فيجب أن تحذر من تأثيرك فيها •

ـ انه تأثير سيء ولا شك • أو كما تقول توبسى « شرير جدا »
وعلى هذا النحو تقريبا استمر تدريب توبسى وتعليمهـا عاما أو عامين • وكانت أوفيليا تشق على نفسها مع الصبية ، يوما بعد يوم، كأنها نوع من الوباء المزمن الذى تعودته على مر الأيام ، كمـا يعتاد المريض حالة الصداع أو الاضطرابات العصبية •

وكان سانت كلير يستمد من الطفلة هذه التسلية التى يستمدها أى انسان من ألاعيب ببغاء أو كلب صيد صـغير • وكانت توبسى كلما جرت عليها خطاياها غضب من فى الدار ، تتخذ من وراء مقعده ملاذا • وكان سانت كلير يصلح لها الأمر بطريقة ما • وكانت تظفر منه أحيانا ببعض النقود التى تشترى بها الحلوى والجوز وتوزعهما فى كرم وبغير مبالاة على أطفال الأسرة • ذلك أن توبسى ، اذا أردنا انصافها ، كانت طيبة القلب سخية اليد • لا تحقد على أحد الا عند الدفاع عن نفسها • وقد أسهبنا فى تقديمها على مسرح الحوادث فى هذه القصة • ولسوف نراها تقوم بدورها بين الحين والآخـر مع بقية اللاعبين •

الفصل الحادى والعشرون

كنتك

لعل قراءنا لا يرون بأسا من العودة ، فترة وجيزة ، الى كوخ العم توم ، فى ضيعة كنتكى ليروا ماذا جرى من أحداث بين أولئك الذين خلفناهم وراءنا ٠

كان الوقت فى ساعة متأخرة بعد ظهر يوم صيف ، وكانت أبواب غرفة الاستقبال الكبيرة ونوافذها مفتحة ، لاغراء أية نسمة عابرةقد تكون فى حالة معنوية طيبة ، على الدخول ٠ وقد جلس المستر شلبى فى دهليز يفضى الى الغرفة ويمتد على طول المنزل الى شرفتين فى كلا الجانبين ٠ وكان يستمتع ، وهو مسترخ على مقعد وقدماه على مقعد آخر ، بتدخين لفافة ما بعد الظهر ٠ أما زوجته فكانت تجلس عند الباب ، مشغولة ببعض أعمال الخياطة الرقيقة ، وبدت كأن شيئا ما يشغل فكرها وتريد أن تتاح لها فرصة الحديث ٠

وقالت أخيرا :

ــ هل تعلم أن كلو تلقت رسالة من توم !

ــ آه ٠ أهذا صحيح ؟ يبدو أن لتوم بعض الأصدقاء هناك ؟ كيف حال الولد العجوز ؟

وقالت مسز شلبى :

ــ أعتقد أن أسرة طيبة جدا اشترته ، وانه يعامل منها برفق ، وأنه لا يعمل كثيرا ٠

فقال المستر شلبى وهو منشرح الصدر :

ــ آه ٠ انى سعيد بهذا ! سعيد جدا ٠ وأظن أن توم سيألف الحياة فى الجنوب ، وأنه لا يكاد يرغب فى العودة الى هنا ٠

فقالت مسز شلبى :

ـ لا · ان الأمر على نقيض هذا · انه يستفسر فى لهفة عن الوقت الذى يستطاع فيه اعداد المال اللازم لتحريره ·

فرد عليها المستر شلبى قائلا :

ـ اننى يقينا لا أدرى · ان الأحوال المالية كما يبدو ـ اذا ساءت مرة ـ فلن يكون لسوئها نهاية · انها كالقفز من ردغة الى أخرى فى مستنقع موحل · انها اقتراض من واحد ، للوفاء بدين لآخـر ، ثم اقتراض من آخر لأداء دين الثانى · وهذه الصكوك اللعينة تتوالى قبل أن يفرغ الانسان من تدخين لفافة ، خطابات دائنين ، ورسائل ديون كلها تنهمر فى أضطراب وهرج ومرج ·

ـ ولـــكن يخيــل الى يا عزيزتى أن فى الامكان عمــل شىء ما لمعالجة هذه الحالة · فماذا لو بعنا جميع الجياد واحـــدى المزارع لأداء جميع الديون ؟

ـ ما أغرب هذا يا اميلى ! انك ألطف سيدة فى كنتكي · ومع هذا فلا يزال ينقصك الشعور بأنك لا تدركين شيئا فى ميدان الأعمال · ان النساء لا يفهمن شيئا فى هذا الميدان ، ولا يستطعن أن يفهمن ·

وهنا قالت المسز شلبى :

ـ ولكن ألا تستطيع ، على الأقل ، أن تطلعنى بعض الشىء عـــلى مشاكلك المالية وأن تضع قائمة بجميع ديونك ، على الأقل ، وبجميع ما تدين به الغير ، ثم تتركنى أحاول أن أرى هل فى مقدورى معاونتك على الاقتصاد فى المعيشة ؟

ـ آه · أرجوك يا أميلى ألا تضايقينى · فأنا لا أعرف موقفى المالى على وجه التحديد · اننى أعرف أحـوالى على وجه التقريب ، ولـكنى لا أستطيع أن أسوى شئونى وأنسقها كمـــا تفعل كلو بفطائرها · وأؤكد لك أنك لا تعرفين شيئا عن شئون العمل ·

ولما كان المستر شلبى لا يعرف وسيلة أخرى لعرض آرائه ، فقد

رفع صوته عاليا أثناء الحديث ـ وهـو أسلوب للمناقشة سهل وكثيرا ما يجدى وينفع حينما يناقش رجل بعض شئونه مع زوجته.

وأمسكت المسز شلبى عن الحديث وهى تتنهد بعض الشيء . والواقع أنها كانت ذات عقل صاف ، عملى ، نشيط ، وقوة شخصية أسمى فى كل شيء من شخصية زوجها . وان كان زوجها قد قال انها امرأة . ولهذا لم يكن ثمة غرابة ـ كما رأى هو ـ فى اقتراحها معاونته على تسوية شئونه . وكانت قد قررت ، أن تفى بوعدها لتوم والعمة كلو ، وقد اشتدت حسرتها وهى ترى المصاعب تتكاثف حونها .

وأخيرا قالت :

ـ ألا ترى أننا قد نستطيع أن نجمع المال بطريقة ما ؟ ان كلو المسكينة تعيش على هذا الأمل .

ـ اننى آسف ان كان الأمر هكذا . وأعتقد أنى تسرعت فى بذلى هذه الوعود . وأنا الآن لست واثقا من الأمر ، ولكن أفضل طريقة هى أن تصارحى كلو بالحقيقة ، وأن تجعليها ترضى بالأمر الواقع. أما توم فسوف يتخذ لنفسه زوجة أخرى فى خلال عام أو عامين ، ويحسن أن تبحث كلو لنفسها عن زوج غيره .

ـ يامستر شلبى ، لقد علمت جميع خدمى أن زواجهم لا يقل قدسية عن زواجنا . ولهذا لا يخطر ببالى أبدا أن أسدى هذه النصيحة لكلو .

ـ ان مما يؤسف له أيتها الزوجة أن تثقلى كواهل خدمك بمبادىء أعلى من ظروفهم وامكانياتهم . لقد كان هذا هو رأيى دائما .

ـ انها مبادىء الكتاب المقدس يامستر شلبى ولا شيء غير هذا .

ـ نعم يا اميلى ، اننى لا أنوى التدخل فى آرائك الدينية ، وكل ما أقوله اننى أرى أنها تبدو غير لائقة بحال ما لقوم هذه حالهم .

ـ انها فى الحق لا تناسبهم . وهذا هو السبب الذى يجعلنى أكره ـ من صميم قلبى ـ هذا الموقف . وانى أؤكد لك يا عزيزى

أنني لا أستطيع أن أعفي نفسي من وعد قطعته لهؤلاء النفس المساكين. فاذا لم أستطع أن أجد المال بطريقة ما . فسوف أقوم بتدريس الموسيقى ، وأنا أعرف أن في مقدوري جمع المال اللازم بهذه الوسيلة .

– انك لن تنحدري الى هذا المستوى يا اميلي ، وأنا لن أوافق على هذا .

– أنحدر ؟ أهو كانحدار من يخون العهد مع البائسين ؟ لا ، لا !

فقال مستر شلبي :

– انك دائما مثالية باسلة . ولكنني أرى أنه ينبغي لك أن تفكري كثيرا قبل أن تقدمي على هذه البطولة الكاذبة .

وهنا انقطعت المحادثة بظهور العمة كلو عند طرف الشرفة وهي تقول :

– هل تسمعين ياسيدتي ؟

فقالت السيدة وهي تنهض وتذهب الى نهاية الشرفة :

– نعم ياكلو . ماذا تريدين ؟

– لو أن سيدتي تسمح وتلقي نظرة على هذه الدواجن .

وتبسمت المسز شلبي وهي تنظر الى طائفة من الدجاج والبط ملقاة عند قدمي كلو التي وقفت تنظر اليها في تأمل وجد وتقول :

– انني أسأل سيدتي هل تريد أن نصنع فطيرة محشوة بها ؟

– حقا ياعمة كلو . انني لا أهتم كثيرا بهذا . اصنعي منها مايحلو لك من طعام .

وظلت كلو واقفة وقد أمسكت بالدواجن في نظرات شاردة . وكان الواضح أن موضوع الدواجن لم يكن هو الذي يشغل بالها . وأخيرا أرسلت هذه الضحكة القصيرة التي اعتاد أبناء جنسها أن يقدموا بها اقتراحا مشكوكا في قبوله وقالت :

— ويحى ياسيدتى • لماذا يشغل سيدى وسيدتى أنفسهما بشأن المال مع أن فى مقدورهما الاستفادة بما بين أيديهما •

وكررت ضحكتها القصيرة • وأيقنت المسز شلبى ، لما تعرفه عن كلو ، أنها سمعت كل كلمة من الحديث الذى دار بينها وبين زوجها • ومن ثم قالت :

— لست أفهم ما تقولين يا كلو •

وعادت كلو تقول وهى تضحك :

— عجبا ياسيدتى • ان غيركما من السادة يؤجرون عبيدهم ويكتسبون من ورائهم المال • انهم لا يحتفظون بمثل هذا العدد الكبير ليطعموهم ويستنفدوا بهم أموالهم •

— ومن الذين تقترحين تأجيرهم للعمل خارج المزرعة ؟

— ويحى • اننى لا أقترح شيئا • وكل ما أقوله ان سام قد قال ، ان أحد صناع الحلوى والفطائر فى مدينة لويزفيل قال انه فى حاجة الى عامل بارع فى صنع الفطائر والكعك ، وهو مستعد أن يمنحه أربعة دولارات أجرا فى الأسبوع • هكذا قال •

— وبعد يا كلو ؟

— نعم ياسيدتى • لقد خطر لى أنه قد آن لسالى أن تعمل شيئا • فقد ظلت تحت اشرافى بعض الوقت ، وهى من ثم تستطيع أن تتقن معظم ما أتقنه أنا • فاذا أذنت سيدتى لى فى الذهاب ، فانى قد أساعد فى جمع المال المطلوب وأنا لا أخشى أن أضع كعكى وفطائرى بجانب أى كعك أو فطائر لأى صانع حلوى •

— ولكن ، أتريدين ياكلو أن تتركى أطفالك وراءك ؟

— ويحى ياسيدتى • ان الولدين كبرا وأصبحا صالحين للقيام بالأعمال اليومية ويمكن لسالى أن تعنى بالطفلة • انها بنت لطيفة هادئة لا تحتاج الى رعاية كثيرة •

— ولكن لويزفيل تقع على مسافة بعيدة جدا !

ـ يرعاك الله ! اننى لا أخشى السفر اليها • انها هناك ، فىأدنى النهر ، بالقرب من زوجى العجوز على ما أظن •

وكانت رنة التساؤل واضحة فى العبـــارة الأخـيرة حين نطقت بها كلو وهى تنظر الى سيدتها • فردت عليها قائلة :

ـ لا ياكلو • انها تبعد عنه مئات الأميال •

وارتسمت الكآبة على وجه كلو • ولكن المسز شلبى أردفتقائلة:
ـ لا بأس ! ان رحيلك الى هذه البلدة ســيجعلك أقرب الى توم ياكلو • نعم يمكنك أن تذهبى • ولسوف أدخر كل قرش من أجرك لتحرير زوجك •

وأشرق وجه كلو الأسمر فورا كما يشرق السحاب الكثيف حين تقع عليه شعاع من الشمس فيحول سواده الى فضة• واذا هىتقول:

ـ ويحى ! لو لم تكن سيدتى كريمة نبيلة الى هذا الحد ! لقـــد كنت أفكر فى نفس الغرض • لأنى لست بحاجة الى ملابس أوأحذية أو أى شيء • اننى من ثم أستطيع ادخار كل قرش • كم أسبوعا فى السنة يا سيدتى ؟

ـ اثنان وخمسون •

ـ ويحى ! أهكذا ؟! فاذا حسبنا أربعة دولارات فى الأســبوع ، فكم يكون المبلغ فى السنة ؟

فقالت مسز شلبى :

ـ مائتا دولار وثمانية •

فقالت كلو بنغمة تنم عن الدهشة والابتهاج :

ـ وكم من الوقت يلزمنى لجمع المبلغ كله ياسيدتى ؟

ـ أربع سنوات أو خمس • ولكن ليس عليك أن تجمعى المبلغكله

ـ اننى لن أوافق أبدا على أن تعطى سيدتى دروســا أو على شيء آخر من هذا القبيل • ان سيدى محق كل الحق فى هذا ـ ان هـذا

لا يكون أبدا ، وأرجو ألا يضطر أحد من أبناء الأسرة الى فعل هـذا ما دام لدى يدان أعمل بهما ·

فقالت المسز شلبى وهى تبتسم :

ـ لا تخافى ياكلو ، فسأحافظ على شرف الأسرة · ولـكن متى ينتظر أن تذهبى ·

ـ اننى لا أنتظر شيئا · وكل ما فى الأمر ان سـام ذاهب الى النهر ببعض الجياد · وقد قال ان فى استطاعتى الذهاب معـه · ويمكننى أن أجمع حاجياتى وأمضى معه غدا صباحا اذا أذنت سيدتى، واذا أعطتنى تصريحا بالمرور وخطاب توصية ·

ـ سوف أعنى بهـذا الأمر اذا لم يكن للمستر شلبى اعتراض عليه · اذ يجب أن أتحدث اليه فى هذا الشأن ·

وعادت المسز شلبى الى الغرفة ، وانصرفت العمة كلو الى كوخهـا مسرورة لتعد حاجياتها ·

ولما دخل الغلام جورج ، ابن سيدها ، الى كوخها ، ووجدها تعمل فى فرز ملابس طفلتها ، قالت له :

ـ يارعاك الله ياسيد جورج ! انك لا تعلم أننى راحلة غـدا الى لويزفيل ، لقد خطر لى أن ألقى نظرة على هذه الأشـياء ، لأنسقها وأنظمها · ولكننى ذاهبة ياسيد جورج · ذاهبة لأكسب أربعـة دولارات فى الأسبوع · ولسوف تدخر سيدتى كل أجرى لتحرير زوجى العجوز ·

فقال جورج :

ـ هذه صفقة رابحة ، بالتأكيد ، وكيف تذهبين ؟

ـ غدا مع سام ، والآن ياسيد جورج ، أنا أعرف أنك سـتجلس وتكتب خطابا الى رجلى العجوز وتخبره بكل شىء عن هذا · أليس كذلك ؟

فقال جورج :

ـ لا شك فى هذا • وسيكون العم توم سعيدا بهذا الذى يسمعه عنا • وســأمضى الى البيت فورا لآتى بالورق والحبر • وعنـدئذ أستطيع ، كما تعرفين ياعمتى كلو ، أن أحدثه عن الجياد الجـديدة وما الى هذا •

ــ بالتأكيد •• بالتأكيد ياسيد جورج • افعل هذا وسوف أزيد نصيبك من الدجاج ومن غيره • فانك لن تنعم بعد ذلك بوجبـات عشاء سهية كثيرة من يدى عمتك العجوز المسكينة •

الفصل الثانى والعشرون

« يبس العشب ـ ذبل الزهر »

ان الحياة تمر بنا جميعا يوما بعد يوم · وكذلك كانت الحال مع صديقنا توم ، حتى انصرم عامان · ومع أنه قد افترق عن كل ما هو عزيز عليه ، ورغم أنه كثيرا ما كان يحن الى الأحباب البعيدين عنه ، فأنه مع هذا لم يكن فى ذات نفسه شقيا مدركا لشقائه · ذلك أن أوتار المشاعر الانسانية مشددة بحيث لا يفسد ائتلافها الا اذا أصيبت بصدمة تحطم كل وتر منها · ونحن اذا عدنا بالذاكرة الى عهود تبدو ،عند الذكرى ، مليئة بالمحن والحرمان ، فاننا نستطيع أن نتذكر أن كل ساعة على حدة ، كانت تجلب معها ، وهى تنساب، أسباب السلوى والعزاء ، ومن ثم فاذا لم نكن فيها جد سعداء ، فاننا أيضا لم نكن جد بائسين ·

لقد قرأ توم فى كتابه الوحيد عن ذلك الذى « تعلم أن يكون مكتفيا فى كل شيء » وقد بدا له أن هذا مبدأ طيب ومعقول وانه يوائم عادة الاستقرار والتفكير التى اكتسبها من قراءته فى ذلك الكتاب ·

وكان الرد على خطابه الذى تحدثنا عنه فى الفصل السابق ، قد كتب فى الوقت المناسب ، بيد السيد جورج ، وبذلك الخط المدرسى الواضح الذى يمكن قراءته ـ كما يقول توم ـ « من نهاية الغرفة » · وكان يحتوى على نتف من أخبار طيبة عن البيت يعرفها قراؤنا أتم معرفة : فقد جاء فيه أن العمة كلو قد أجرت لمتجر حلوى فى لويزفيل، حيث تأتى براعتها فى ميدان صنع الحلوى والفطائر بمبالغ من المال مدهشة ، وكلها ، كما ذكر لتوم ، تدخر لجمع المال اللازم لاسترداده ، وقيل له ان ابنيه موسى وتوم ينموان بسرعة ، وان ابنته تملأ البيت بخطواتها تحت اشراف سالى والأسرة عامة ·

وقد أغلق كوخ توم مؤقتا ، ولـــكن جورج راح يسرد فى براعة ألوان الزينة والاضافات التى ستدخل عليه عند عودة توم •

أما باقى الخطاب فقد خصص لسرد المواد التى يدرســها ، مواد جورج ، كل مادة تبدأ بخط كبير خاص ـ كما ورد فيه أسماء أربعة أمهار جديدة أخذت مكانها فى المزرعة منذ غيـــاب توم ، ولم ينس توم أن يذكر بهذه المناسبة أن أباه وأمه فى صحة جيــدة • وكان أسلوب الخطاب موجزا خاليا من الزخرف بلا شك ولـكن توم كان يراه أروع أنموذج لفن الانشاء فى العصور الحديثة • ولم يكن يمل النظر اليه ، بل انه عقد جلسة مع ايفا تداولا فيها وضعه فى اطار خاص ليعلقه فى غرفته • ولم يعق تنفيذ هذه الرغبة الا ما اعترضها من صعوبة وضعه بحيث يظهر وجها الورقة معا فى الاطار •

وكانت المودة بين توم وايفا تنمو بنمو الطفلة • وانه لمن العسير القول فى أى مكان كان الخادم الأمين يضعها من قلبه الكبيرالعطوف السريع التأثر • لقد أحبها حب الانسان لمخلوق رقيق من أبناء هذه الدنيا لكنه يكاد يعبدها عبادة • كان ينظر اليها نظرة البحارالايطالى الى صورة المسيح فى المهد ، بمزيج من الاجلال والحنـــان • وكان أعظم ما يبتهج به هو ارضاء نزواتها الصـــغيرة اللطيفة ، واجابة الآلاف من المطالب البسيطة المنوعة التى تلازم الطفولة كأنها ألوان الطيف الكثيرة فى قوس قزح • فاذا ذهب الى السوق فى الصباح ، كانت عيناه دائما تتطلعان الى منصات بيعالأزهار ، بحثا عنالطاقات النادرة ليأتى اليها بها ، أما أفضل ثمار الخوخ أو البرتقال ، فكان يحتفظ بها فى جيبه ليقدمها اليها عند عودته الى البيت • ولم يكن هناك ما يبهجه أكثر من منظر وجهها المشرق وهى تطل عليـــه من الباب فى انتظار اقترابه من بعيد ومن سؤالها الصبيانى له « بماذا جئت لى معك اليوم ياعم توم ؟ »

ولم تكن ايفـا أقل حماســـة فى ميدان العطف والاشـــفاق • فقد كانت رغم حـــداثة سنها قارئة مجيدة ، ذات أذن موســيقية مرهفة ، وخيال شاعرى لماح وتجاوب غريزى مع كل ما هـــو عظيم

ونبيل ، مما جعلها قارئة للكتاب المقدس لم يشهد توم مثيلا لها من قبل • وكانت فى أول الأمر تقرأ مرضاة لصديقها المتواضع ـ ولكن سرعان ما أبرزت طبيعتها الحماسية لطائفها ، واذا هى تتجاوب مع الكتاب المقدس ، واذا ايفا تحبــــه لأنه أيقظ فيها حنينا عجيبــا ، وعواطف قوية غامضـــة كالتى يحب الأطفال ذوو الخيــال الوثاب والانفعالات القوية أن يشعروا بها •

وكانت الأجزاء التى تستهويها أكثر من غيرها ، هى سفر الرؤيا والنبوءات •وكانت تلك بصورها العجيبة الغامضة ونفسها الحماسية ذات أثر بالغ فى نفسها ودفعت بها الى التساؤل ـ بلا جدوى ـ عن معانيها ـ واذا هى وصديقها الســـاذج ـ الطفل الكبير ، والطفلة الصغيرة ـ يشعران باحساس واحد ازاء هذه المعانى • وكل ما كانا يعرفانه هو أن هذه الأجزاء تتحدث عن مجد منتظر سيكشف عنه وعن شيء رائع عجيب سوف يأتى تبتهج به روحاهما دون أن يعرفا سبب هذه البهجة • وليس كل ما لا يستطاع فهمه عديم النفع على الدوام وهذا يصدق فى العلوم الأدبية وان لم يصـــدق فى العلوم الطبيعية ، ذلك أن الروح تستيقظ فاذا هى شيء غريب غامض يرتعد بين الأزل والأبد ـ أزل الماضى ، وأبد المستقبل ، ولا يضيء النور الا على مكان صغير حولها ، ومن ثم فلا مندوحة لهـــا من الشـــوق الى المجهول ، وان الأصوات والأطياف المتحركة التى نسمعها أو نراها من وراء سحب الوحى والالهام ليتردد صداها وتجاوبها فى أعمــاق طبيعتها المترقبة • وكأن تخيلاتهـــا الخفية طلاسم وجواهر نقشت عليها نقوش مغلقة لا تستطيع حل رموزها فتطويها فى صـــدرها فى انتظار قراءتها عندما تمر من وراء الحجب •

وفى هذه المرحلة من قصتنا ، انتقل جميع من فى قصر سانت كلير الى دارهم الواقعة على بحيرة بونتشارترين ، ذلك أن حرارة الصيف كانت قد دفعت بجميع القادرين على الرحيل عن المدينة الحارة غــير الصحية الى شواطيء البحيرة والتماس نسائمها البحرية المنعشة •

وكانت فيللا سانت كلير على نمط أكواخ جزائر الهند الشرقية ،

تحيط بها الشرفات الخفيفة المصنوعة من الخيزران الهندى ، وتفضى من جميع الجوانب الى حديقة كبيرة ، يتضوع منها شذى كل نوع من نبات وزهر استوائى رائع الجمال ، وتمتد منها الممرات المنعطفة حتى شواطىء البحيرة التى ترتفع صفحة مياهها الفضية وتهبط تحت أشعة الشمس ، فترسم لها صورة من الطبيعة لا تبقى على حال واحدة ساعة من الزمان ، ولكنها فى كل ساعة تزداد حسنا وبهاء ٠

واننا الآن فى احدى هذه الفترات الذهبية من غروب الشمس التى تضىء الأفق كله بوهج من البهاء ، وتجعل من الماء صفحة أخرى من السماء ٠ وكانت صفحة الماء تمتد فى خطوط ذهبية أو وردية ، الا حيث تتناثر عليها سفائن بيضاء الأجنحة ، تنساب هنا وهناك كأطياف عديدة ، أما فى السمء فكانت النجوم الذهبية الصغيرة تومض من خلال الوهج ، وتطل على انعكاس صورها المرتعدة فى صفحة الماء ٠

وكان توم وايفا جالسين على مقعد خشبى صغير مكسو بالطحالب عند عريشة فى نهاية الحديقة ، وكان الوقت مساء يوم الأحد ، وكتاب ايفا المقدس مفتوح على ركبتيها ، وهى تقرأ « ورأيت كبحر من زجاج مختلط بنار » ٠

وهنا توقفت ايفا عن القراءة وقالت لتوم وهى تشير الى البحيرة :

ـ توم ٠ هذا هو !

ـ ما هو يا مس ايفا ؟!

فأشارت الى صفحا الماء الزجاجية التى تعكس ، وهى ترتفع وتهبط ، وهج السماء الذهبى وقالت :

ـ ألا ترى ما هنالك ؟

ـ ها هو ذا بحر الزجاج المختلط بالنار ٠

فقال توم :

ــ هو بحق يا مس ايفا ٠

ثم راح ينشد :

« لو أن لى جناحى الصباح ،

« لطرت الى شاطىء بلادى

« ولذهبت بى الى موطنى الملائكة الوضاءة

« الى أورشليم الجديدة »

وقالت ايفا :

ــ أين توجد ، فى ظنك ، أورشليم الجديدة ياعم توم ؟

ــ هناك فى السحب يا مس ايفا ٠

ــ أظن اذن أنى أراها ٠ أنظر الى تلك السحب ٠ انهـــا تبـدو كأبواب كبيرة من اللآلىء الشفافة ، ويمكنك أن ترى من خلالها ،على بعد عظيم ، عالما من الذهب ٠ غن ياتوم عن « الأرواح المشرقة »

وأخذ توم ينشد احدى الأناشيد المثدية المعروفة :

« أرى فريقا من الأرواح المشرقة ــ

« التى تتذوق المجد هناك ــ

« وجميعها مرتدية ملابس بيضاء ناصعة ٠

« وعلى رءوسها سعف من نخيل النصر ٠٠ »

وقالت ايفا :

ــ عمى توم ٠ لقد رأيتها ٠

ولم يكن يخامر توم أدنى شك ، بل ما كان ليشعر بأية دهشة ٠٠ ولو أن ايفا قالت له انهـا ذهبت ذات يوم الى السماء لرأى هـــذا محتملا الى حد كبير ٠

وعادت ايفا تقول بنظرات حالمة :

ـ ان هذه الأرواح تأتى الى أحيانا فى منامى ·

وراحت تترنم بصوت خافت :

« جميعها مرتدية ملابس بيضاء ناصعة ·

« وعلى رءوسها سعف من نخيل النصر ·· »

وقالت ايفا :

ـ ياعمى توم · انى ذاهبة الى هناك ·

ـ الى أين يا مس ايفا ؟!

فنهضت الطفلة وأشارت بيدها الصغيرة الى السماء ، وأضاء وهج الغروب شعرها الذهبى ووجنتها المضطرمة بلون من الاشراق السماوى ، وتركزت نظراتها فى لهفة وشوق على السماء ·

وعادت تقول :

ـ اننى ذاهبة الى هناك · الى الأرواح المشرقة ياتوم · انى ذاهبة فى وقت قريب ·

وانتفض قلب الكهل الوفى فجأة ، وذكر توم كيف لاحظ كثيرا ـ خلال ستة أشهر ـ ان يدى ايفا الصغيرتين تزدادان تحولا ، وان بشرتها تزداد شفافية ، وان أنفاسها أضحت أقصر من ذى قبل ، وانها عندما تلعب أو تجرى فى الحديقة ، وكانت من قبل قادرة على أن تجرى فيها وتلعب ساعات طوالا ـ أصبحت تشعر بالتعب والاعياء سريعا · وكان قد سمع أوفيليا تتحدث كثيرا عن سعال لم تستطع كل عقاقيرها أن تشفيه · وحتى وهو يرى الآن خدها المضطرم ويدها المرتعدة تلتهب بالحمى ، لم تخطر بباله تلك الفكرة التى توحى اليه بها كلمات ايفا ·

ترى هل هناك فى الوجود طفلة مثل ايفا ؟ نعم كان فيه ، ولكن أسماءهن محفورة دائما على شواهد القبور · وان بسماتهن الحلوة ،

ونظراتهن الالهية ، وحركاتهن وكلماتهن الفريدة ، كلها كنوز مستقرة فى القلوب الملهوفة • وفى كم من الأسر نسمع الأحاديث عن أن كل الطيبة وحسن الشمائل التى يتمتع بها الأحياء ليست شيئا مذكورا اذا قيست الى محاسن الذى كان وراح ، وكأن للسماء جماعة خاصة من الملائكة مهمتها الاقامة فى الدنيا حينا من الزمن ، تتعلق بها حبات القلوب البشرية العتيدة لكى تحملها معها فى عودتها الى السماء • فأنت حين ترى هذا الضوء الروحانى العميق يتلألأ فى العين — وحين تكشف الروح الصغيرة عن حقيقتها بكلمات أحلى وأحكم من كلمات الأطفال العادية ، فافقد الأمل فى بقاء هذا الطفل على قيد الحياة ، ذلك بأن خاتم السماء قد طبع عليه ، ونور الخلد يطل من عينيه •

وتلك حقيقة يا ايفا المحبوبة • يانجم مثواك الجميل ، فأنت ذاهبة عما قريب ، ولكن الذين يتفانون فى حبك لا يعلمون هذا •

وقطع الحديث الذى كان يدور بين ايفا وتوم نداء سريع من أوفيليا :

— ايفا •• ايفا • عجبا ياصغيرتى • ان الندى يتساقط ويجب ألا تبقى فى الخارج •

وأسرع توم وايفا بالدخول •

وكانت أوفيليا مجربة بارعة فى فن التمريض • فهى من نيو انجلاند وانها لتعرف تلك الخطوات الغادرة التى يتسرب بها ذلك الداء الخفى الذى يقضى على حياة الكثيرين من ألطف الناس وأحبهم الى القلوب والذى يذهب بهم الى غير رجعة قبل أن يخيل الى من حولهم أن خيطا واحدا من خيوط حياتهم قد انقطع •

لقد لاحظت ذلك السعال الخفيف الجاف ، وذلك التوهج اليومى فى الوجنتين ، كما أنها لم تكن تخدع أبدا ببريق العين ، ولا بذلك النشاط الناشىء عن الحمى •

وحاولت أن تفضى بمخاوفها الى سانت كلير ، ولكنه عارضها فى

نزق وعناد على عكس عادته من الاستخفـــاف والمرح • وقد قال في هذا الشأن :

ـ لا داعى لهذا التشاؤم يا ابنة العم• فانى لا أحبه • ألا ترين أن الطفلة تنمو ؟ ان الأطفال عادة يضعفون عندما يكبرون بسرعة •

ـ ولكنها تعانى من ذلك السعال ؟

ـ دعك من لغو الحديث عن هذا السعال ! فانه لا شيء ! لعلهـا أصيبت بنوبة برد •

ـ ولكن هكذا كانت الحال عندما مرضت اليزا جين ،وايلين وماريا ساندرز !

ـ دعك من هذه التهاويل ومن وساوس الممرضات ! فأنتم أيهـــا المجربون تحسبون أن الموت والدمار حتم على كل طفل يســـعل أو يعطس • وما عليك الا أن تعنى بالطفلة ، وأن تحفظيها من هواءالليل، وألا تسمحي لها بأن تجهد نفسها فى اللعب • ولسوف ينتهى كل شيء بسلام •

هكذا قال سانت كلير ، ولكنه بدأ يشعر بالقلق والاضطـراب ، ومن ثم راح يراقب ايفا يوما بعد يوم فى قلق بالغ يدل عليه تكراره الدائم لهذه الكلمات التى كان يقولها وهو يلاحظها « ان الطفلـة فى حالة طيبة وانه لا شيء خطير فى ذلك السعال ، وهو لا يعدو أن يكون اضطرابا فى المعدة ، كالذى يحدث للأطفال عادة • » ولكنه مع هذا ظل يزيد من فترات بقائه معها ، وكثيرا ماكان يصحبهافى نزهاته على صهوة الجواد ، ويحضر لها كل أيام قليلة بعض العقاقير المقـــوية للجسم « لا لأن الطفلة فى حاجة اليها ، بل لأنه لا ضرر منها على كل حال » •

ولكن ينبغى القول أن الذى أفزع قلبه أكثر من أى شيء آخر ،هو ذلك النضج المتزايد دائما فى عقلية الطفلة ومشـــاعرها • وذلك رغم احتفاظها بكل ما اختص به الأطفال ، فقد كانت فى أحيان كثيرةتلقى دون أن تدرك ما تقول عبارات فيها من بعد المعنى واصالة الرأى ما يجعلها تبدو كالالهام • وفى هذه الحالات كان سانت كلـــير يحس

بأشد الانفعال ، فيضم الطفلة الى صدره بقوة ، كأنما هذا العناق القوى سينقذها ، ويمتلىء قلبه بعزم قوى للاحتفاظ بها ، وعدم التخلى عنها ٠

وبدا أن قلب الطفلة كله وروحها مستغرقان فى مجالات الحب والاشفاق ٠ فقد كانت كريمة نبيلة دائما بطبيعتها ، أما الآن فقد لاحت عليها سمات من التفكير الأنثوى الناضج لاحظها الجميع ٠ انها لا تزال تحب اللعب مع توبسى ، ومع كثير من مختلف الأطفال الخلاسيين ، ولكنها كما بدا أصبحت أقرب الى المشاهد منهما الى المشترك فى ألعابهم ، وكانت تجلس نصف ساعة كاملة وهى تضحك من ألاعيب توبسى ، ثم اذا بسحابة تطوف ، كما يلوح ، بوجهها ، واذا نظراتها تشرد واذا أفكارها تهيم بعيدا ٠

وفى ذات يوم قالت لأمها فجأة :

ـ أماه ٠ لماذا لا تعلمون الخدم القراءة ؟

ـ يا له من سؤال يا طفلتى ! ان الناس لا يفعلون هذا أبدا ٠

ـ ولماذا لا يفعلون هذا ؟

ـ لأنه لا فائدة تعود عليهم من تعلم القراءة ٠ انها لا تعينهم على اجادة العمل وهم لم يخلقوا لشىء آخر غير العمل ٠

ـ ولكن ينبغى أن يقرءوا الكتاب المقدس يا أماه ، ليعرفوا ارادة الله

ـ آه ٠ ان فى الامكان أن يقرأ عليهم كل ما يلزمهم من هذه التعاليم ٠

ـ يخيل الى يا أماه أن الكتاب المقدس يلزم أن يقرأه كل انسان بنفسه ٠ انهم يحتاجون الى قراءته مرات كثيرة حين لا يجدون من يقرؤه لهم ٠

فقالت أمها :

ـ انك يا ايفا طفلة غريبة ٠

فمضت ايفا تقول :

ـ ان أوفيليا علمت توبسى القراءة ٠

ـ نعم ٠ وقد رأيت ماذا فعل به تعليمها اياه ٠ ان توبسى أخبث مخلوق رأيته فى حياتى ٠

ـ هذه هى مامى المسكينة ٠ انها تحب الكتاب المقدس كثيرا ، ولهذا فهى تحب القراءة لو أنها عرفت القراءة ٠ فماذا يمكن أن تفعل عندما لا أستطيع القراءة لها فيه ٠

وكانت مارى مشغولة بالبحث فى محتويات أحد الأدراج عندما أجابت قائلة :

ـ نعم يا ايفا ، طبعا ، انك ستجدين أمورا أخرى تفكرين فيها غير القراءة فى الكتاب المقدس ٠ ولا أعنى أن هذا لا يليق ٠ فقد كنت أفعل هذا بنفسى عندما كانت صحتى جيدة ٠ ولكن عندما يحين الوقت لكى ترتدى ملابسك استعدادا للذهاب الى حفلة ، فليس تجدى الوقت الكافى للقيام بهذا ٠ أنظرى ـ

ثم أردفت قائلة :

ـ هذه الجواهر سوف أعطيها لك عندما تكبرين ٠ فقد تزينت بها فى حفلة راقصة ٠ وأؤكد لك يا ايفا ، اننى أثرت بها اعجاب الحاضرين ٠

وتناولت ايفا علبة الجواهر ، ورفعت منها قلادة من الماس ، واستقرت عليها عيناها الكبيرتان الدالتان على عمق التفكير ٠ ولكن كان من الواضح أن أفكارها شاردة فى مكان آخر ٠

وقالت لها أمها :

ـ لشد ما يبدو الجد عليك يا صغيرتى ٠

ـ أتساوى هذه مبلغا كبيرا من المال يا أماه !

ـ بالتأكيد طبعا ! انها لكذلك ٠ لقد أرسل والدك فى شرائها من فرنسا ٠ أنها تساوى ثروة صغيرة ٠

فقالت ايفا :

ـ أتمنى لو كانت ملكى لأفعل بها ما أشاء ٠

ـ مادا كنت تفعلين بها ؟

ـ كنت أبيعها وأشترى مزرعة فى الولايات الشمالية الحـــرة وأنقل اليها جميع الخدم وأستأجر المعلمين ليعلموهم القراءة والكتابة

وقطعت أمها عليها الحديث ضاحكة ثم قالت ـ

ـ كأنك ستنشئين مدرسة داخلية ! أكنت أيضا تعليمنهم العـزف على « البيانو » والرسم على المخمل ؟

فقالت ايفا بثبات :

ـ كنت أعلمهم القراءة فى كتابهم المقدس ، وكتابة رســـائلهم ، وقراءة الخطابات المرسلة اليهم ٠ فأنا أعرف يا أماه أنهم يتألمون لانهم لا يستطيعون القيام بهذه الأشياء ٠ وأن توم ليشعر بهــذا الألم ، وكذلك مامى ٠ وان كثيرا منهم ليشعرون بهذا الألم أيضا ٠ وأعتقد أن فى هذا ظلما ٠

فقالت مارى :

ـ كفى يا ايفا ! انك طفلة لا تعرفين شيئا من هذه الأمور ٠ وعدا هذا فان حديثك يصدع رأسى ٠

وكانت مارى تحتج دائما بالصداع كلما وجدت أن المحادثة لم تعد تناسبها ٠

وتسللت ايفا ، ولكنها بعد هذا راحت تقدم لمامى ـ سرا ـ دروسا فى القراءة ٠

الفصل الثالث والعشرون

هنريك

وفى خلال هذه الفترة ، أمضى ألفريد ، شقيق سانت كلير ، مع ابنه الأكبر ـ وهو غلام فى الثانية عشرة من عمره ـ يوما أو يومين مع الأسرة عند البحيرة .

وما من منظر كان أجمل وأغرب من منظر هذين الشقيقين التوأمين فان الطبيعة بدلا من أن تقرب الشبه بينهما خالفت بينهما فى كل شيء ، ومع ذلك فقد كان ثمة وشيجة خفية تجمع بينهما ـ كما يبدو ـ فى نطاق من المودة أقوى مما يكون عادة بين التوأمين .

لقد اعتادا أن يتمشيا ، وذراع أحدهما فى ذراع الآخر ، جيئة وذهابا فى ممرات الحديقة وطرقاتها الضيقة . أوجستين بعينيه الزرقاوين ، وشعره الذهبى ، وقامته الرقيقة المرنة ، وملامحه المرحة ، وألفريد بعينيه القاتمتين ، وملامحه الرومانية الرفيعة ، وأطرافه المفتولة العضلات ، وسمته الحازم المسيطر . وكان كل منهما دائما ينتقد آراء الآخر وتصرفاته ، ومع هذا لم يكن أحدهما يمل صحبة الآخر لحظة واحدة . والحق أن نفس هذا التناقض يبدو أنه يجذب كلا منهما لأخيه ، كما يجذب القطب الموجب القطب السالب من المغناطيس .

وكان هنريك ، الابن الأكبر لألفريد ، غلاما نبيلا ، أسود العينين جميل الطلعة ، عظيم الحيوية والنشاط وقد بدا أنه منذ أول لحظة لتعارفه على ابنة عمه افتتن بمحاسنها الروحية .

وكان لايفا مهر مدلل صغير ناصع البياض ، سهل القياد ، لايقل ظرفا ورقة عن صاحبته ، وقد جاء توم وقتئذ بهذا المهر الى الشرفة الخلفية ، بينما قاد غلام خلاسى فى الثالثة عشرة جوادا عربيا صغيرا

أسود اللون كان ألفريد قد استورده لهنريك وكلفه كثيرا من المال ٠

وكان الزهو الصبيانى يملأ قلب هنريك بفرسه الجديد ، وبينما كان يتقدم ويتناول العنان من يدى السائس الصغير ، أخذ يفحصه فى عناية وقال وقد تجهم وجهه :

ـ ما هذا يا دودو ؟ أيها الكلب الصغير الكسلان ٠ انك لم تنظف الجواد كما ينبغى هذا الصباح ٠

فقال دودو فى خضوع :

ـ لقد فعلت يا سيدى ٠ ولكنه جلبْ هذا الغبار على نفسه ٠

فصاح هنريك غاضبا وهو يشرع السوط بعنف شديد :

ـ اخرس أيها الصعلوك ٠ كيف تجرؤ على النطق ؟

وكان الغلام خلاسياوسيما متألق العينين، فى حجم هنريك تماما٠ وكانت خصلات شعره الملتوية تتوج جبهته العالية البـارزة ٠ وكان دم أبيض يجرى فى عروقه ، كما يستدل على ذلك من الحمرة السريعة التى اضطرم بها خداه ، وهذا الوميض البادى فى عينيه حين شرع يقول فى لهفة :

ـ سيدى هنريك ٠

وقاطعه هنريك بضربة سوط على وجهه ، ثمقبض على ذراعهوأرغمه على الركوع ، وراح يضربه حتى تقطعت أنفاسه ، وهو يقول :

ـ أيها الكلب الوقح٠لعلك تتعلم الآن كيف لاترد على حين أكلمك٠ ارجع بالجواد ونظفه كما ينبغى ٠ ولسوف أجعلك تعـــرف مكانك هنا ٠

وهنا قال توم :

ـ يا سيدى الصغير ، أعتقد أنه أراد أن يقول أن الجواد تمرغ فى التراب وهو يأتى به من المربط ٠ فهو جواد قوى الشكيمة ٠ وهذا هو سبب وجود الغبار عليه ٠ فقد أشرفت بنفسى على نظافته ٠

فقال هنريك وهو مستدير عنه ويمضي صاعدا الدرجات ليتحدث الى ايفا وهى واقفة فى ملابس الركوب :

ـ أمسك عليك لسانك حتى يوجه أحد اليك الحديث ٠

ثم قال لها :

ـ اننى آسف يا ابنة عمى العزيزة اذ جعلك ذلك الأحمق تقفين منتظرة ، فلنجلس هنا ، على هذا المقعد ، حتى يعودوا ٠ عجبا ٠ ماذا بك يا ابنة العم ؟ يبدو أنك غير منشرحة الصدر ٠

فقالت ايفا :

ـ كيف يمكن أن تبلغ بك القسوة والشراسة على المسكين دودو هذا الحد ؟

فقال الغلام فى دهشة غير متكلفة :

ـ القسوة والشراسة ؟ ماذا تعنين يا عزيزتى ايفا ؟

فردت عليه ايفا بقولها :

ـ اننى لا أريد منك أن تقول لى « عزيزتى ايفا » وأنت تفعل هذا ٠

ـ يا ابنة عمى العزيزة ٠ انك لا تعرفين دودو ٠ ان هذه هى الطريقة الوحيدة لمعاملته ٠ فانه ممتلىء الجعبة بالأكاذيب والأعذار ٠ والطريقة الوحيدة هى أن نكتمه فورا قبل أن يفتح فمه ـ هكذا يفعل أبى مع الخدم ٠

ـ ولكن العم توم قال ان ما حدث كان رغما عنه ، والعم توم لا يكذب أبدا ٠

فقال هنريك :

ـ انه اذن زنجى عجوز شاذ ٠ فان دودو يكذب فى كل كلمة يقولها ٠

ـ انك ترغمه على الخداع ما دمت تروعه بهذه المعاملة ٠

ـ عجبا يا ايفا • الحق انك معجبة بدودو اعجابا أشعر معه بالغيرة •

ـ ولكنك ضربته دون أن يرتكب ما يستحق عليه الضرب •

ـ قد ينطلى على خداعه بعض الوقت حين يخدعنى فلا أضربه ،ولكن ضربات السوط لا تؤذى دودو فهو غلام قوى ولكنى لن أضربه أمامك إذا كان هذا يضايقك •

ولم تقتنع ايفا بهذا ، ولكنها وجدت أنه لا جدوى من محاولة جعل ابن عمها الوسيم يدرك مشاعرها •

وسرعان ما عاد دودو بالجوادين •

وقال سيده الصغير فى لهجة أكثر رقة وتلطفا :

ـ لقد أحسنت هذه المرة يا دودو • تعال الآن وامسك جواد الآنسة ايفا ريثما أرفعها الى السرج •

وأقبل دودو ووقف بجانب مهر ايفا ، وبدا الاضطراب على وجهه، وكانت عيناه تنمان عن أثر البكاء •

وسرعان ما خمل هنريك ـ الذى كان يعتز ببراعته فى كل ما يتصل بآداب السلوك فى ميدان الشهامة ـ ابنة عمه ايفا الى السرج وجمع أطراف العنان ووضعها بين يديها •

ولكن ايفا مالت الى الناحية الأخرى من الجواد ، حيث وقف دودو وقالت له وهو يسلم لها العنان :

ـ انك ولد طيب يا دودو ـ شكرا لك •

فنظر دودو فى دهشة ـ الى الوجه الصغير اللطيف ، وسرى الدم بسرعة فى وجهه واغرورقت عيناه بالدموع •

وقال سيده فى لهجة السيد الآمر المتغطرس :

ـ هيا يا دودو •

وأمسك دودو بالجواد حتى امتطاه سيده وقال له :

ـ هذه قطعة نقود لك يا دودو لتشترى بها حلوى • هيا اذهب واشتر بعضها !

ومضى هنريك بالجواد فى الممر وراء ايفا ، بينما وقف دودويشيع الاثنين بنظراته • لقد أعطاه أحدهما مالا ، وأعطته الأخرى ما كان أشد حاجة له من المال • الكلمة الطيبة قيلت له بعطف وحنان •وكان دودو قد افترق عن أمه منذ أشهر قليلة ، اذ اشتراه سيده من وكالة عبيد ، ليكون وجهه الوسيم متناسبا مع جمال المهر • وهو يمر الآن بمرحلة الاخضاع والترويض على يدى سيده الصغير •

وكانت عملية الضرب قد حدثت على مرأى من الشقيقين الواقفين فى جانب آخر من الحديقة •

واضطرم وجه أوجستين غضبا ، ولكنه لم يزد على أن قال فى غير مبالاة وبلهجته الساخرة المعتادة :

ـ أعتقد أن هذا ما يمكن أن نسميه بالتربية الجمهورية يا ألفريد •

فقال ألفريد فى استخفاف :

ـ ان هنريك شيطان حين تغلى دماؤه بالغضب •

فعاد أوجستين بشىء من الجفاء :

ـ انك ترى هذا تدريبا عمليا له !

ـ ليس فى وسعى أن أمنعه ، حتى لو أننى لم أره كذلك •وهنريك كالاعصار الصغير الذى لا يهدأ • وقد يئست أنا وأمه من ترويضه منذ أمد بعيد • ولكن دودو على كل حال غلام شديد الجلد والاحتمال لا يؤذيه الجلد مهما كثر •

ـ وهل هذا أيضا أول درس فى المبادىء الاجتماعية عن الجمهورية يتلقاه هنريك وهو « ان جميع الناس ولدوا أحرارا متساوين » •

ـ هراء • ان هذه عبارات توم جيفرسون العاطفية الفارغة التى نقلها عن الفرنسيين • ان من أسخف الأشياء حقا أن تظل هذه العبارات بيننا حتى اليوم •

فقال سانت كلير بلهجة لها معناها :

ــ أظن هذا ٠

فقال ألفريد :

ــ لأننا نستطيع أن نرى بوضوح أن الناس لا يولدون أحرارا ،ولا متساوين ٠ انهم يولدون على غير هذه الحال ٠ وأنا أعتقد شخصيا أن نصف هذه العبارات الجمهورية لغو وهراء ٠ ان الذين لهم حقوق متساوية هم المتعلمون الأذكياء الأغنياء المهذبون لا الهمج الأراذل ٠

فقال أوجستين :
ــ هذا اذا استطعت أن تبعد هذه المبادىء عن هؤلاء الهمج الأراذل ٠
لا تنس أنهم ظفروا بحقوقهم فى فرنسا ٠

ــ طبعا يجب أن نخضعهم ونكبتهم دائما بلا هوادة ، كما يجب أن أفعل أنا ــ

وضرب ألفريد الأرض بقدمه فى قوة كأنما هو يقف فوق شخص ما ٠

فقال أوجستين :

ــ الخطر يكون شديدا عندما يثورون ٠ كما حدث فى سان دومنجو مثلا ٠

فقال ألفريد :

ــ هراء ٠ لسوف نعنى بهذا الأمر فى هذه البلاد ٠ يجب أن نعارض باصرار كل هذا الحديث عن تعليم الطبقات الدنيا الذى يكثر اليوم ٠ ان هذه الطبقات الدنيا يجب ألا تتعلم ٠

ــ لقد فات وقت هذا الرجاء ٠ انهم حتما سيتعلمون ، وليس علينا الآن الا أن نبحث فى كيفية تعليمهم ٠ فأما نظامنا الحالى فيعلمهم الوحشية والهمجية ، ونحن نحطم فيهم كل الروابط الانسانية التى تجعل منهم آدميين ، ونجعل منهم وحوشا ضاربة ٠ ولسوف نجدهم هكذا اذا حدث وانتقلت السلطة الى أيديهم يوما ما ٠

ـ ان السلطة لن تنتقل الى أيديهم أبـدا ٠

ـ نعم ٠ نعم ٠ ولكن اغل الماء ليتكون البخار ـ واحـكم غطـاء الأمان ثم تربع فوقه وانظر بعد ذلك أين يقذف بك ٠

فقال ألفريد :

ـ سوف نرى ٠ اننى لا أخشى الجلوس فوق صمام الأمن ما دامت جوانب المرجل قوية متينة ، وآلاته تعمل باحكام ٠

ـ لقد كان النبلاء فى عهد لويس السادس عشر يظنـون هـذا بالضبط ، وكذلك يظن البابا بيوس التاسع ، والنبـلاء فى النمسا ، فى هذه الأيام ٠ وفى ذات صباح لطيف ربما تتقابلون معا جميعا فى الهواء عندما ينفجر المرجل ٠

فضحك ألفريد وقال :

ـ أهذا ما تراه ؟

ـ أؤكد لك يا أوجستين أنه اذا كان فى أيامنا هذه شيء تتكشف عنه الحوادث بقوة لا تقل عن قوة القوانين الالهية فهو أن الجماهـير سوف ترتفع ، وأن الطبقة الدنيا ستكون هى العليا ٠

ـ هذه احدى سخافات آرائك الجمهورية الثورية يا أوجستين ٠ اننى لا أدرى لماذا لم تحترف الخطابة للجماهير ـ ولو فعلت لكنت خطيبا مفوها ذائع الصيت ٠ واننى لآمل أن أكون فى عداد الموتى قبل أن تصبح لجماهيرك القذرة اليد العليا ٠

فقال أوجستين :

ـ سواء كانت هذه الجماهير قذرة ، أو غير قذرة ، فانها سـوف تحكمك عندما يحين الوقت المناسب ٠ ولسوف يكون رجالها حكاما على النمط الذى جعلتهم عليه ٠ لقد اختار النبلاء الفرنسيون أن يجعلوا أفراد الشعب سفاكين ، فجاءوا حكاما سفاكين كما أرادوا لهم ، وان شعب جزيرة هايتى ـ

ـ كفى يا أوجستين ٠ ألم نسمع ما فيه الكفاية عن هايتى هـذه

المعينة الحقيرة . ان سكان هذه الجزيرة لم يكونوا من الانجلو ساكسونى فلو أنهم كذلك ، لما حدث ما حدث ، ان الانجلو ساكسون هم الشعب الحاكم للعالم ، ولابد أن يبقوا حكامه على الدوام .

فقال أوجستين :

ــ ان هناك قدرا كبيرا من دماء البيض الانجلو سكسون فى عروق العبيد فى هذه الأيام . أن بينهم الكثير ممن ليس فيهم من دماء الافريقيين الا القدر الذى يبعث الحرارة والحماسة الاستوائيتين فى صلابتنا وبعد نظرنا المتعمدين وعندمايحين الوقت المناسبفسيقودهم الى النصر ذلك الدم الأنجلو ساكسونى . وان الأبناءالملونينالمنحدرين من آباء بيض ــ بكل ما يجرى فى عروقهم من أنفة وكبرياء لن يظلوا دائما يباعون ويشترون ويتجر فيهم بل سيثورون ويثور معهم جنس أمهاتهم .

ــ هراء ولغو فارغ !

من الأمثال القديمة مثلا قديما فى هذا المعنى « سيحدث ما حدث فى أيام نوح ، فقد ظل الناس يأكلون ويشربون ويزرعون ويبنون ولم يعرفوا الحقيقة حتى جاء الطوفان وأغرقهم . »

فضحك ألفريد وقال :

ــ وجملة القول يا أوجستين أنى أظن أن مواهبك تصلح لأن تجعلك متسابقا فى حلبة ولكن لا تخش علينا من شىء . فان تسعة أعشار السلطة فى أيدينا والقوة معنا . وهذا الجنس المهين تحت أقدامنا الآن .

ثم ضرب ألفريد الأرض بقدمه وأردف قائلا :

ــ وسيبقى هكذا دائما . وان لدينا من القوة ما يكفى لاخضاعه وكبح جماحه .

ــ ان الأبناء الذين يشبون على نمط ابنك هنريك سيكونون حراسا رائعين لمخازن ذخيرتكم . ألست تراهم هادئين متحكمين فى

أعصابهم والمثل يقول « ان الذين يعجزون عن حكم أنفسهم لا يستطيعون حكم غيرهم » .

وهنا قال ألفريد وهو يفكر :

ـ هذه مشكلة حقا . ولا شك أن نظامنا الاجتماعى الحالى يجعل من العسير تنشئة الأبناء فى ظله كما ينبغى أن ينشأوا ! ذلك انه يتيح المجال الواسع لثورة العواطف وانفعالات الغضب معه . وان حرارة الجو لتضاعف من سوء تلك الحال ــ وان حـــال هنريك لتسبب لى المتاعب فهو كريم وعطوف حقا ، ولكنه بركان ثائر اذا أثير وأعتقـد أنى لا بد لى أن أرسله ليتلقى تعليمه فى ولايات الشمال حيث الطاعة أكثر انتشارا ، وحيث يستطيع الاختلاط بأنداده ، أكثر من اختلاطه بالأتباع والخدم .

فقال أوجستين :

ـ ما دامت تنشئة الأطفال هى المهمة الأساسية للجنس البشرى ، فانى أرى على هذا الاعتبار أن نظامكم الاجتماعى لا يسير هناك السير المرغوب فيه .

فرد عليه ألفريد قائلا :

ـ انه مفيد فى حالات ، وغير مفيد فى حالات أخرى . انه يغرس فى الأبناء صفات الرجولة والشجاعة ، وان رذائل الجنس المهـــين الكفيلة هى نفسها بتقوية الفضائل المضادة لها فى الجنس الآخر ــ فأنا أعتقد مثلا ، أن لهنريك الآن احساسا عميقا بجمال الصدق لأنه يرى أن الكذب والخداع هما الصفتان المميزتان للعبيد .

فقال أوجستين :

ـ تلك هى النظرة المستحبة الى الموضوع بلا ريب .

فأجابه ألفريد بقوله :

ـ انها حقيقة واقعة سواء أكانت هى النظرة المستحبة أم لم تكن وان ما فيها من المبادىء المسيحية لتعدل ما فى الكثرة العـــالية من

الأشياء الأخرى فى هذا العالم •

فقال سانت كلير :

ـ ربما يكون الأمر كما تقول •

ـ لا جدوى من الحديث فى هذا يا أوجستين ـ وانى أعتقد أننا سنمضى فى هذا الحديث القديم خمسمائة مرة أو نحوها • فما رأيك فى أن نلعب الطاولة ؟

وانطلق الشقيقان عدوا على سلم الشرفة ، ، وسرعان ما جلسا الى منضدة من الخيزران الخفيف ، ثم جعلا الطاولة أمامها ، وبينما هما يرتبان الحجارة ، قال ألفريد :

ـ اسمع يا أوجستين ، لو كان لى مثل آرائك ، لفعلت شيئا •

ـ أعتقد أنك كنت تفعل • فأنت من الطراز الذى لا يكتفى بالتفكير ولكن ماذا كنت تفعل ؟

فقال ألفريد وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة :

ـ عجبا ! ارفع من شأن خدمك وأعل قدرهم على سبيل التجربة •

خير لك أن تطالبنى بأن أضع جبل اننا فوقهم مستويا ثم أطلب اليهم أن يقفوا منتصبين تحته من أن تطالبنى برفع شـــأنهم وهم غارقون تحت أعباء هذا النظام الاجتماعى السائد • ان رجلا واحدا لا يستطيع أن يفعل شيئا ضد مجتمع بأكمله • فالتعليم اذا أريد أن يكون له أثر يجب أن تقوم به الدولة ، أو على الأقل ،يجب أن يؤمن به الكثيرون حتى يمكن تطبيقه واشاعته •

فقال ألفريد :

ـ ألق أنت النرد أولا •

وسرعان ما استغرق الشقيقان فى اللعب ، ولم ينتبها الا على وقع حوافر الجياد تحت الشرفة • فقال أوجستين وهو ينهض من مقامه :

ـ لقد جاء الطفلان • اسمع يا آلف • أرأيت فى حياتك أجمل من

منظرهما ؟

والحق أن المنظر كان جميلا • فهنريك ذو الجبهة البارزة المرتفعة ، وخصلات شعره السوداء اللامعة ، والوجنة المتوهجة ، كان يضحك خجلا وهو ينحنى على ابنة عمه الجميلة وهما مقبلان • وكانت ايفا ترتدى ملابس ركوب زرقاء ، وقبعة من نفس اللون ، وقد أضفت الرياضة على وجنتيها حمرة متوهجة زادت من أثر شفافة بشرتها الرائعة ، ومن جمال شعرها الذهبى •

وصاح ألفريد قائلا :

ـ رباه • ما أعظم هذا الجمال الرائع ! ألا ترى يا أوجستين أنها ستلهب النار فى القلوب ذات يوم ؟

ـ انها ستفعل حقا • والله يعلم أنى أخشى هذا اليوم •

قال سانت كلير هذا بصوت امتلأ فجأة بالأسى والألم وهو يسرع الى حمل ايفا من فوق الجواد ويقول لها وهو يضمها بحنان الى صدره :

ـ ايفا يا حبيبتى ! أرجو ألا تكونى متعبة كثيرا •

ـ لا يا أبى •

ولكن أنفاسها القصيرة اللاهثة أزعجت أباها فقال لها :

ـ كيف تركبين بهذه السرعة ؟ ألا تعرفين أن فى هذا ضررا عليك؟

ـ لقد نسيت يا أبى ، اذ كنت أشعر بتمام الصحة وببهجة الركوب •

وحملها سانت كلير بين ذراعيه الى غرفة الاستقبال ووضعها على الأريكة وقال :

ـ يجب عليك يا هنريك أن تعنى كل العناية بايفا • وليس لك أن تسرع وأنت راكب معها •

فقال هنريك وهو يجلس الى جانب الأريكة ويأخذ يدها فى يده :

ـ سأعنى بها ٠

وسرعان ما تحسنت حالة ايفا كثيرا ومضى والدها وعمهما في لعبتهما وتركا الطفلة والصبي معا ٠

وقال لها هنريك :

ـ أتعرفين يا ايفا اني جد آسف لأن أبي لن يقيم هنا الا يومين ، واني لن أراك مرة أخرى مدة طويلة جدا ! واذا بقيت هنا معك فسأحاول أن أكون طيبا ، ولن أقسو على دودو وسأفعل كل ما يرضيك ٠ انني لا أقصد أن أسيء معاملة دودو ، ولكنني حاد الطبع كما تعلمين ، وأنا لست في الحقيقة قاسيا عليه ، فأنا أمنحه بعض النقود بين الحين والآخر ، وأنت ترين أنه حسن الملبس ٠ وأعتقد على الجملة أن حالة دودو لا بأس بها ٠

ـ وهل تظن أنك تكون في حالة لا بأس بها اذا لم يكن في هذه الدنيا كلها مخلوق واحد يحبك بالقرب منك ؟

ـ أنا ٠ لا بطبيعة الحال ٠

ـ ومع ذلك فقد انتزعت دودو من جميع من كان له من الأحباب، وليس له الآن مخلوق واحد يحبه ٠ ولا يمكن أن يكون انسان في حالة طيبة اذا كان هذا شأنه ٠

ـ هذا كما أعرف شيء خارج عن ارادتي ٠ فأنا لا أستطيع أن آتي له بأمه ، ولا أستطيع أنا نفسي أن أحبه ، ولا أعرف أحدا يمكن أن يحبه ٠

فقالت ايفا :

ـ ولم لا تستطيع أنت أن تحبه ؟

ـ أحب دودو ؟ عجبا يا ايفا ؟ انك لا تريدين هذا مني حقا ٠ قد يمكن أن أميل اليه كثيرا ، ولكنك لا تحبين خدمك ٠

ـ أنا أحبهم حقا ٠

ـ يا للعجب ٠

ــ ألا يقول الكتاب المقدس ، ان علينا أن نحب جميع الناس ٠

ــ آه الكتاب المقدس ٠ انه يقول أشياء كثيرة من هذا النـــوع ٠ ولكن أحدا مع هذا لا يفكر فى العمل بها كما تعلمين يا ايفا ــ لا أحد يعمل بها ٠

ولم تقل ايفا شيئا ٠ ولكن نظراتها الثابتة نمت عن انشــــغال فكرها بضع لحظات ، وأخيرا قالت :

ــ مهما يكن هذا فانى يابن عمى العزيز أرجو أن تحب المســكين دودو وأن تشفق عليه ، اكراما لى ٠

ــ انى أستطيع أن أحب أى شىء اكراما لك يابنة عمى العزيزة ، لأنى فى الواقع أعتقد أنك ألطف مخلوقة رأتها عيناى ٠

وكان هنريك يتحدث بحماسة صعد معها الدم الى وجهه الوسيم ٠ ولكن ايفا اتقبلت هذا المديح ببساطة تامة دون أن يختلج لهــا عصب فى وجهها ٠ وكل ما قالته هو :

ــ انى ليسرنى أن يكون هذا شعورك يا عزيزى هنريك ٠ وأرجو أن تتذكر هذا ٠

وهنا أنهت صلصلة جرس العشاء هذا الحديث ٠

الفصل الرابع والعشرون

الدلائل

افترق ألفريد وأوجستين بعد يومين من هذا الحديث ، وكانت ايفا قد أنعشتها صحبة ابن عمها فأجهدت نفسها كثيرا فوق ماتطيقه صحتها ، فأخذت تنهار بسرعة ، ورضى سانت كلير أخيرا أن يستشير الطبيب ، وهى خطوة طالما نفر منها ، لأن فيها اعترافا بالحقيقة البغيضة .

ولكن صحة ايفا بلغت من السوء مدة يوم أو يومين حدا جعلها تلزم البيت فاستدعى الطبيب .

ولم تكن مارى سانت كلير قد لاحظت شيئا من الانهيار التدريجى فى صحة الطفلة وقواها ، لأنها كانت مستغرقة أشد استغراق فى دراسة نوعين أو ثلاثة أنواع من الأمراض الجديدة اعتقدت أنها وقعت هى نفسها فريسة لها . ذلك أن أول مبدأ تدين به مارى أنه لا يوجد ، ولا يمكن أن يوجد ، شخص يعانى فى الحياة ماتعانيه هى ، وكانت من ثم تأبى أشد الاباء ، وفى استنكار شديد ، الاعتراف بأن من الممكن أن يكون أحد ممن حولها مريضا . وكانت تؤمن دائما ، فى هذه الحالة ، بأن ما تراه ليس الا كسلا أو نقصا فى النشاط ، وأنهم لو عانوا مثلما تعانيه لعرفوا الفارق فورا .

وقد حاولت أوفيليا عدة مرات أن توقظ مخاوف الأمومة فى نفسها على ايفا ، ولكنها عبثا حاولت . ذلك أن مارى كانت تقول فى هذا الصدد :

– اننى لا أرى شيئا يؤود الطفلة . فهى تجرى وتلعب .

– ولكنها تسعل .

ـ تسعل • لا حاجة بك لأن تخبريني بشيء عن السعال • فقد كنت طيلة حياتي معرضة له دائما • وقد ظن أهلي ، وأنا في عمر ايفا ، أني مريضة بالسل • وقد تعودت مامي أن تسهر بجانبي الليلة بعد الليلة • وليس سعال ايفا بالشيء الذي يستحق الذكر •

ـ ولكنها تزداد ضعفا وأنفاسها بدأت تقصر •

ـ يا الهي • ظللت على هذه الحال سنوات طوالا • وليس هذا الا اضطرابا عصبيا •

ـ وهي تتصبب عرقا ـ في الليل •

ـ وهذا شأني في السنوات العشر الاخيرة • وكثيرا كانت ملابسي ، الليلة بعد الليلة ، تكاد تعصر ولم يكن في ملابس نومي خيط واحد جاف • وكان العرق يبلل ملاءات الفراش حتى كانت مامي تضطر الى نشرها لتجف • أما ايفا فلا تعرق مثل هذا العرق أو ما يقرب منه •

ولزمت أوفيليا الصمت ردحا من الوقت • أما وقد أصبحت ايفا طريحة الفراش ولا تخفى حالها على أحد وقد استدعى لها الطبيب ، فان ماري لم تلبث أن اتخذت موقفا آخر •

وراحت تقول •• انها كانت تعرف هذا ، وكانت دائما تشعر أنه مقدر عليها أن تكون أتعس الأمهات ، فها هي ذي لم يكفها أن تكون صحتها منهارة بل انها ترى ابنتها الوحيدة الحبيبة تقترب من القبر أمام عينيها •

وأخذت تشقي ليالي مامي بالسهر عليها ، وتقضي النهار في الشكوى والضجيج ، والتعنيف في نشاط متزايد بسبب هذه المحنة الجديدة •

وكان سانت كلير يقول لها :

ـ يا عزيزتي ماري ، لا تتحدثي هذا الحديث ، وينبغي ألا تعتبري الحالة ميئوسا منها الى هذا الحد وبهذه السرعة •

ـ انك لا تعرف مشاعر الأمومة ياسانت كلير • وأنت لاتستطيع أبدا أن تفهمني • وأنت لاتفهمني الآن •

– ولكن لا تتحدثى هذا الحديث • كأن الحالة لا رجاء فيها •

– اننى لا أستطيع أن أنظر الى الأمر بلا مبالاة كما تفعل أنت • فاذا كنت لا تحس بحال ابنتك الوحيدة حين تراها فى هذه الحالة الخطيرة ، فأنا أحس بها • انها ضربة أشد من أن أستطيع احتمالها مع كل ما احتملته من قبل •

فقال سانت كلير :

– ان ايفا حقا طفلة رقيقة الجسم جدا • وهذا ما كنت أعرفه دائما ، كما أعرف أنها قد نمت بسرعة أوهنت صحتها ، وانها تمر بحالة حرجة • ولكنها الآن راقدة بسبب حرارة الجو وبسبب ما عانته من انفعال أثناء زيارة ابن عمها • ويقول الطبيب ان هناك أملا فى شفائها •

– اذا كنت تستطيع – بطبيعة الحال – أن تنظر الى الجانب المشرق من الأمور فأرجو أن تنظر اليه ، وان من دواعى الرحمة ألا يكون الانسان مرهف الاحساس فى هذا العالم • وأنا بلا شك أتمنى ألا يكون لى هذا الشعور المرهف فهو يجعلنى شقية بائسة الى أقصى حد • ولشد ما أتمنى أن أنظر الى الأمور ببساطة كما تفعلون جميعا •

وكان لهؤلاء « الجميع » العذر فى أن يتمنوا هذا أيضا • ذلك بأن مارى اتخذت من محنتها الجديدة هذه سببا وذريعة فى انزال كل أنواع البلايا بجميع من حولها • فلم تكن أية كلمة ينطق بها أى شخص ، وأى عمل يتم أو لا يتم فى أى مكان ، الا دليلا جديدا على أن جميع من حولها أناس غلاظ القلوب ، عديمو الشعور ، لا يحفلون بآلامها الخاصة • وسمعت ايفا المسكينة بعض أحاديثها هذه ، وكادت أن تفقد نور عينيها من فرط البكاء شفقة بأمها وأسفا لأنها السبب فى كل ما حل بها من المصائب •

وظهر على الفتاة بعد أسبوع أو أسبوعين تحسن كبير فى أعراض الداء ، وهى احدى هذه الفترات الهادئة الخادعة التى تسبق العاصفة ، والتى يغرر بها ذلك المرض الخبيث عادة بالقلوب الملهوفة، حتى لو كان المريض على حافة القبر • وعادت الحديقة تشهد خطوات

ايفا ، وكذلك الشرفات . وعادت هى الى اللعب والضحك . وأعلن والدها – فى ساعة من ساعات نشوته – أنهم سينعمون بايفا بعد قليل وهى فى أتم صحة وعافية كأى شخص آخر . ولكن أوفيليا والطبيب وحدهما ، هما اللذان لم ينخدعا بهذه الهدنة المراوغة . وكان ثمة قلب آخر ، يشعر بنفس اليقين ، ذلك هو قلب ايفا الصغير . ترى ما هذا الشيء الذى يهتف أحيانا الى الروح فى سكون ووضوح بأن أيامها على الأرض قد قلت . أهو الغريزة الخفية الكامنة فى الطبيعة المنهارة ، أم هو نبضة الروح الشاعرة بزحف الخلود عليها . وأيا كان هذا الشيء ، فقد ملأ قلب ايفا بنبوءة حلوة هادئة أكيدة بأن الجنة تناديها وغدت قريبة منها . انها هادئة هدوء ضوء غروب الشمس ، حلوة كسكون الخريف المشرق . على هذا النحو استراح قلبها ، لا يؤوده غير الحزن على أولئك الذين تحبهم أشد الحب .

ذلك بأن الطفلة رغم العناية الشديدة بتمريضها ، ورغم الحياة التى كانت تتفتح أمامها بكل ما يمكن للحب والمال أن يحققاه من متعة ، لم تكن تشعر بأى أسى على نفسها لأنها ستموت .

فى ذلك الكتاب الذى كانت تقرأ فيه كثيرا مع صديقها الكهل الساذج ، رأت واستوعبت فى أعماق قلبها الصغير صورة من يحب الأطفال الصغار ، وكانت كلما زادت نظراتها وتأملاتها لم يعد من تراه صورة منحدرة من الماضى السحيق بل حقيقة حية محيطة بها . لقد أفعم حبه قلبها الصغير بما هو أكثر من الحنان البشرى وكانت تقول ، انها ذاهبة اليه هو والى ملكوته .

ولكن قلبها كان يحن فى اشفاق حزين الى كل الذين ستتركهم وراءها – ولا سيما والدها – ذلك أن ايفا كانت تدرك بغريزتها وان لم تفكر فى هذا تفكيرا واضحا أنها أحب شيء الى قلب أبيها . لقد كانت تحب أمها لأنها ، أى ايفا ، مخلوقة لا تعرف غير الحب ، وكانت كل ألوان الأنانية التى طالما رأتها فى طبيعة أمها تحزنها وتربكها . ولكنها لا تترك فى نفسها أثرا غير هذا ، ذلك أنها كانت تثق فى أعماق نفسها البريئة ثقة عمياء بأن أمها لا يمكن

أن ترتكب خطأ • وكان ثمة شيء في سلوك أمها لم تكن تدركه أبدا، ومن ثم كانت تلطفه دائما بالتفكير في أن هـذه على كل حال ، أمها ، وأنها تحبها أشد الحب حقا •

وقد حزنت أيضا من أجل خدمها الأوفياء الذين يحبونها والذين كان لها هي في عيونهم اشراق الشمس وضوء النهار • والأطفـال عادة لا يستخرجون القواعد العامة من الأمثلة المعتادة ، ولكن ايفـا كانت طفلة ناضجة نضجا غير عادى • ولكن المسـاوىء التى طالما رأتها من رذائل النظام الذى يخضع له هؤلاء الخدم والعبيد ،كانت تترسب ، الواحدة بعد الأخرى ، فى أعماق قلبها الواعى المتأمل • كانت تحس بشوق غامض لأن تفعـل من أجلهم شيئا ــ لترعاهم وتنقذهم ، هم وجميع من يعانون مثل ظروفهم ، وهى أشواق كانت تتعارض للأسف مع ضعف جسمها الرقيق •

وقالت ذات يوم للعم توم وهى تقرأ له فى الكتاب المقدس :

ــ ياعمى توم • اننى الآن أفهم لمـاذا أراد المسيح أن يموت من أجلنا •

ــ لماذا يا ايفا ؟

ــ لأنى أشعر بهذه الرغبة نفسها أيضا •

ــ ماذا تعنين يا ايفا ؟ اننى لا أفهم •

ــ اننى لا أعرف على وجه اليقين ، ولكننى حين رأيت هؤلاء العبيد المساكين فى السفينة التى جئت فيها أنا وأنت ، كما تعرف ، وكان بعضهم قد افترقوا عن أمهـاتهم ، وبعض الزوجـات افترقن عن أزواجهن ، وبعض الأمهات يبكين أطفالهن الصغار ــ وعندما سمعت عن برو المسكينة • أواه ! أليس هذا أمرا مروعا ! عندما مر بى هذا وغيره فى أوقات أخرى كثيرة جدا ، أحسست بأنه يسرنى أن أموت، اذا أمكن أن يضع موتى حدا لهذه المآسى • اننى مستعدة لأن أموت من أجلهم ، ان كان هذا ياتوم فى مقدورى •

وكانت الطفلة شديدة الحماسـة فى حديثها وهى تضـع يدها

الصغيرة النحيلة على يده ٠

ونظر توم الى الطفلة فى روع ورهبة ، وعندما سمعت صـــوت أبيها وانسابت منصرفة بسرعة ، مسح توم عينيه مرات عديدة وهو يشيعها بنظراته ٠

وقال لمامى بعد أن التقى بها بعد ذلك بلحظات :

ــ لا داعى لمحاولة ابقاء ايفـــا هنا ، فان خاتم الله مطبـــوع على جبينها ٠

فقالت مامى وهى ترفع يديها الى أعلى :

ــ آه ٠ نعم ٠ نعم ٠ لقد كنت أقول هـــذا دائما ٠ فهى لم تكن بالطفلة التى يمكن أن تعيش ٠ فقد كان هناك شىء عميق دائمـا فى عينيها ٠ وكثيرا ما قلت هذا لسيدتى ٠ وسيحدث ما نخشاه ٠ فاننا جميعا نراه ــ يا للحمل المبارك الصغير العزيز !!

وراحت ايفا تهبط متواثبة على درجات الشرفة الى أبيها ٠ وكان الوقت فى ساعة متأخرة بعد ظهر اليوم ، وكانت أشـــعة الشمس تنسج وراءها هالة من البهاء وهى تتقدم بثوبها الأبيض ، وشعرها الذهبى ، ووجنتيها المتوهجتين ، وعينيها المتألقتين تألقا غير عــادى بسبب الحمى البطيئة المستعرة فى عروقها ٠

وكان سانت كلير قد استدعاها لتشاهد تمثالا صـــغيرا اشتراه لها ٠ ولكن منظرها وهى تقترب منه ترك فى نفســـه أعمق الأثر وأشده ألما ٠ ان فى العالم نوعا من الجمال قويا عارما ولكنه هش رقيق الى حد لا تقوى معه على النظر اليه ٠

وطواها الوالد بين ذراعيه فجأة ، وكاد أن ينسى ما أراد أن يقول لها ٠ ثم قال :

ــ ايفا ! انك أحسن حالا الآن ٠ أليس كذلك ؟

فقالت له فى ثبات مفاجىء :

ــ أبى ٠ ان لدى أشياء طالما أردت أن أحدثك بها ، منذ أمد بعيد،

وأنا أريد أن أقولها الآن ، قبل أن أزداد ضعفا ·

وارتعد سانت كلير حين جلست ايفا فى حجره ، ثم وضعت هى رأسها على صدره وقالت :

ــ لم يعد ثمة جدوى يا أبى فى ابقاء هذا الأمر مكتوما فى صدرى· ذلك أن الوقت الذى سأفارقكم فيه آت عما قريب ·

ثم أردفت تقول وهى تبكى :

ــ انى ذاهبة · ولن أعود ·

فقال سانت كلير وهو يرتعد ، ولكنه حاول أن يجعل المرح يتمشى فى صوته :

ــ لا لا ياعزيزتى ايفا · لقد أصبحت مضطربة الأعصاب منقبضة النفس · لا ينبغى أن تستغرقى فى هذه الأفكار السوداء · انظرى ، لقد اشتريت لك تمثالا صغيرا ·

فقالت ايفا وهى تضع التمثال جانبا فى رفق

ــ لا يا أبى · لا تخدع نفسك · فأنا لست أحسن حالا من ذى قبل وأنا أعرف هذا عن يقين · ولسوف أذهب بعد زمن قصير ·وأنا لست مضطربة الأعصاب أو منقبضة النفس ، ولولاك أنت يا أبى وأحبابى ، لكنت بذهابى جد سعيدة · فانى أريد أن أذهب · بل أتحرق شوقا للذهاب ·

ــ لماذا يابنيتى العزيزة ؟ ما لذى يملأ قلبك الصغير بكل هذه الأحزان ؟ اننا نوفر لك كل ما يجعلك سعيدة ·.

ــ اننى أفضل الذهاب الى السماء · ولا أرغب فى الحياة الا من أجل أصدقائى وأحبابى · فان هناك أشياء كثيرة جدا تحزننى ، وتبدو فى نظرى فظيعة · ولهذا أفضل أن أكون فى السماء ، ولكننى لا أحب الافتراق عنكم · فان هذا الفراق يكاد أن يحطم قلبى ·

ــ وما هذا الذى يحزنك ، ويبدو فى نظرك فظيعا يا ايفا ؟

ــ هذه الأمور التى تجرى ، وتجرى فى كل حين · انى أشعر بالحزن من أجل خدمنا المساكين · انهم يحبوننى أشد الحب · وهم يعطفون على ويحسنون الى ، وانى أتمنى يا أبى أن لو كانوا ·· أحرارا ·

ــ عجبا يا بنيتى ايفا · ألا ترين أنهم فى أحسن حال الآن ؟

ــ آه ولكن اذا حدث لك شىء يا أبى ، فماذا تكون حالهم ، ان أمثالك يا أبى قليلون جدا ــ فعمى ألفريد ليس مثلك · وكذلك أمى · ثم تذكر سادة برو المسكينة ·

وارتعدت ايفا وهى تردف قائلة :

ــ ألا ما أفظع ما يرتكبه الناس ، وما يستطيعون ارتكابه ·

ــ انك ياطفلتى العزيزة مرهفة الاحساس فوق ما يجب ، وانى لآسف اذ تركتك تسمعين مثل هذه القصص ·

ــ هذا مايقض مضجعى يا أبى · انك تريد منى أن أعيش سعيدة فوق ما يجب ، فلا أشعر أبدا بألم ، أو أعانى أبدا من شىء ما ، بل ولا أسمع أبدا قصة محزنة فى حين أن غيرى من الناس المساكين لا يرون فى حياتهم الا الآلام والأحزان · ويبدو أن حياتهم كلها مفعمة بالأنانية · ولابد لى أن أعرف هذه الأشياء ، وأن أشاركهم الاحساس بها · ولقد كانت هذه الأشياء تصل دائما الى أعماق قلبى · ولقد فكرت ، وأكثرت التفكير فيها يا أبى ، ألا توجد طريقة لجعل العبيد كلهم أحرارا ؟

ــ انه سؤال عسير ياعزيزتى المحبوبة · وليس ثمة شك فى أن هذه حالة سيئة ، وأن الكثيرين من الناس يرون هذا أيضا ·· وأنا نفسى أرى هذا · وأتمنى من صميم قلبى لو لم يكن فى البلاد عبد واحد · ولكن مع هذا لا أعرف ماذا ينبغى أن أفعل فى هذا الشأن ·

ــ انك يا أبى انسان كريم جدا ، ونبيل ، وعطوف ، وتمتاز بطريقة فى الحديث تجعله لطيفا ممتعا · أفلا تستطيع من ثم أن

تجوب المدن وتحاول اقناع الناس بما يجب أن يتخذ فى هذا الشأن ؟ عندما أموت يا أبى ، أرجو أن تذكرنى ، وأن تفعل هذا من أجلى • فما كنت لأتردد فى القيام بهذا العمل لو استطعت •

فقال سانت كلير فى انفعال عاطفى حار :

— عندما تموتين يا ايفا • لا تتحدثى الى هكذا يا ابنتى • فأنت كل شىء لى فى هذه الدنيا •

— لقد كان طفل برو المسكينة كل م نها فى الحياة • ومع هـذا فقد كان لابد لها أن تسمعه يبكى وينتحب دون أن تستطيع أن تفعل شيئا • وان هؤلاء الناس المساكين يا أبى ليحبون أبناءهم كما تحبنى أنت • وانى •• لأرجوك أن تفعل شيئا لهم • فها هنا مامى المسكينة المحبة لأبنائها • لقد رأيتها تبكى وهى تتحدث عنهم • وتوم يحب أبناءه • وانه لأمر فظيع جدا أن تحدث هذه الأمور طيلة هذا الزمن •

فقال سانت كلير مهدئا :

— كفى • كفى ياحبيبتى • أرجوك ألا تملئى قلبك بالأحـزان • أمسكى عن حديث الموت وأنا أفعل كل ما ترغبين فيه •

— وعدنى يا أبى العزيز أن ينال توم حريته بمجرد أن •••

ثم توقفت وقالت فى صوت متردد :

— أن أذهب •

— نعم ياعزيزتى • سوف أقوم بأى شىء فى هذا العالم — أى شىء تريدينه •

فقالت الطفلة وهى تريح خدها الملتهب على خده :

— يا أبى العزيز • لشد ما أتمنى لو أننا ذهبنا معا !

— الى أين يا أعز حبيب ؟

— الى ملكوت السماء • فما أروع وألطف الحياة هناك • وما أكثر المحبة هناك ••

وكانت الطفلة تتحدث — بلا وعى — كأنما تصف مكانا سبق أن كانت فيه :

— ألا تريد أن تذهب معى يا أبى ؟

وزاد سانت كلير فى ضمها الى صدره ، دون أن يقول شيئا ٠

وعادت الطفلة تقول بتلك اللهجة الهادئة المفعمة باليقين التى طالما كانت تتحدث به وهى لا تدرى :

— سوف تأتى الى !

— سوف آتى بعدك ٠ ولن أنساك أبدا ٠

وازدادت ظلال المساء الحزين سوادا حولهما ، بينما ظل سانت كلير جالسا فى صمت يضم جسم طفلته الرقيقة النحيلة اليه ٠ ولم يعد يرى عينيها العميقتين ، ولكن صوتها كان ينساب اليه كهمسات الروح ، وخيل اليه أنه يرى فى صورة يوم الحساب ،كل ماضيه يرتسم أمامه ٠ دعوات أمه وترانيمها وحنينه الأول وشوقه الى عمل الخير ٠ وبين ذلك الماضى ، وهذه الساعة من الحاضر سنون مليئة بأمور هذه الدنيا وبالتشكك وما يسميه الانسان حياة محترمة ٠ وان فى مقدورنا أن نفكر كثيرا ، كثيرا جدا ، فى لحظةقصيرة من الزمان ٠ ولقد أبصر سانت كلير أشياء كثيرة وأحس بها ولكنه لم يقل شيئا ، وأخيرا ، عندما تكاثفت الظلمة ، آوت الطفلة الى مخدعها ، ولما تأهبت للنوم ، صرف الخدم ، وراح يهدهدها بين ذراعيه ، ويناغيها ويغنى لها حتى نامت ٠

الفصل الخامس والعشرون

المبشرة الصغيرة

كان الوقت أصيل يوم أحد . وكان سانت كلير مسترخيا على مقعد مستطيل مريح من الخيزران فى الشرفة يهدىء من أعصابه بتدخين لفافة كبيرة . وجلست مارى متكئة على أريكة مقابلة للنافذة المطلة على الشرفة ، محتمية من هجمات البعوض بستار شفاف من الحرير . وكانت تمسك فى وهن كتاب صلوات أنيق الغلاف ، كانت تمسكه لأن اليوم كان من أيام الآحاد ، وكانت تتوهم أنها تقرأ فيه ، رغم أنها كانت فى الحقيقة تروح فى فترات قصيرة من النوم ، والكتاب مفتوح فى يدها .

واستطاعت أوفيليا ، بعد شىء من البحث والتنقيب ، أن تعثر على اجتماع للمثديين على مسافة غير بعيدة ، وذهبت اليه فى مركبة يقودها توم ، وصحبتها ايفا الى هذا الاجتماع .

وقالت مارى بعد أن أغفت قليلا :

ـ من رأيى يا أوجستين أنه يجب أن أستدعى من المدينة طبيبى العجوز الدكتور بوزى . فأنا واثقة من أنى مريضة بالقلب .

ـ ولكن لماذا تستدعينه ؟ ان الطبيب الذى يعالج ايفا يبدو بارعا .

فردت عليه مارى قائلة

ـ اننى لا أستطيع الاعتماد عليه فى الحالات الخطرة ، وأظن أن فى مقدورى أن أقول ان حالتى توشك أن تكون كذلك . لقد خطر هذا ببالى فى الليلتين الماضيتين أو الثلاث الليالى الماضية اذ أن آلامى تعذبنى ومشاعرى عجيبة .

ـ آه يا ماري ، انك واهمة ، وأنا لا أصدق أنك تعانين من مرض القلب ٠

فأجابت ماري :

ـ نعم ٠ نعم ٠ انك لا تصدق ٠ فقد كنت أتوقع هـذه الاجابة منك ٠ انك تنزعج أشد الانزعاج ذا سعلت ايفا أو أحسست بأي شيء بسيط ، ولكنك لا تفكر في أبدا ٠

فرد عليها سانت كلير بقوله :

ـ اذا كان يرضيك بنوع خاص أن تـكوني مريضـة بالقلب ، فسأحاول أن أوافقك على هذا ٠ لكنني لم أكن أعرف أنك مريضـة بالقلب حقا ٠

فقالت ماري

ـ كل الذي أرجوه ألا تأسف على هذا ، بعد فوات الأوان ٠ولكن سواء صدقتني أو لم تصدقني ، فان أحزاني بسبب ايفا ،والمجهودات التي بذلتها مع هذه الابنة المحبوبة الحبيبة قد أحدثت ما كنت أخشاه منذ أمد بعيد ٠

أما ما هي هذه المجهودات التي أشـارت اليهـا ماري ، فان من الصعب تحديدها ، هكذا قال سانت كلير في نفسه وظل يواصـل التدخين كأي رجل قاسي القلب مثله ! حتى وصلت مركبـة أمـام الشرفة ، وهبطت منها ايفا وأوفيليا ٠ وقصدت أوفيليا الى غرفتهـا فورا لتخلع قبعتها ومطرفها ، كما هو شأنها دائما ، قبل أن تقول أية كلمة في أي موضوع ٠ هذا بينما أقبلت ايفا ، على نداء سانت كلير وجلست على ركبته ، وراحت تقص عليه أنبـاء عن الصلوات التي سمعتها هي وأوفيليا ٠

وسرعان ما سمعوا ضجة عاليـة في غرفة أوفيليا ـ التي كانت تفضي ـ كالغرفة الجالسين فيها ، الى الشرفة ٠ وكان في تلك الضجة تعنيف شديد موجه الى شخص ما ٠

وسأل سانت كلير قائلا :

ــ ترى أى « شر » جديد قامت به توبسى ٠ فأنا لا أشك فى أن هذا الضجيج كله من صنعها ٠

وبعد لحظة من هذا ، أقبلت أوفيليـــا فى حالة انفعال شـــديد تجر معها المذنبة وهى تقول لها :

ــ تعالى هنا الآن ٠ وأخبرى سيدك بالأمر ٠

فسألها أوجستين :

ــ ماذا حدث الآن ؟

ــ الذى حدث هو أننى لم أعد أطيق احتمال شرور هـــذه الطفلة بعد الآن ٠ فقد ضقت بها ذرعا ، وان الدم واللحم لم يعودا قادرين على احتمالها ٠ فأنا قد أغلقت عليهـــا باب الغرفة وأعطيتهـــا كتاب تراتيل لتدرسه ٠ فماذا تراها فعلت ؟ لقد تجسست الموضع الذى أخفيت فيه المفتاح ، ومضت الى صيوان الملابس وأخذت نقاب قبعتى المزركشة ومزقته وصنعت منه ثوبا لعروستها ٠ اننى طول حياتى لم أر شيئا مثل هذا ٠

وهنا قالت مارى :

ــ لقد قلت لك يا ابنة العم ان هـــؤلاء المخلوقات لا يمكن تربيتهم بدون قسوة ٠

ثم أردفت قائلة وهى تنظر فى عتاب ولوم الى سانت كلير :

ــ ولو كان الأمر بيدى الآن ، لأخرجت هـــــذه الصبية وأمرت بجلدها جلدا شديدا ، حتى لا تقوى على الوقوف ٠

فقال سانت كلير :

ــ لا أشك فى هذا ٠ حدثينى عن حكم المرأة الجميـــــل ! اننى لم أر فى حياتى أكثر من عشر نساء لا يترددن فى الفضـــــاء على جواد أو

خادم اذا أتيحت لكل منهن الفرصـــة ـ فما بالك بما يصنعنه مـع الرجال ؟

فقالت ماري :

ـ لا جدوى من تناولك الأمور بهذا الاستخفاف يا سانت كلير. فان ابنة العم امرأة عاقلة متزنة ، وقد رأت الحقيقة الآن واضحة كما أراها أنا .

وكانت لأوفيليا هـــذه القدرة على الغضب التى تتميز بهـا ربة البيت الدقيقة الحازمة ، وقد بلغت هذه القدرة ذروتهـا بسبب مكر الطفلة ودهاء توبسى وفسادها . وفى الواقع أن كثـيرات من اللاتى يقرأن هذه القصة لا يسعهن الا أن يعترفن بأنهن سيشعرن حتمـا بهذا الشعور نفسه لو أنهن واجهن مثل هـذه الظروف . ولـكن كلمات مارى تجاوزت الحد ، فلم تتجاوب مع مشاعرها ومن ثم قالت:

ـ اننى لا أقبل أن تعامل الطفلة بالقسوة والجلد مهما يكن السبب. ولكنى مع هذا لا أدرى يا أوجستين ، على وجه اليقين ، ماذا أفعـل معها . لقد علمتها كثيرا ونصحت لها حتى كل صوتى ، وجلدتها ، وعاقبتها بكل وسيلة خطرت ببالى ، ومع هـذا فانها لم تزل كمـا كانت من قبل .

فقال سانت كلير بعد أن استدعى اليه الطفلة :

ـ تعالى هنا ياتوبسى ، أيتها القردة .

واقتربت توبسى وقد التمعت فى عينيهـا المستديرتين البراقتين نظرات هى مزيج من الخوف والمجون الغريب .

وعاد سانت كلير يقول وقد سر رغما عنـه مما ارتسم على وجـه الطفلة :

ـ لم تسلكين هذا المسلك ؟

فقالت توبسى فى احتشام مصطنع :

ـ أعتقد أنه قلبى الشرير . وهكذا تقول مس فيلى .

ـ ألا ترين كم بذلت مس أوفيليا في سبيلك ؟ ألم تسمعي قولها ؟ انها فعلت من أجلك كل ما يمكن أن يخطر لها ببال ؟

ـ يا الهي . نعم ياسيدي . لقد كانت سيدتي السابقة تقول هذا أيضا . وكانت مع ذلك تجلدني بقسوة أشد ، وتشد شعري ، وتدق رأسي في الباب ، ولكن هـــذا كله لم يثمر معي ! وأعتقـد أنهم لو انتزعوا كل شعرة من رأسي ، لما أجدى هذا معي أيضا . فما أشـد خبثي ! يا الهي ـ ما أنا الا زنجية بلا أدنى شك .

وقالت أوفيليا :

ـ أرأيت ! لسوف أنفض يدي منها . فأنا لا أستطيع احتمال هذه البلوى أكثر من هذا .

فقال سانت كلير :

ـ لدي سؤال واحد أريد أن ألقيه عليك .

ـ وما هو ؟

ـ عجبا ! اذا لم يكن لديك مايكفي من القوة لهداية طفلة ضالة واحدة مقيمة معك في بيت واحد ، وخاضعة لأمرك ، فما جدوى ارســـال مبشر أو اثنين بهذا الانجيل لهداية آلاف من أمثالها ! وأنا أعتقد أن هذه الطفلة أنموذج صادق لآلاف من أصحابك الوثنيين هؤلاء !

ولم تجب أوفيليا عن هذا السؤال فورا . أما ايفـــا التي كانت واقفة تشاهد ـ وهي صامتة ـ مايجري أمامها ، فقد أشارت خفية الى توبسي لكي تتبعها . وكان في ركن الشرفة غرفة زجاجية صغيرة اعتاد سانت كلير أن يتخذ منها غرفة للقراءة . وفي هـــذه الغرفة اختفت ايفا وتوبسي .

وقال سانت كلير :

ـ ترى ماذا ستفعل ايفا الآن ؟ سأرى ذلك بنفسي .

ثم تقدم على أطراف أصابعه ، وأزاح الســـتار المسدل على باب

لغرفة الزجاجى ، واختلس النظر • وبعد لحظة وضع اصبعه على فمه وأومأ لأوفيليا أن تقترب وتنظر ما يجرى • وهناك ـ فى داخل الغرفة ـ كانت الطفلتان جالستين على الأرض ، وجانبا وجهيهما نحوهما : توبسى بهيئتها المعتادة من المجون والاستخفاف وعدم الاهتمام ، وايفا ، قبالتها ، بكل مظاهر اللهفة والحماسة على وجهها والدموع فى عينيها الكبيرتين وهى تقول :

ـ ما الذى يجعلك شريرة الى هذا الحد ياتوبسى ؟ لماذا لا تحاولين أن تكونى طيبة ؟ ألا تحبين أحدا ياتوبسى ؟

فقالت توبسى :

ـ أنا لا أعرف شيئا عن « الحب » •• اننى أحب الحلوى ولا شىء غير هذا •

ـ ولكنك تحبين أباك وأمك ؟

ـ لم يكن لى أب أو أم أبدا ، كما تعرفين ، وقد قلت لك هذا من قبل يا مس ايفا •

فقالت ايفا بحزن :

ـ نعم أعرف هذا • ولكن ألم يكن لك أخ أو أخت أو عمة أو •••

ـ لا • لا أحد أبدا •• لم يكن لى أبدا شىء أو أحد •

ـ ولكن لو نك حاولت ياتوبسى أن تكونى طيبة ، فربما •••

فقالت توبسى :

ـ اننى لن أكون شيئا أبدا الا زنجية ، حتى لو كنت طيبة جدا • أما اذا سلخ جلدى الأسود وأصبحت بيضاء ، فربما أحاول عندئذ•

ـ ولكن الناس يمكن أن يحبوك حتى لو كنت سوداء ياتوبسى • أن مس أوفيليا ستحبك اذا أصبحت فتاة طيبة •

وأرسلت توبسى تلك الضحكة القصيرة الساخرة التى تعبر بها دائما عن الريبة • فقالت لها ايفا :

ــ ألا ترين هذا ؟

ــ لا • انها لا تستطيع أن تحبنى لأنى زنجية • انها تفضل أن يلمسها ضفدع على أن ألمسها أنا • انه لا يوجد انسان واحد يحب الزنوج • ولا يستطيع الزنوج أن يفعلوا شيئا • وأنا لست أحفل بشىء •

وهنا بدأت توبسى تصفر بشفتيها •

وقالت ايفا فى فيض مفاجىء من الانفعالات وهى تضع يدها البيضاء النحيلة الصغيرة على كتف توبسى :

ــ أى توبسى • أيتها الطفلة المسكينة • اننى أحبك • أحبك لأنك لم يكن لك أب أو أم أو أصدقاء ــ لأنك كنت على الدوام طفلة مسكينة مهينة • انى أحبك ، وأود أن تكونى طيبة • ان حالتى الصحية سيئة ياتوبسى ، وأظن أننى لن أعش زمنا طويلا وانى ليحزننى حقا أن تكونى خبيثة الى هذا الحد • وأنا أرجو أن تكونى طيبة اكراما لى • فأنا لن أعيش معك غير فترة قصيرة •

واغرورقت عينا الطفلة السوداء المستديرتان النفاذتان بالدموع ــ ثم أخذت القطرات الكبيرة اللامعة تنحدر ثقيلة الواحدة بعد الأخرى ، على اليد البيضاء الصغيرة • نعم • فى تلك اللحظة ، تغلغل شعاع من اليقين الحق ــ شعاع من الحب السماوى ، فى ظلمات تلك الروح الضالة • فوضعت رأسها بين ركبتيها وشرعت تبكى وتنتحب بينما كانت الطفلة الجميلة منحنية فوقها وهى تبدو فى صورة ملاك مشرق ينحنى لهداية مذنب ضال •

وقالت ايفا :

ــ مسكينة ياتوبسى ، ألا تعلمين أن المسيح يحب الناس جميعا على السواء • انه يحبك كما يحبنى تماما ، وهو يحبك كما أحبك أنا ، وأكثر ، لأنه أفضل منى ، وسيساعدك لكى تكونى طيبة ، ويمكنك أن تذهبى أخيرا الى ملكوت السموات ، وتصبحى ملاكا الى الأبد ، كما لو كنت بيضاء • وما عليك الا أن تفكرى فى هذا

ياتوبسى ــ ان فى مقدورك أن تكونى من هذه الأرواح المشرقة التى يترنم بها العم توم ٠

وهنا قالت الطفلة :

ــ آه ٠٠ ياعزيزتى مس أيفا ٠٠ ياعزيزتى مس ايفا ٠ سأحاول ، سأحاول ، وان لم أكن أهتم بذلك أقل اهتمام من قبل ٠

وعندئذ أرخى سانت كلير الستار وقال لأوفيليا :

ــ ان هذا يذكرنى بأمى ٠ لقد صدقت فيما قالته لى من أننا اذا كنا نريد أن نمنح النور للأعمى ، فعلينا أن تتوافر لدينا نية العمل كما كان المسيح يعمل ، ندعوهم الينا ، ونضع أيدينا عليهم ٠

فقالت أوفيليا

ــ لقد كنت دائما أبغض الزنوج ، وأنا أعترف أنى لم أكن أطيق أن تلمسنى هذه الطفلة ، ولكنى لم أكن أظن أنها تعرف هذا ٠

فرد عليها سانت كلير بقوله :

ــ تأكدى أن كل طفلة لابد أن تعرف ما تحاولين اخفاءه عنها ــ ولا سبيل أبدا الى الاستمرار فى خداع الأطفال ٠ ولكنى أعتقد أن جميع المحاولات التى تبذل لاصلاح طفلة ، وجميع ألوان العطف التى تسبغ عليها مهما عظمت ، لا يمكن أن توقظ فى نفسها الشعور بعرفان الجميل مادام هذا الاشمئزاز منهم كامنا فى القلوب ٠ انه نوع من الحقيقة عجيب ، ولكنه هو الحقيقة ولا شك فيه ٠

فقالت أوفيليا :

ــ اننى لا أدرى كيف أغير شعورى ٠ اننى لا أحب الزنوج ــ ولا سيما هذه الطفلة ٠ فكيف يمكن أن أغير شعورى هذا ؟

ــ يبدو أن ايفا تحبهم ٠

فقالت أوفيليا :

ـ نعم • انها رمز الحب • ثم هى ، بعد كل شىء تشبه صــورة مصغرة للمسيح • ليتنى كنت مثلها ، فربما علمتنى درسا •

فقال سانت كلير :

ـ ان حدث هذا ، فلن تكون هذه أول مرة تعلم فيها طفلة صغيرة تلميذة كبيرة •

الفصل السادس والعشرون

المـــوت

لا تبكوا على الذين يحجبهم غطاء القبر
عن أعيننا فى بكور الحياة

كان مخدع ايفا غرفة واسعة الأرجاء تفضى ، كما تفضى جميـــع غرف المنزل ، الى الشرفة العريضة • وكانت الغرفة تتصل فيجانب منها بغرفة نوم أبيها وأمها ، وفى الجانب الآخـــر بالغرفة المخصصة لأوفيليا • وكان سانت كلير قد أرضى ذوقه وعينيه بتأثيث هـــذه الغرفة على طراز يوائم شخصية التى خصصت لهــــا • فالستائر المسدلة على النوافذ من الموصلين الأبيض والوردى والأرض قـــد فرشت بسجاد مصنوع فى باريس طبقا لتصميم وضـــعه بنفسه ، وكانت تدور بها حافة زخارف من أوراق الورد وبراعمه ، وفىوسطها مجموعة من زخارف الورد المتفتح • أما السرير والمقـاعد والمتكئات فهى من الخيزران المصنوع طبقا لأساليب خاصة وعلى طراز بديع• وعلى رأس السرير وضعت قاعدة من المرمر ، عليها تمثال ملاك واقف بجناحين مطويين ، يمسك تاجا من أوراق شجر الآس • ومن هـــذا التاج تنساب حول السرير ستائر من الحرير الشفاف الوردى اللون المطعم بخيوط من الفضة ، وذلك لكى تحمى النائم من البعوض وهى اضافات لا غنى عنها فى أماكن النوم بتلك المناطق المناخية • وكانت المتكئات المريحة المصنوعة من الخيزران مزودة بوســـائد وردية من الدمقس تنسدل فوقها من يدى تماثيل منحوتة ستائر من الحرير الشفاف تشبه ستائر السرير • وفى وسط الغرفة وضعت منضـدة خفيفة رائعة الطراز من الخيزران وبجانبها زهرية مصنوعة علىشكل زنبقة بيضاوية ببراعمها ، وقـــد كانت ملأى على الدوام بالأزهار ،

وعلى المنضدة وضعت كتب ايفا وحليها الصغيرة مع لوحة للكتابة من الرخام الفاخر المصقول كان والدها جاء بها اليها حين رآها تحاول تحسين خطها . وكانت فى الغرفة أيضا مدفأة وضع على رفها الرخامى تمثال جميل صغير للمسيح وهو يستقبل الأطفال الصغار ، وعلى جانبيه زهريتان من المرمر كان توم يزهو دائما ويسر بوضع طاقات الزهر فيهما كل صباح . وكان ثمة لوحتان أو ثلاث تمثل أطفالا في مختلف الأوضاع ، تزين جدران الغرفة . وجملة القول ان العين أينما دارت فى جوانب الغرفة لا تقع الا على منظر للطفولة والجمال ، والسلام . وان عينى ايفا الصغيرتين كانتا لا تتفتحان فى ضوء الصباح الا على شيء يوحى الى القلب بأجمل الأفكار وأكثرها تهدئة .

وكانت مظاهر القوة الخادعة التى أثارت النشاط فى جسم ايفا حينا من الزمن ، قد بدأت تنحسر عنها بسرعة . وغدت خطواتها الرقيقة لا تسمع فى الشرفة الا نادرا ، وراحت تقل عن ذلك رويدا رويدا ، وبدأ جلوسها يكثر حينا بعد حين على المتكأ بالقرب من النافذة المفتوحة وأخذت عيناها الواسعتان النافذتان تتركزان على صفحة المياه الصاعدة الهابطة فى البحيرة .

وفى أصيل يوم بينما كانت مسترخية على مقعد مريح ، وكتابها المقدس نصف مفتوح ، وأصابعها الشفافة موضوعة متراخية بين صفحاته . اذ سمعت فجأة صوت أمها فى الشرفة وهى تتحدث بلهجة حادة :

ـ ما هذا أيتها اللعينة ؟ أى شر جديد ترتكبين ؟ أكنت تنتزعين الزهور ؟

ثم سمعت ايفا رنين صفعة حادة ، ثم صوتا ، عرفت أنه صوت توبسى وهى تقول :

ـ ويحى ياسيدتى . اننى أقطفها لمس ايفا .

ـ لمس ايفا ؟ ما أجمل هذا من عذر ؟! أتعتقدين أنها تقبل زهورك أيتها الزنجية التافهة . اغربى عن وجهى .

وما هى الا لحظة حتى كانت ايفا قد نهضت عن المقعــد المريح ، ومضت الى الشرفة وهى تقول :

ـ أماه • اننى أحب هذه الزهور • أرجــوك أن تعطينى اياها فأنا أريدها •

ـ عجبا يا ايفا ! ان غرفتك ممتلئة بها الآن •

فقالت ايفا :

ـ لا يمكن أن يكون لدى منها أكثر مما أريد • هاتى هذه الزهور هنا •

وهنا تقدمت توبسى وكانت واقفة مكتئبة، مطرقة الرأس ـومدت يدها بالزهور وقد ارتسمت فى عينيها نظرة تردد وخجل ، تختلف أشد اختلاف عن نظراتها السابقة المعتادة المفعمة بالجرأة والبهجة •

وقالت ايفا وهى تنظر الى الزهور :

ـ انها طاقة جميلة •

وكانت فى الواقع طاقة فريدة فى نوعها • مكونة من طائفــة من زهور الجرانية القرمزية الوضاءة مع زهرة جابونيكا واحدة بيضاء بأوراقها اللامعة • وكانت منسقة بعين انسان يرى جمال التباين فى الألوان ، كما كان يبدو بوضوح أن تنسيق كل ورقة كان عن دراسة كاملة •

ولاح السرور على وجه توبسى عندما قالت ايفا

ـ انك ياتوبسى جــــد بارعة فى تنسيق الزهور • أترين هــذه الزهرية الخالية منها ؟ أنى أحب أن تنسقى فيها شيئا كل يوم •

قالت مارى :

ـ عجبا • هذا شىء عجيب • ولم تريدين هذا ؟

ـ هذه رغبتى يا أماه ، هل لديك مانع فى أن تقوم توبسى بهــذا من أجلى ؟

ـ طبعا لا ياعزيزتى انى لا أعارض فى شىء ترغبين فيه ٠أسمعت ياتوبسى ماتريد سيدتك الصغيرة ؟ افعلى ماتريد ٠

وانحنت توبسى انحنـــاءة احترام خفيفة ، وفيما هى تســتدير لتنصرف ، لمحت دمعة تنحدر على خدها الأسود ٠ وهنا قالت ايفــا لأمها

ـ أترين يا أماه ؟ لقد كنت أعرف ان توبسى تريد أن تصــنع لى شيئا ٠

ـ كلام فارغ ٠ انها لم تفعل مافعلت الا لأنها تحب أن ترتكبأى نوع من الشر ٠ فهى تعرف أن قطف الزهور محرم عليها ، ولهـــذا تقطفها ٠ ذلك كل مافى الأمر ٠ أما اذا كنت ترغبين فى أن تقطف الزهور فلتفعل ٠

ـ أظن يا أماه أن توبسى أصبحت تختلف عمـــا كانت من قبل ٠ فهى تحاول أن تكون فتاة طيبة ٠

فقالت مارى وهى تضحك ضحكة تنم عن الاستخفاف :

ـ ان محاولاتها ستطول كثيرا قبل أن تصبح كذلك ٠

ـ انك تعرفين يا أماه ظروف توبسى ٠ ان كل شىء ضدها ٠

ـ لم يكن الأمر هكذا منذ جاءت هنا ٠ أنا واثقة من هذا ٠ لقـد تحدثنا اليها طويلا ، ونصحناها كثيرا ، وفعلنا من أجلها كل مايمكن فى الدنيا أن يفعله انسان ، ومع ذلك فقد ظلت خبيثة كمــا هى ، وستبقى كذلك دائما ٠ انك لن تستطيعى أن تصلحى أمرها ٠

ـ ولكنهناك يا أماه فرقا كبيرا بين أنينشأ الانسان ـكما نشأتـ بين أصدقاء كثيرين ، وأحباب وأشياء كثيرة تجعله ســـعيدا طيبا ، وبين أن ينشأ كما نشأت توبسى فى حياتها من قبل أن تأتى الينا٠

فتثاءبت مارى وقالت :

ـ محتمل جدا ٠ يا الهى ، ما أشد حرارة الجو ٠

ـ ألا ترين يا أماه ، أنه يمكن أن تصبح توبسى ملاكا ، كأى واحدة منا ، لو أنها كانت مسيحية ؟

ـ توبسى ؟ يالها من فكرة سخيفة • انها لا تخطر ببال غـيرك • ومع ذلك أظن أن هذا ممكن •

ـ ولكن • أليس الله يا أماه هو الذى يرعاها ، كما يرعانا نحن؟ أليس المسيح مخلصها ؟

فقالت مارى :

ـ قد يكون هـــذا • وأظن أن الله قد خلق النـاس كلهم • أين زجاجة النشادر ؟

فقالت ايفا وهى ترنو ببصرها الى البحيرة البعيدة وكأنها تحدث نفسها :

ـ ان هذا لأمر محزن • محزن جدا •

فقالت مارى :

ـ ما هو الأمر المحزن ؟

ـ هو أن يكون فى امكان أى انسان أن يصبح ملاكا طاهرا ،وأن يعيش مع الملائكة ، ثم ينحدر الى الدرك الأسفل دون أن يعمل أحد على انقاذه • يا للأسف •

ـ أن هذا خارج عن نطاق قدرتنا • فلا جدوى من الأسى والقلق يا ايفا • فأنا لا أعرف ماذا ينبغى أن نفعل فى هذا • وانما ينبغى لنا أن نحمد الله على ما نحن فيه من خير •

فقالت ايفا :

ـ اننى لا أكاد أستطيع هذا ، لأنه يحزننى أشد الحزن أن أفكر فى أولئك المحرومين من هذا الخير بأجمعه •

ـ ان هذا لعجيب يا ايفا • اننى واثقـــة من أن دينى يحتم على

شكر الله على ما أولانى من نعم ٠

وهنا قالت ايفا :

ـ أماه ٠ انى أريد أن يقص جزء من شعرى ٠ جزء كبير منه ٠

فقالت مارى :

ـ ولم ؟

ـ أريد يا أماه أن أهب بعضه الى أصدقائى وأنا لا زلت قادرةعلى منحه اياهم بنفسى ، ألا تطلبين الى عمتى أن تحضر لتقصه لى ؟

ورفعت مارى صوتها واستدعت أوفيليا من الغرفة الأخـــرى ٠ ونهضت الطفلة قليلا عند دخول عمتها ، ونفضت خصلات شـعرها الذهبى الطويل وقالت مداعبة :

ـ هلم ياعمتى جزى فراء الشاة ٠

وهنا قال سانت كلير وكان قد دخل الغرفة حاملا بعض الفاكهـة التى خرج للاتيان بها من أجلها :

ـ ما هذا ؟

ـ أريد يا أبى أن تقص عمتى بعض شعرى ، فانه أكثر مما أحتاج اليه ، وهو يرفع حرارة رأسى ٠ وعدا هذا فانى أريد أن أمنح بعضه لأحبابى ٠

وجاءت أوفيليا ومعها مقصها ، فقال لها الوالد :

ـ احذرى أن تفسدى منظره ٠ قصى من الطبقـات التحتية حتى لا يبين موضع القص ، فان خصلات ايفا هى موضع فخرى ٠

فقالت ايفا فى حزن :

ـ آه يا أبى ٠

وقال سانت كلير فى صوت مرح :

ـ نعم ، انى أريد أن يظل شعرك على رونقـــه حتى يحين الوقت الذى أذهب فيه معك الى مزرعة عمك لرؤية ابن عمك هنريك ·

ولكنها قالت :

ـ اننى لن أذهب الى هناك أبدا · اننى ذاهبة الى مكان أفضـــل · أرجو أن تصدقنى · ألا ترى يا أبى أننى أزداد ضعفا يوما بعد يوم ؟

فقال لها والدها :

ـ لماذا تصرين على أن أصدق شيئا قاسيا كهذا الأمر القاسى ؟

ـ لأنه الحقيقة المجردة يا أبى · فاذا أنت صـــدقتها الآن فربما شعرت ازاءها بما أشعر به أنا ·

وأطبق سانت كلير شفتيه ، ووقف ينظر فى اكتئاب الى جدائل الشعر الجميل وهى تنفصل عن رأس ايفا ، وتوضع الواحدة بعـد الأخرى فى حجرها · ورفعت هى هذه الجدائل ونظرت اليها نظرة مهمومة ، ولفتها على أصابعها النحيلة ، وهى ترنو بين الحين والآخر ببصرها الى أبيها ·

وقالت مارى :

ـ ان هذا ما كنت أخشاه · وهو الذى ظل يهدم فى صحتى ، يوما بعد يوم ، ويهوى بى الى القبر دون أن يلاحظه أحد · كنت أرى هذا منذ أمد بعيد ، وسترى يا سانت كلير انى كنت على صواب ·

فقال سانت كلير بصوت فيه مرارة وجفاء :

ـ وسيتيح لك هذا عزاء جميلا بلا شك ·

وتراخت مارى بظهرهـــا الى المتكأ ، وغطت وجهها بمنديلهـــا الحريرى · وأخذت عينا ايفا الصافيتان الزرقاوان تنتقلان فى لهفــة من وجه الى آخر · وكانت نظراتها هى نظرات الروح الهادئة الواعية التى أوشكت أن تتحرر من قيودها الأرضـــية · وكان من الواضح البين أنها ترى وتشعر وتقدر الفارق بين الاثنين : أبيها وأمها ·

وأشارت بيدها الى أبيها ، فاقترب منها، وجلس بجانبها وقالت له:

ـ أبى • ان قواى تنحط تدريجيا يوما بعد يوم • وأنا أعرف أنه لابد لى من الذهاب • وهناك بعض أشياء أريد أن أقولها وأشياء أريد أن أعملها ـ بل أقول ينبغى لى أن أعملها • ولكنك تأبى دائما أن تجعلنى أنطق بكلمة عن هذا الموضوع • ولكن الوقت آت لا ريب فيه • فلا جدوى من التأجيل فأرجو أن ترضى بأن أتحدث الآن •

فقال سانت كلير وهو يحجب عينيه بيد ، ويمسك بالأخرى يد ايفا

ـ انني راض كل الرضا يابنيتى •

فقالت ايفا

ـ اذن أريد أن أرى جميع خدمنا هنا معا • فان لدى أشياء يجب أن أقولها لهم •

فقال سانت كلير فى صوت ينم عن التجلد والاحتمال :

ـ ليكن لك ما تريدين •

وأرسلت أوفيليا تستدعى جميع الخدم وسرعان ما تجمعوا فى الغرفة •

واستندت ايفا بظهرها الى وسائدها ، وشعرها منساب حول وجهها ، وتوهج خديها يناقض بياض بشرتها الناصع ، ونحافة أعضاء جسمها ، وملامح وجهها • أما عيناها البريئتان الروحيتان ، وكانتا مركزتين فى لهفة واهتمام على كل واحد من المجتمعين •

وثارت عواطف الخدم فجأة • فالوجه الروحى السمات ،وجدائل الشعر المقصوصة الموضوعة بجانبها ، والوالد المشيح بوجهه ، وانتحاب مارى ـ كل هذا ترك أثره القوى فى مشاعر هذا الجنس المرهف الاحساس وأخذوا ، وهم مقبلون ، ينظر بعضهم الى بعض ويتحسرون ، ويتنهدون ويهزون رءوسهم • ثم خيم السكون العميق عليهم جميعا ، كأنهم فى جنازة •

ورفعت ايفا نفسها ، وألقت نظرات طويلة جادة على كل واحد منهم وارتسمت أمارات الحزن والخوف على وجوههم ، وأخفت الكثيرات من النساء وجوههن فى ميادعهن ٠

وقالت ايفا :

ـ لقد استدعيتكم جميعا يا أصدقائى الأعزاء ، لأنى أحبكم ٠٠ أحبكم كلكم ٠ وان لدى ما أريد أن أقوله لكم ، وأحب أن تتذكروه دائما ٠ انتى سأفارقكم بعد أسابيع قليلة أخرى ، لن ترونى أبدا ٠

وهنا قطعت حديث الطفلة نوبات مفاجئة من الأنين وشهقات النحيب ، وتفجرت عبارات الألم والتوجع من جميع الموجودين ، وضاعت فيها نبرات صوتها الرقيق ٠ وبعد أن انتظرت برهة ،عادت الى الحديث بصوت سكتت معه شهقات الجميع ٠ فقالت :

ـ ان كنتم تحبوننى ، فلا تقاطعونى كما فعلتم من قبل ٠ أنصتوا الى ما أقول فأنا أريد أن أحدثكم عن أرواحكم ٠ ان الكثيرين منكم ـ للأسف ـ على جانب كبير من الاهمال ٠ انكم لا تفكرون الا فى هذا العالم ٠ وأنا أريد منكم أن تذكروا أن هناك عالما جميلا ،يعيش فيه المسيح ٠ وأنا ذاهبة اليه ٠ وأنتم أيضا تستطيعون أن تذهبوا اليه ٠ انه لكم بقدر ما هو لى ٠ ولكن اذا أردتم أن تذهبوا الى هذا العالم ، فلا ينبغى أن تركنوا الى حياة الكسل والاهمال ـ وعدم التبصر ٠ يجب أن تتمسكوا بأهداب الدين ٠ يجب أن يذكر كل منكم أن فى مقدوره أن يصبح ملاكا ، وأن يظل هكذا الى الأبد٠ فاذا أردتم أن تكونوا مؤمنين ، فسوف يساعدكم المسيح ، فيجب أن تبتهلوا اليه وأن تقرءوا ـ

وتوقفت الطفلة عن الحديث ، ونظرت اليهم فى رثاء ، ثم قالت بحزن :

ـ آه ٠ يا أعزائى ٠ انكم لا تعرفون القراءة ٠ يا للمساكين ٠

ثم أخفت وجهها بين الوسائد وشرعت تنتحب حتى نبهتها الشهقات المكتومة الصادرة من كثيرين من المستمعين الراكعين أمامها على

الأرض ، فقالت وهى ترفع رأسها ووجهها وترسل بسمة مشرقة من خلال دموعها :

ـ لا عليكم . لقد صليت من أجلكم ، وأنا أعلم أن المسيح سوف يساعدكم ، وان لم تستطيعوا القراءة . حاولوا جميعا أن تفعلوا خير ما تستطيعون فعله . صلوا كل يوم . ابتهلوا الى الله سبحانه وتعالى ليساعدكم . واستمعوا الى قراءة الانجيل كلما وجدتم الى ذلك سبيلا . وأنا أعتقد أنى سأراكم جميعا فى الجنة .

ـ آمين .

غمغمت بها شفاه توم ومامى وبعض الخدم الأكبر سنا الذين ينتمون الى الكنيسة المثدية . أما الأصغر سنا ممن ينقصهم التفكير ، فقد استسلموا لأحزانهم فى تلك اللحظة وراحوا يشهقون بالبكاء ورءوسهم على ركبهم .

وقالت ايفا :

ـ أنا أعرف أنكم جميعا تحبوننى .

وأجاب الجميع بصوت واحد وبلا وعى منهم :

ـ نعم . نعم . حقا اننا نحبك ، وليباركك الله .

ـ أجل . أنى أعرف أنكم جميعا تحبوننى . فليس بينكم أحد لم يكن على الدوام يشفق على ، ولذلك أريد أن أعطيكم شيئا اذا نظرتم اليه فى أى وقت ، ذكركم بى . سأعطى كل واحد وواحدة منكم خصلة من شعرى ، فاذا نظرتم اليها فاذكروا أنى أحببتكم ، وأنى ذهبت الى السماء ، وأنى أريد أن أراكم جميعا هناك .

وانه لمن المستحيل وصف المنظر بعد هذا عندما التف الجميع وهم يشهقون بالبكاء حول الطفلة الصغيرة ، وتلقوا من يديها ما بدا لهم أنه آخر رمز لحبها . ثم خروا راكعين ، وبكوا ، وابتهلوا ، وقبلوا أطراف ثوبها ، وأخذ الكبار منهم ينطقون عبارات الحب والاعزاز ممزوجة بالصلوات والدعوات والبركات، كما هى عادة أبناء جنسهم السريع التأثر .

وفيما كان كل منهم يأخذ العطية ، أشارت أوفيليا اليه لينصرف من الغرفة فورا ، وذلك لخوفها من تأثير هـــذا الانفعال النفسى على صحة المريضة الصغيرة ٠

وأخيرا انصرف الجميع ما عدا توم ومامى ٠

وقالت ايفا

ـ ها هى ذى يا عم توم خصلة جميلة لك ٠ ألا ما أسعدنى يا عم توم أن أفكر فى أنى سوف أراك فى السماء لأنى سأراك هنـاك بلا ريب ، وأنت يا مامى ، يا مامى العزيزة الكريمة الحنون ٠

ثم ألقت بذراعيها حول مربيتها العجـوز فى حب واعزاز وأردفت قائلة :

ـ وأنا أعرف أنك ستكونين هناك أيضا ٠

فقالت الخادمة الوفية :

ـ أوه ٠ يامس ايفا ٠ لست أدرى كيف أستطيع الحياة بدونك بأى حال ٠ انه ليبدو لى كأن كل شىء فى الحياة سيذهب معك ٠ ثم استسلمت مامى لنوبة من الحزن الشديد ٠

ودفعت أوفيليا بها وبتوم الى الخـــارج ـ خارج الغرفة ـ وقد حسبت أن الجميع قد انصرفوا ، ولكنها حين استدارت رأت توبسى واقفة ، فقالت لها فجأة :

ـ من أين ظهرت ؟

فقالت توبسى وهى تمسح الدموع من عينيها :

ـ كنت هنا ٠ آه يامس ايفا ٠ لقد كنت بنتا شريرة ، ولـكن ألا تهبيننى أنا أيضا خصلة ؟

ـ نعم ياتوبسى المسكينة ، تأكدى أنى سأعطيك ٠ ها هى ذى ٠ وتذكرى كلما نظرت اليهـــا أنى أحبك وأنى أردت أن تكونى فتـاة طيبة ٠

فقالت توبسى فى حماسة :

ـ نعم يامس ايفا ٠ اننى الآن أحاول٠ ولكن، يا الهى ، ما أصعب أن يكون الانسان طيبا ٠ انه ليبدو أنى غير معتادة على محاسن الأخلاق بأى حال ٠

ـ ان الله يعرف هذا ياتوبسى ، وهو سيخفف عنك ويساعدك ٠

وفى سكون تام دفعت أوفيليا الى خارج الغرفة بتوبسى التى كانت تخفى عينيها فى ميدعتها ، ولكنها كانت وهى خارجة تخفى الخصلة الغالية فى صدرها ٠

أما وقد انصرف الجميع ، فقد أغلقت أوفيليا الباب٠ وكانت هذه السيدة الكريمة قد مسحت الكثير من دموع عينيها خلال هذا المنظر، ولكن اهتمامها أولا وأخيرا كان منصرفا الى التفكير فى عواقب هذا الانفعال وتأثيره فى الفتاة التى عهدت اليها رعايتها ٠

وفى خلال هذه الفترة كلها ، كان سانت كلير جالسا فى نفس الوضع يحجب عينيه بيديه ٠ فلما انصرف الجميع ، ظل فى مكانه جالسا لا يريم ٠

ـ أبى ٠

فجفل الوالد فجأة ، وارتعد ٠ ولكنه لم يجب ٠ فعادت تقول :

ـ يا أبى العزيز ٠

فنهض وهو يقول :

ـ اننى لا أستطيع ، لا أستطيع أن أحتمل هذا٠ لقدعاملنى القدير بقسوة شديدة حقا ٠

وكان ينطق بالكلمات الأخيرة فى لهجة مرة ٠

وهنا قالت أوفيليا :

ـ أوجستين ٠ أليس من حق الله أن يفعل بعبيده مايريد ؟

فقال بلهجة جافة قاسية وهو يستدير لينصرف دون أن يذرف الدمع :

– نعم ذلك من حقه . ولكن هذا لا يجعل الأمر سهل الاحتمال .

ونهضت ايفا وألقت بنفسها بين ذراعيه وقالت :

– أبى . انك تحطم قلبى . يجب ألا يكون هذا شعورك .

وأخذت الطفلة تبكى وتنتحب فى عنف أزعجهم جميعا ، ووجه أفكار أبيها لساعته وجهة أخرى ، واذا هو يقول لها

– لا لا يا ايفا ياحبيبتى . كفى كفى . لقد أخطأت ، وكنت انسانا شريرا . لسوف أجعل مشاعرى كما تريدين . وكل الذى أرجوه ألا تحزنى وتبكى هكذا . لسوف أستسلم لقضاء الله . لقد جنيت على نفسى حين قلت ماقلت .

وسرعان ما تهالكت ايفا كحمامة مرهقة بين ذراعى أبيها وراح وهو ينحنى فوقها ، يهدىء من اضطرابها بكل لفظ رقيق يخطر بباله .

وهنا نهضت مارى واندفعت الى غرفتها الخاصة حيث استسلمت لنوبة من الانهيار العصبى .

وقال الوالد للابنة وهو يبتسم :

– انك لم تمنحينى خصلة من شعرك .

فقالت وهى تبتسم هى الأخرى :

– ان كل شعرى لك يا أبى . لك ولأمى . ويجب أن تعطى عمتى العزيزة كل ما تريد من خصلات . وانما توليت بنفسى اعطاء الخصلات للخدم المساكين لأنى أخشى ، كما تعرف يا أبى ، أن تنسوهم بعد ذهابى ، ولأنى أرجو أن تساعدهم على أن يذكرونى .

ثم قالت فى ارتياب :

– انك مسيحى يا أبى . أليس كذلك ؟

ـ لماذا تسألينني هذا السؤال ؟

ـ لا أعرف ·· فأنت من كرم الأخلاق بحيث لا يمكن الا أن تكون كذلك ·

ـ وما معنى أن يكون الانسان مسيحيا يا أيفا ؟

ـ أن يحب المسيح أكثر من كل أحد سواه ·

ـ وهل تحبينه هذا الحب يا ايفا ؟

ـ لا شك فى هذا ·

فقال سانت كلير

ـ ولكنك لم تريه أبدا ·

فقالت ايفا :

ـ سيان أن أراه أو لا أراه ·اننى أومن به، ولن تمضى الا أيام قليلة حتى أراه ·

وهنا أشرق وجه الطفلة حماسة وسرورا ·

ولم يزد سانت كلير فى حديثه شيئا بعد هذا · ذلكأنه رأى مثل هذا السرور فى وجه أمه من قبل · ولكن نفسه لم تهتز وقتئذ كما تهتز اليوم ·

وتدهورت صحة ايفا ، بعد هذا ، بسرعة ، ولم يعد ثمة شك فى النهاية الوشيكة · ذلك أن الانسان لا يستطيع أن يستمر فى خداع نفسه مهما كان الأمل حبيبا ، وأصبحت غرفتها الجميلة قاعة تمريض ، وأخذت أوفيليا تقوم بواجبات الممرضة آناء الليل وأطراف النهار ولم يقدر أصدقاؤها قيمتها أكثر مما قدروها خلال قيامها بهذا الواجب · ذلك أنها باليد والعين المدربة ، وبالدقةالكاملة والتجربة التامة فى كل ما يبعث على الراحة ، تزيل عن مرأى العيون كل ما هو غير مرغوب فيه مما يشير الى المرض فى الغرفة · وبادراكها السليم لقيمة الوقت ، وبذهنها المتزن الصافى ،

غير المتعب ، وبذاكرتها القوية الحافظة كل توجيهات الطبيب وإرشاداته ، بهذا كله أصبحت كل شيء للطبيب • وان الذين طالما هزوا أكتافهم استخفافا بدقتها السابقة وتزمتها الشديد فى ادارة شئون البيت ، واختلافها فى ذلك عن طبيعة الجنوبيين الميالين الى عدم المبالاة والتحرر من هذه الدقة — هؤلاء قد اعترفوا الآن بأن الله قد بعثها خاصة لأداء هذه المهمة •

وكان العم توم يتردد كثيرا على غرفة ايفا ، ذلك أنها كانت تعانى الكثير من القلق الناشىء من التوتر العصبى ، وكانت تستشعر الراحة عندما تراه • وكان أشد مايبهج توم أن يحمل جسمها الهش بين ذراعيه وهى راقدة على وسادة لينة ، تارة يذرع بها الغرفة جيئة وذهابا ، أو يذهب بها الى الشرفة تارة أخرى • وفى بعض الأحيان ، عندما تنساب نسائم البحر المنعشة من البحيرة ، وتشعر الطفلة بالانتعاش فى الصباح ، كان توم يتمشى بها تحت أشجار البرتقال بالحديقة ، أو يجلس واياها على بعض المقاعد السابقة التى كانا يجلسان عليها معا وينشد الأناشيد الدينية القديمة المحببة اليها •

وكثيرا ما كان والدها يفعل هذا أيضا • ولكن جسمه كان أضعف من جسم توم ، فاذا لاح التعب عليه كانت ايفا تقول له :

— أبى • دع توم يقوم بهذا عنك • ان المسكين يبتهج بصحبتى ، وأنت تعرف أن هذا هو كل ما يستطيع أن يقوم به الآن — وهو يريد أن يفعل شيئا •

فكان والدها يقول :

— وكذلك أنا يا ايفا •

— انك يا أبى تستطيع أن تفعل كل شيء ، وأنت كل شيء لى ، فأنت تقرأ لى ، وتسهر الليالى معى ، ولكن ليس لتوم مايعمله غير هذا هو والترتيل • وأنا أعرف أيضا أن ذا العمل أسهل عليه منه عليك ، لأنى أشعر بقوته الشديدة وهو يحملنى •

ولم تكن الرغبة فى القيام بعمل ما لايفا مقصورة على توم ، فقد

كان كل خادم فى البيت يعرب عن هذا الشعور نفسه ، ويقوم بكل مايستطيع بطريقته الخاصة ٠

وكان قلب مامى المسكينة يحن شوقا الى حبيبتها ، ولكنها لم تجد أية فرصة فى الليل أو النهار ، للبقاء معها ، لأن مارى كانت تعلن أن حالتها الفكرية بلغت من السوء حدا جعلها لا تعرف طعم الراحة ، ولم تكن مبادئها الطبيعية بطبيعة الحال تجيز لها أن تسمح لأحد غيرها بأن يستريح ٠ فكانت مامى توقظ من نومها أكثر من عشرين مرة فى الليل ، لتدلك قدميها أو لتغسل رأسها ،أو لتبحث عن منديل جيبها ، أو لتعرف سبب الأصوات المنبعثة من غرفة ايفا، أو لتسدل الستار على النافذة لأن الضوء أكثر مما يجب، أو لترفعها لأن الظلام شديد ٠ وفى أثناء النهار ، عندما تتوق الى الاشتراك فى تمريض حبيبتها ، كانت تزيد فى ابتكار الأسباب لشغلها فى أى مكان وفى كل مكان فى جميع أركان البيت ، أو حول شخصها ، ومن ثم كان كل ما تظفر به مامى من ايفا زيارات مختلسة أو نظرات خاطفة ٠

وكانت مارى تقول لزوجها :

ــ أشعر أن واجبى الآن يقضى على بأن أزيد من الاهتمام بنفسى ٠ فان عبء العناية وتمريض طفلتى العزيزة يقع كله على كاهلى رغم سوء صحتى ٠

وعندئذ يقول سانت كلير :

ــ أهكذا ياعزيزتى ؟ لقد كنت أظن أن ابنة عمى قد حملت عنك هذا العبء ٠

ــ انك تتحدث بشعور الرجل ياسانت كلير ، كأن الأم يمكن أن تتحرر من العناية بطفلتها وهى فى هذه الحالة ٠ ولكن الأمر عندك سواء ، وليس ثمة من يحس بعواطفى ، فأنا لا أستطيع أن أتجاهل الحقائق كما تتجاهلها أنت ٠

وابتسم سانت كلير ــ ويجب أن نلتمس له العذر ، فانه لم يسعه

الا أن يبتسم عندئذ ، وكان فى مقدوره حتى الآن أن يبتسم . ذلك لأن نور الاشراق والبهاء ، ألذى يحف بالروح الصغيرة فى رحلتها الأخيرة ، والنسائم العاطرة الحلوة التى تدفع بزورقها نحو شواطىء السماء ، قد جعلت من المستحيل عليه أن يدرك أن الموت يقترب من الطفلة . ولم تكن الطفلة تشعر بأى ألم ، بل كان كل ما تحس به هو ضعف فيه رقة وهدوء ، كان يزداد يوما بعد يوم . ولا تكاد تحس به . وكانت تبلغ من الجمال وحسن الخلق والثقة بهم والسعادة حدا لا يستطيع الانسان معه مقاومة ذلك الأثر الملطف لجو البراءة والطهر الذى يخيل الى الانسان أنه ينتشر حولها . وأحس سانت كلير بلون من السكينة العجيبة تغمره . ولم تكن هى سكينة الأمل ، فهذا مستحيل ، ولم تكن سكينة الاستسلام ، بل كانت سكينة لا تتعدى الحاضر ، بلغت من الجمال حدا لم يشأ معه أن يفكر فى المستقبل . وكانت شبيهة بسكون الروح الذى يحسه الانسان بين أشجار الغابة المشرقة الهادئة فى الخريف ، عندما تنسكب بقايا أضواء الشمس على الأشجار وتظل آخر الزهور باقية بجانب الجدول ، فتثير فى أنفسنا المزيد من البهجة ، لأننا نعرف أنها توشك كلها أن تزول .

وكان الصديق الذى يعرف كل خيالات ايفا وتنبؤاتها ، هو خادمها المخلص وحاملها توم . فقد كانت تتحدث اليه بما لا تريد أن تزعج به أباها ، وتسر له بتلك الايحاءات الخفية التى تستشعرها الروح كلما ازداد تفكك الوشائج التى تربطها بهذا العالم ، قبل أن تغادر هذا الهيكل الأرضى الى أبد الآبدين .

ورفض توم أخيراً أن ينام فى غرفته ، بل راح يرقد طيلة الليل فى الشرفة الخارجية ، مستعدا لتلبية كل نداء .

وكانت أوفيليا تقول له فى هذا الشأن :

ـــ ما الذى يدفعك ياعم توم الى اعتياد النوم فى كل مكان ، وفى أى مكان ، مثل الكلب . لقد حسبتك واحدا ممن اعتادوا النظام فى حياتهم والذين يحبون النوم فى الأسرة كأى شخص محترم .

وكان يقول لها قولا غامضا لا تستبين معناه :

ـ اننى أحب النظام يا مس فيلى ، ولكن الآن ـ

ـ ماذا الآن ؟

ـ يجب ألا نرفع صوتنا فى الحديث . فان السنيد سانت كلير لا يؤمن بهذا . ولكن يا مس فيلى ، يجب أن يسهر واحد منا فى انتظار العريس كما تعلمين .

ـ ماذا تعنى ياتوم ؟

ـ لقد جاء فى الكتاب المقدس كما تعرفين يامس فيلى « ففى نصف الليل ، صار صراخ ، هو ذا العريس مقبل » وهذا ما أترقبه الآن كل ليلة . يامس فيلى . وأنا لا أستطيع ، بأى حال أن أنام بعيدا عن مرمى النداء .

ـ عجبا ياعم توم ، ما الذى يحملك على هذا الظن ؟

ـ انها مس ايفا . انها تتحدث الى . وان الرب يبعث برسوله الى الروح . ويجب أن أكون حاضرا يا مس فيلى ، ذلك انه عندما تذهب هذه الطفلة المباركة الى ملكوت السموات ، فان الأبواب هناك ستفتح على مصاريعها ، وسوف نرى جميعا ذلك المجد يا مس فيلى .

ـ اسمع ياعم توم . هل قالت لك ايفا انها الليلة تشعر بأنها أسوأ حالا عن ذى قبل ؟

ـ لا . ولكنها أخبرتنى ، فى هذا الصباح ، انها تزداد اقترابا . وان هناك من يخبر الطفلة بهذا يا مس فيلى . انهم الملائكة ـ انها النفخة فى الصور قبل شروق الصباح .

وكانت العبارة الأخيرة قد اقتبسها توم من أنشودة حبيبة لديه .

جرى هذا الحوار بين أوفيليا وتوم فيما بين العاشرة والحادية عشرة ذات مساء وذلك بعد أن أتمت جميع الترتيبات اللازمة لنوم ايفا ، خرجت لتغلق الباب الخارجى ، فوجدت توم راقدا بجانبه فى الشرفة الخارجية .

انها لم تكن مضطربة الأعصاب أو شديدة التأثر ، ولكنها تأثرت بالهدوء والسكينة اللذين غمرا الطفلة • ذلك أنها كانت ، على غير المعتاد ، مشرقة النفس ، شديدة المرح فى ذلك الأصيل • وكانت قد أجلست فى فراشها تنسق تحفها الصغيرة وحاجياتها الغالية ،وتحدد الأحباب الذين ستمنحهم اياها • وكانت حالها أكثر هدوءا ، كما كان صوتها أقرب الى طبيعته مما عرفوه عنه فى الأسابيع الأخيرة • وكان أبوها قد زارها فى المساء ، وقال ان أيفا تبدو أقرب الى حالتها السابقة مما كانت فى أى يوم قبل مرضها • ولما قبلها كعادته قبل أن ينصرف فى تلك الليلة ، قال لأوفيليا :

ـ يبدو أننا سنسعد بها معنا رغم كل شىء يا ابنة العم • فانها اليوم أحسن حالا على وجه اليقين •

وآوى الى فراشه وهو أكثر اطمئنانا مما كان منذ عدة أسابيع •

ولكن حدث فى منتصف الليل ، فى تلك اللحظات العجيبة الخفية التى يشف فيها الحجاب بين الحاضر والمستقبل الأبدى ـ أن جاء الرسول !

وسمع أولا صوتا فى الغرفة ـ صوت وقع أقدام سريعة • انها وقع أقدام أوفيليا التى قررت أن تقضى الليل ساهرة مع وديعتها الصغيرة ، التى لاحظت فى منتصف الليل ، ما تسميه المرضات المجربات بذلك الاسم الذى له معناه وهو « تحول خطير » • فتح الباب الخارجى بسرعة وتنبه على الفور توم ، الذى كان فى خارجه يترقب ، فقالت له أوفيليا

ـ اذهب لاستدعاء الطبيب ياعم توم فورا • فورا ولا تضع لحظة واحدة •

ثم عبرت الغرفة ونقرت على باب غرفة سانت كلير ، وقالت له :

ـ أريد أن تأتى يا بن عمى •

وتساقطت هذه الكلمات على قلبه كأنها دق مطرقة على تابوت ميت • ترى لم كان هذا وقعها عليه ؟ وقام من فوره واندفع الى الغرفة

ايفا فى لمح البصر ، وانحنى عليها وهى لا تزال نائمة ٠

ترى ما الذى رآه وجعل قلبه يقف عن النبض ، ولم يتبادل هو وأوفيليا كلمة واحدة ٠ انك تستطيع أن تعرف يامن رأيت هذه الأمارات نفسها مرتسمة على وجه عزيز لديك ـ هذه الأمارات التى لا يستطاع وصفها والتى تنم عن اليأس ، والتى تقول لك بجلاء ان حبيبك لم يعد لك ٠

ولم يكن على وجه الطفلة ، مع ذاك ، أمارات بشعة ٠ بل كل ماكان مرتسما عليه تعبيرات علوية سماوية ، أو الظلال التى تنبىء بحضور أطياف روحية ، وبانبلاج فجر الحياة الخالدة لروح الطفلة ٠

ووقف الاثنان فى الغرفة يظللهما السكون التام ويرمقان الطفلة ، ويحسان أن دقات الساعة نفسها أعلى مما يجب ٠ وما هى الا لحظات قليلة حتى عاد توم بالطبيب ٠ فدخل الغرفة وألقى نظرة واحدة ، ثم وقف صامتا كسائر من فيها ٠

وهمس الطبيب لأوفيليا :

ـ متى حدث هذا التحول فى حالتها ؟

ـ فى منتصف الليل تقريبا ٠

وأسرعت مارى ـ التى أيقظها حضور الطبيب ـ بالحضور من الغرفة المجاورة ، ثم راحت تقول بلهفة :

ـ أوجستين ! أبنة عمى ، ماذا ٠٠٠؟

فقال سانت كلير ، بصوت مبحوح :

ـ اسكتى ! انها تحتضر ٠

وسمعت مامى هذه الكلمات ، وانطلقت توقظ الخدم ، وسرعان ما دبت الحياة فى البيت ، فشوهدت الأنوار تنبعث منه ، وسمع وقع الأقدام ، وتزاحمت الوجوه القلقة المضطربة فى الشرفة وراحت تنظر ، بعيون دامعة ، من وراء الأبواب الزجاجية ولكن سانت كلير لم يكن يسمع أو يرى شيئا ، وكل ما كان يراه هو تلك الأمارات

المرتسمة على وجه النائمة الصغيرة ٠

وأخيرا قال :

ــ آه ياليتها تستيقظ وتتحدث مرة أخرى ٠

ثم انحنى عليها وهمس فى أذنها قائلا :

ــ ايفا ياحبيبتى ٠

وتفتحت العينان الواسعتان الزرقاوان ، وطافت على وجهها ابتسامة ، وحاولت أن ترفع رأسها وأن تتحدث ٠ فقال لها أبوها :

ــ أتعرفينني يا ايفا ؟

فقالت الطفلة وهى تستجمع آخر قواها وتطوق عنقه بدراعيها :

ــ يا أبى العزيز ٠

ثم تراختا بسرعة ، ورأى سانت كلير ، وهو يرفع رأسه ، نوبة من الألم المميت تطوف بوجهها ، وكانت تكافح فى سبيل التنفس وهى ترفع يديها الصغيرتين الى أعلى ٠

فقال أبوها وهو يستدير بوجهه فى ألم مرير ويلوى يد توم وهو لا يكاد يشعر بما يفعل ٠

ــ يا الهى ٠٠ ان هذا لرهيب ٠

وأردف قائلا :

ــ أو ، توم ، ياولدى ، ان هذا سيقضى على !

وأخذ توم يدى سيده بين يديه ، وراح ينظر ــ والدموع تنحدر غزيرة على وجنتيه السوداوين ــ ملتمسا العون من المصدر الذى طالما رفع وجهه اليه سائلا مستغيثا ٠

وقال له سانت كلير :

ــ أدع الله ياتوم أن يجعل هذه اللحظات قصيرة ٠ ان هذا يمزق قلبى تمزيقا ٠

فقال توم : حمدا لله ·· حمدا لله ··لقد انتهى ــ انتهى كل شيء· انظر اليها ياسيدى العزيز ·

وكانت الطفلة عندئذ متهالكة فى فراشها تلهث ، كما يلهث انسان فى حالة أعياء شديد ، وكانت عيناها الكبيرتان الصامتتان قد ارتفعتا الى أعلى وجمدتا · ترى ماذا تقول هاتان العينان اللتان كانتا تتحدثان كثيرا عن السماء ؟ لقد راحت الدنيا ، وراحت آلام الدنيـا · ولكن مسحة الجد والغموض واشراقة النصر المرتسمـة على ذلك الوجه قد أوقفت حتى شهقات بكاء الحزن نفسها · وتزاحموا حولها فى سكون وأنفاس مكتومة ·

وقال سانت كلير برفق :

ــ ايفا ·

ولم تسمع النداء · فعاد يقول :

ــ ايفا ! قولى لنا ماذا ترين ؟ ماذا أمامك ؟

وطافت بوجهها بسمة من البهـاء والاشراق ، ثم قالت بصـــوت متهدج :

ــ الحب ·· الهناءة ·· السلام ·

ثم ندت عنها آهة واحدة ، وانتقلت من الموت الى الخلود ·

وداعا أيتها الطفلة المحبوبة ! ان أبواب الخلود الوضاءة قد أغلقت وراءك ، ولن نرى وجهك الحلو بعد · ما أشـــد حزن أولئك الذين شاهدوا دخولك ملكوت الســــماء ، عندما يتنبهون ولا يجدون غــير السماء الباردة الداكنة للحياة اليومية العادية ، وأنت قد ذهبت الى أبد الدهر ·

الفصل السابع والعشرون

« هذه نهاية العالم »

جون ك · آدمز

غطيت التماثيل الصغيرة واللوحات الملونة التى فى غـــرفة ايفا بأغطية بيضاء ، ولم يعد يسمع فيهـا غير الأنفـــاس المحبوســة ، ووقع الأقدام المكتومة ، وكان الضوء يتسلل فى خفوت من فرجات الستائر المسدلة على النوافذ ·

وفرش على السرير ملاءات بيضاء ، وهناك تحت الستائر المنسدلة من الملاك ذى الأجنحة المتهدلة ، يرقد جسم نائم ·· نائم نوما لايقظة بعده أبدا ، هناك كانت ترقد ، مرتدية الملابس البيضاء البسيطة التى كانت تحب ارتداءها وهى على قيد الحياة ، وكانت الأضواء الوردية المنسابة من فرجات الستائر تتسكب على برودة الموت ، وهجا دافئا · وكانت أجفان الطفلة الوطفاء مسدلة بأهدابها الطوال على الوجنتين الصافيتين ، والرأس مائل قليلا نحو جانب واحد وكأنه مستغرق فى نوم طبيعى · ولكن أمارات روحية الســـمات كانت تنتشر على كل خلجة من ذلك الوجه ممتزجة بنشوة السكينة والراحـة لا تدل أبدا على أن ذلك النوم نوم مؤقت فى هذه الدنيا ، بل هو هذه الراحـــة الطويلة المقدسة التى « يهبها الله لمن يحبهم » ·

ليس ثمة موت لمن كان مثلك يا ايفا · بل ليس ثمة ظلام ولا ظلال الموت ، وكل ما هناك ضوء يتلاشى كما يتلاشى ضوء النجوم فى الفجر الذهبى مع اقتراب الصبح ، ذلك هو النصر الذى ينال بغير معـــركة والتاج الذى يظفر به بلا حرب ·

هكذا كان يرى سانت كلير ، وهو واقف أمامها معقود اليدين على الصدر يحدق النظر اليها · آه · منذا الذى يستطيع أن يعرف فيم

كان يفكر ؟ ذلك أنه منذ اللحظة التى انطلقت فيها الأصوات فى غرفة الموت بأنها « ذهبت » وهو يعيش فى عالم يغشاه ضباب رهيب هو ظلمة العذاب الأليم • لقد سمع أصواتا من حوله ، وسمع الأسئلة تلقى عليه ، وأجاب عنها • لقد سألوه متى تكون الجنازة ، وأين يكون مثواها الأخير ، وقد أجاب وهو نافد الصبر أنه لا يهتم بشىء من هذا •

وكان أدولف وروزا قد نظما الغرفة • وكانا رغم استخفافهما وصبيانية سلوكهما عادة ، ممتلئى القلب بالرقة والحنان • واذا كانت أوفيليا قد أشرفت على التفاصيل العامة فى النظام والنظافة والترتيب ، فان أيديهما هى التى أضفت تلك اللمسات الشاعرية الناعمة على ذلك الترتيب وأزالت من غرفة الموت ذلك الجو الكئيب الرهيب الذى تتميز به فى أغلب الأحيان جنازات أهالى نيوانجلند •

وكانت الأزهار لا تزال على الأرفف ـ كلها بيضاء ، رقيقة ، عاطرة ، ذات أوراق ظريفة متدلية ، وكانت ملساء ، ومنضدة ايفا المكسوة بمفرش أبيض تحمل زهريتها الأثيرة ، وبداخلها زهرة واحدة بيضاء ، وكانت ثنايا الأغطية والستائر قد نسقت وأعيد تنسيقها بأيدى أدولف وروزا ، وبتلك اللمحة الفنية الدقيقة التى هى من خصائص جنسهما • بل ان روزا الصغيرة فى تلك اللحظة التى كان فيها سانت كلير واقفا فى الغرفة يفكر ويتأمل دخلت الغرفة على أطراف أصابعها وهى صامتة تحمل سلة من الأزهار البيضاء • ولما رأت سانت كلير ، تراجعت الى الوراء ، ثم توقفت فى احترام ، فلما تبينت أنه لا يلحظها ، تقدمت لتضع الأزهار حول الجسد المسجى • وأبصرها سانت كلير ، كأنه فى حلم وهى تضع فى يد المتوفاة الصغيرة طاقة جميلة من زهور الياسمين ، ثم نسقت بقية الأزهار حول الفراش بذوق رائع سليم •

وفتح الباب مرة أخرى ، وظهرت توبسى وعيناها متورمتان من فرط البكاء تحمل شيئا ما تحت ميدعتها • وأسرعت روزا وأومأت اليها بالتراجع ، ولكن الصبية تقدمت خطوة خطوة فى الغرفة ،فقالت لها روزا فى همس حاد عميق :

ـ يجب أن تخرجى • فليس لك عمل هنا •

فقالت ثوبسى :

ـ أرجو أن تسمحى لى • لقد جئت بزهرة ـ ما أجملها !

ثم مدت يدها بزهرة جميلة نصف متفتحة وأردفت قائلة :

ـ أرجو أن تسمحى لى بوضع زهرة واحدة هناك •

فقالت روزا بصوت أشد حزما :

ـ أخرجى !

وهنا قال سانت كلير وهو يضرب الأرض بقدمه فجأة :

ـ لتبق ، ويجب أن تأتى هنا •

وتراجعت روزا فجأة ، وتقدمت توبسى الى الجسد المسجى ووضعت هديتها عند القدمين ، ثم أرسلت فجأة صيحة عاليـــة مريرة وألقت بنفسها على الأرض بجانب السرير ، وراحت تبكى وتنتحب بصوت عال •

وأسرعت المس أوفيليا الى الغرفة ، وحاولت ، عبثا ، أن تنهضهـا وتسكتها • ولكن الصبية كانت تردد بلا انقطاع :

ـ آه يا مس ايفا •• يا مس ايفا •• ليتنى مت أيضا • نعم ليتنى مت أيضا !

وكان فى صرختها رنة عميقة تنفذ الى شغاف القلوب • واذا الدم يندفع الى وجه سانت كلير الشاحب كالرخام ، واذا أول قطرات من الدموع التى لم يذرفها منذ موت ايفا تطفر الى عينيه •

وقالت أوفيليا بصوت أكثر رقة :

ـ انهضى أيتها الطفلة • لا تبكى هكذا • لقد رحلت المس ايفا الى ملكوت السماء وهى الآن ملاك •

فقالت توبسى وقد عادت الى النحيب :

ـ ولكننى لا أستطيع رؤيتها ، ولن أراها أبدا •

وخيم السكون على الجميع برهة ومضت توبسى تقول :

ـ لقد قالت انها تحبنى ، وكانت تحبنى حقا ٠٠آه ، يا عزيزتى ، يا عزيزتى ٠٠ نيحى ٠٠ ويحى ٠٠ لم يعد لى أحد الآن ٠ لم يعـد لى أحـد ٠

فقال سانت كلير لأوفيليا :

ـ هذه حقيقة لا شك فيها ٠ ولكن حاولى أنت أن تخففي عن هذه المسكينة ٠

وعادت توبسى تقول :

ـ ليتنى لم أولد ٠ اننى لم أكن أحب أن أولد بأى حال ٠ وأنا لم أر أية فائدة فى الحياة ٠

وأنهضتها أوفيليا فى رفق ولكن فى حزم ، وانصرفت بهـا من الغرفة ولكنها ، وهى تفعل هذا ، تساقطت الدموع من عينيهـا ، وقالت لها وهى تمضى بها الى غرفتها :

ـ توبسى أيتها المسكينة ٠ لا تيأسى ٠ فأنا أستطيع أن أحبك وان لم أكن كتلك الطفلة العزيزة المحبوبة ٠ وانى لأرجو أن أكـون قد تعلمت منها شيئا عن حب المسيح وأستطيع الآن أن أحبك ، نعم ٠ ولسوف أحاول أن أعاونك على أن تشبى لتكـونى فتاة مسيحية صالحة ٠

وكان صوت أوفيليا يحمل من المعانى أكثر مما تحملـه ألفاظها ٠ وكان أكثر من هذه المعانى نفسها تلك الدموع الصادقة التى كانت تتساقط على وجهها ، وقد اكتسبت من تلك اللحظة سلطانا خاصا على عقلية الطفلة المحرومة لم يذهب عنها أبدا ٠

وقال سانت كلير فى نفسه :

ـ آه ، يا ابنتى ايفا ، يا من أسدى عمرها القصير على الأرض كل هذا الخير ٠ فأى حساب يمكن أن أقدمه أنا فى سـنوات عمرى الطوال ٠ ؟

ومرت لحظة فى الغرفة سمعت فيها همسات خافتة ووقع أقـدام الخدم وهم يتسللون اليها الواحد بعد الآخر ليلقوا النظرة الأخيرة على المتوفاة ، ثم جىء بتابوت الصغيرة ، وأعدت ترتيبات الجنـازة ،

ووصلت المركبات الى باب البيت وتوافد الغرباء وأجلسوا فى الخارج وجيء بالشرائط والوشائح البيضاء ، والعصائب الحريرية ، وحضر المشيعون بملابس الحداد ، وقرئت عبارات من الكتاب المقدس • وكان سانت كلير فى خلال هذا كله يعيش ويتحرك ويسير كأنه شخص استنفد كل قطرة من دموعه ، وكان حتى آخر لحظة لا يرى غير شيء واحد • هو الرأس الذهبى الثاوى فى التابوت • ثم رأى الغطاء يبسط عليه ، وغطاء النعش يغلق ، ومشى حين رأى نفسه الى جانب بقية المشيعين ، نحو موضع صغير فى طرف الحديقة ، وهناك، بجوار المقعد القديم الذى يعلوه الطحلب والذى طالما جلست عليه تتحدث الى توم وتسمع ترتيله وتقرأ له ، كان القبر الصغير •ووقف سانت كلير بجواره ونظر فى ذهول حين رآهم يضعون فيه النعش الصغير ، وسمع فى غير وعى هذه الكلمات الخطيرة القدسية، « أنا هو القيامة والحياة • من آمن بى ولو مات فسيحيا • »

وفيما كان الثرى يهال على القبر الصغير ويملؤه ، لم يستطع أن يدرك أن ابنته ايفا هى التى يخفونها عن ناظريه •

على أنها لم تكن ايفا ، بل كان ما يخفونه هو البذرة الصغيرة الهشة لتلك الصورة الخالدة المشرقة التى سوف تعود بها يوم يبعث الموتى من القبور •

ثم انفض الجميع ، وعاد المشيعون الى المكان الذى لن يراها بعد، وكانت مارى فى غرفتها ذات الستائر المسدلة ، راقدة على الفراش تبكى وتئن ، فى حزن بالغ ، لا تستطيع كبته وتطلب بين لحظة وأخرى الى جميع الخدم أن يهتموا بأمرها • وهؤلاء لم يتسع لهم الوقت للبكاء بطبيعة الحال ، وفيم البكاء ؟ هكذا قالت لنفسها ، فان الحزن هو حزنها وهى موقنة أشد اليقين أنه ليس على وجه الأرض أحد شعر ، أو يشعر ، أو يستطيع أن يشعر بما تشعر به هى ، وكانت تقول :

ــ ان سانت كلير لم يذرف دمعة واحدة • انه لم يشاركنى فى حزنى، وانه لمن أشد العجب أن يبلغ تبلده هذا الحد من التحجر وعدم

الاحساس وهو يعرف بلا ريب مدى ما أعانيه ٠

والناس عبيد لأسماعهم وأبصارهم ، تلك حقيقة بلغ من صدقها أن كثيرين من الخدم ظنوا حقا أنها أشد الجميع حزنا فى هذه المأساة ، لا سيما وقد بدأت ماري تنتابها نوبات هستيرية ، ثم استدعت الطبيب لفحصها ، ثم أعلنت أخيرا أنها توشك أن تموت ٠ وهكذا وجد الخدم في الجرى هنا وهناك ، واحضار زجاجات المياه الساخنة ، واعداد الأقمشة الدافئة ، والتزاحم والتسابق ، ما شغل أفكارهم عن موت ايفا بعض الشيء ٠

ولكن توم كان مع ذلك يحس بشعور خاص يجذبه نحو سيده ، فكان يتبعه أينما سار ، فى حزن وأسى ، فلما رآه جالسا في غرفة ايفا شاحب الوجه صامتا ممسكا بكتابها المقدس الصغير مفتوحا أمام عينيه وان كان لا يرى شيئا مما فيه من كلمات أو حروف ،أدرك أنه يرى من الحزن فى هذه النظرة الساكنة الجامدة ، وفى هذه العين التي لا تنحدر منها دمعة ، أكثر من كل ما فى أنين ماري وتوجعاتها ٠

وعادت أسرة سانت كلير بعد أيام قليلة الى المدينة ٠ ذلك أن القلق المنبعث من الحزن فى نفس سانت كلير قد جعله يتوق الى مكان آخر ، ليغير مجرى أفكاره ٠ ولهذا غادروا البيت والحديقة بما فيها من قبر صغير ، وعادوا الى نيو أورلينز ، حيث راح سانت كلير يطوف بالشوارع يحاول أن يشغل نفسه بأى شيء يملأ ذلك الفراغ الأليم فى قلبه بالحركة والسرعة والانتقال من مكان الى آخر ،ولم يكن الذين يرونه فى الطريق أو يلقونه فى المقهى يعرفون مأساته الا بشارة الحداد التى على قبعته ٠ ذلك بأنهم كانوا يرونه يتحدث ويبتسم ويقرأ الصحف ويعلق على الأحداث السياسية، ويهتم بالشئون المالية والتجارية ، ومنذا الذى يستطيع أن يرى أن مثل هذه المناظر المرحة ليست الا غلافا أجوف ينطوى على قلب أشبه بقبر صامت مظلم ؟

وفى يوم قالت ماري لأوفيليا ، وفى قولها رنة الشكوى :

ـ ان سانت كلير رجل فريد فى نوعه ٠ فقد كنت أظن دائما أنه

اذا كان في هذه الدنيا شيء واحد يحبه ، فهو ابنتنا العزيزة الصغيرة ايفا ، ولكن يلوح أنه أخذ ينساها بكل سهولة • ذلك أنني لا أستطيع أبدا أن أغريه بالحديث عنها • ولقد كنت أظن بحق أنه سيظهر من الشعور أكثر مما أرى •

فقالت أوفيليا متمثلة باحدى الحكم :

ـ ان الماء الساكن هو الذي يغوص الى الأعماق أكثر من غيره • هكذا كانوا يقولون لى •

ـ انني لا أومن بمثل هذه الحكم • أنها كلها كلام لا أكثر • واذا كان للناس شعور فلا بد أن يظهر عليهم • فانهم لا يستطيعون اخفاءه ـ ولكن ـ ان من أكبر أسباب الشقاء أن يكون للانسان شعور ،وخير لدى أن أكون قد خلقت مثل سانت كلير ، فلشد ما يشقيني احساسي المرهف هذا •

وهنا قالت مامى :

ـ أؤكد لك يا سيدتي ان سيدى سانت كلير يزداد هـــزالا حتى أصبح كالشبح • وهم يقولون انه لا يأكل شيئا مطلقا • وأنا أعرف أنه لم ينس مس أيفا •

ثم مضت تقول وهى تمسح دموعها :

ـ وأنا أعرف أنه لم ينسها أحد ـ آه أيتها الطفلة الصغيرة العزيزة المباركة •

فقالت مارى :

ـ مهما يكن من أمر فانه لا يهتم بى فى قليل أو كثير • انه لم يوجه الى كلمة عطف واحدة ، وكان لابد له أن يدرك أن الأم لتحزن عـلى فقد ابنتها أشد من حزن أى رجل •

فقالت أوفيليا فى جد ووقار :

ـ ان القلب وحده ليعرف مرارة أحزانه •

ــ وهذا بعينه هو رأيى • فأنا أعرف حقيقة ما أشعر به ، ويبدو أن لا أحد غيرى يعرفه • وكانت ايفا تعرفه • ولكنها رحلت •

ثم تهتكت مارى على المتكأ وراحت تنتحب بحرقة •

وكانت مارى بين أولئك الذين جبلوا مع الأسف الشديد على أن يروا أن كل ما فقد أو ذهب عنهم ذو قيمة لم تكن له من قبل • أما ما تحت يدها فيبدو أنها لا تنظر اليه الا لتنقده حتى اذا راح منها أو ابتعد عنها راحت تقدره أعظم التقدير •

وفيما كان هذا الحديث يجرى فى غرفة الجلوس ، كان حديث آخر يجرى فى مكتبة سانت كلير •

وكان توم يتبع سيده فى قلق أينما ذهب ، فرآه فى هذه المرة يدخل المكتبة قبل ذلك الوقت بساعات • وبعد أن ظل فى انتظار خروجه ، بلا جدوى ، قرر فى النهاية أن يتظاهر بعمل شىء فيها ، فدخل برفق حيث رأى سانت كلير راقدا على وجهه فى الجانب الآخر من الغرفة ، وكتاب ايفا المقدس مفتوح أمامه • وتقدم توم ووقف بجانب الأريكة مترددا • وفيما هو على هذه الحالة من التردد ، رفع سانت كلير وجهه فجأة ، واذا الوجه الوفى المفعم بالحزن ، الزاخر بأمارات اللهفة والرجاء والحب يترك فى نفس سيده أعمق الأثر • فوضع يده على يد توم ، وأراح جبينه عليها وقال :

ــ يا ولدى توم • ان العالم كله فى نظرى فارغ كأنه قشرة البيضة •

فقال توم :

ــ أنا أعرف هذا يا سيدى ــ أعرفه • ولكن لو أن سيدى تطلع الى أعلى ــ الى حيث تقيم العزيزة أيفا •• الى حيث يقيم السيد المسيح العزيز •

ــ آه يا توم • انى أنظر الى أعلى ، ولكن المشكلة هى أنى لا أرى شيئا حين أنظر • وليتنى أستطيع أن أرى شيئا •

فتنهد توم من قلب كليم ، ومضى سانت كلير يقول :

ـ يبدو أن الأطفال وحدهم ، والمساكين المخلصين أمثالك هم الذين يرون ما لا نستطيع نحن أن نراه • فكيف يكون هذا ؟

فغمغم توم مرددا :

« لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للأطفال • نعم، لأنه هكذا صارت المسرة أمامك • »

فقالت سانت كلير :

ـ توم • اننى لا أصدق ـ ولا أستطيع أن أصدق • فقد تعودت الشك • وانى لأرغب فى أن أصدق ما جاء فى هذا الكتاب المقدس ـ ولكننى لا أستطيع •

ـ ابتهل يا سيدى العزيز الى الرب الرحيم ـ وقل « يا رب أنا أومن ، فأعن عدم ايمانى »

وشردت عينا سانت كلير شرود الحالم وأخذ يقـــول لنفسه وهو يردف قائلا كأنما يحدث نفسه :

ـ منذا الذى يعرف شيئا عن أى شىء ؟ وهل لم يكن كل هـــذا الايمان والحب الجميل الا ظاهرة من مظاهر الشعور الانسانى الدائم التغير ، ليس فيه حقيقة يستند اليها ، وقد مضى مع النفس الصغير ـ وهل لم يعد هناك ايفا ـ ولا سماء ـ ولا مسيح • ولا شىء ؟

وهنا ركع توم وقال :

ـ لا ، يا سيدى العزيز • بل ان هذا كله هناك • فأنا أعرف هذا وأنا واثق منه•• وأرجوك يا سيدى العزيز أن تؤمن به •

ـ كيف تعرف أن الله موجود حقا ؟ انك لم تره أبدا يا توم ؟

ـ انى أشعر به فى روحى يا سيدى • وأشعر به الآن • عنـدما انتزعت يا سيدى من زوجتى وأولادى ، كادقلبى يتحطم ، وأحسست بأنه لم يبق لى شىء أعيش من أجله • وعندئذ رأيت كأن الله واقف أمامى يقول لى « لا تخف يا توم » ثم ملأ روحى أنا المسكين البائس

بالنور والبهجة وجعل كل شيء سلاما فى سلام ، وأنا الآن جدسعيد وأحب كل انسان • وأحس بالرضى بمايريد الله ، واستسلمتلمشيئته ورضيت بالمكان الذى يريد أن يضعنى فيه • وأنا أعرف أن هذا كله لم يكن من صنع يدى ، وانما هى ارادة الله • فما أنا الا مخلـــوق مسكين بسيط • أشكو وأتألم • وانى لأعرف أن الله يريد بك خيرا •

وكان توم يتحدث بصوت مختنق ، ودموعه منهمرة ، فأراح سانت كلير رأسه على كتفه ، وشد على اليد القوية الأمينة الوفية وقال له :

ــ توم • هل تحبنى ؟

ــ انى مستعد أن أضحى بحياتى ، الآن ، لكى أرى انسانا مؤمنا بحق •

وهنا قال سانت كلير وهو يهم بالنهوض :

ــ يا لك من ولد أحمق مسكين • اننى غير جدير بحب انســـان مخلص طيب القلب مثلك •

ــ آه • يا سيدى ان هناك من يحبك أكثر منى ــ انه المسيح ، انه يحبك •

فقال سانت كلير :

ــ وكيف تعرف هذا يا توم ؟

ــ أحسه بروحى يا سيدى •

فقال سانت كلير وهو يولى وجهه عنه :

ــ هذا عجيب • أيمكن لقصة رجل عاش ومات منذ ألف وثمانمائة عام أن تؤثر فى الناس حتى الآن ؟

ثم أضاف قائلا فجأة :

ــ ولكنه لم يكن مجرد رجل ــ فلم يكن لرجل فى يوم ما هذهالقوة الحية الباقية • آه ليتنى أستطيع أن أومن بما علمتنى اياه أمى ، وأن أصلى كما كنت أصلى وأنا طفل •

فقال توم :

ـ اذا سمح سيدى لى قلت ان المس ايفا كانت تقرأ لى هذا الفصل من الكتاب المقدس قراءة جميلة • وأحب أن يسمح سيدى بأن يقرأه لى • فأنا لا أكاد أجد من يقرأ لى منذ رحيل المس ايفا •

وكان الفصل هو الاصحاح الحادى عشر من انجيل يوحنا ، وهو القصة المؤثرة التى تدور حول قيامة لعازر • وراح سانت كلير يقرأ وهو يحاول بين الحين والآخر أن يصارع المشاعر التى أثارتها أشجان القصة • وكان توم راكعا أمامه ، عاقدا أصابع يديه ، وقد علت وجهه سمات الحب والثقة والخشوع •

وقال له سيده :

ـ يا توم • ان كله حقيقة فى نظرك •

فقال توم :

ـ انى أراه واضحا أمامى يا سيدى •

ـ ليت لى عينيك يا توم •

ـ وهذا يا سيدى ما أتمناه على الله •

ـ ولكنك تعرف يا توم ، اننى أكثر منك علما ، فماذا لو أنى قلت لك انى لا أومن بهذا الكتاب المقدس •

فرفع توم يديه بحركة من يستعيذ بالله من هذا ثم قال :

ـ آه ـ يا سيدى •

ـ ألا يزعزع قولى هذا ايمانك يا توم بعض الشىء •

فأجاب توم :

ـ ولا قيد أنمله يا سيدى •

ـ عجبا يا توم ! يجب أن تعلم أننى أكبر منك علما •

فقال توم وهو قلق مضطرب :

ـ آه • أنم تقرأ الآن يا سيدى أن الله يخفى عن الحكماء والفهماء م يعلنه للأطفال ؟ ولكنى هل كان سيدى الآن جادا فيما يقـول ، واثقا منه ؟

ـ بالتأكيد الآن

ـ لا يا توم • لم أكن جادا • اننى لا أرتاب • بل أعتقد أن هناك من الأسباب ما يدعو للايمان ولكنى مع هذا لا أومن ، وهى عـــادة سيئة مزعجة من عاداتى يا توم •

ـ ليت سيدى يلجأ الى الصلاة •

ـ وكيف تعرف أننى لا أصلى يا توم ؟

ـ وهل يصلى سيدى ؟

ـ ليتنى أجد أحدا الى جانبى وأنا أصلى • ولكننى أتحـــدث فى الصلاة الى لا شيء • هلم يا توم ، صـــل الآن لأعرف كيف تـكون صـــلاتك •

وكان قلب توم جياشا ، فراح يسكب ما فيه بالدعاء والصـــــلاة كالماء الذى طال احتباسه • وكان ثمة شيء واحد شديد الوضوح فى صلاته ، وهو أن توم كان يؤمن بأن هناك من يسمع صلواته • سواء رآه بعينيه أو لم يره • والحق أن سانت كلير قد أحس بأنه محمول على تيار ايمانه الدافق وشعوره القوى الى ما يقرب من أبواب ملكوت السماء الذى يلوح أنه يراه بوضوح • وخيل اليه أن هـــــذا يزيده قربا من آيفا •

وقال سانت كلير لتوم عندما نهض :

ـ شكرا لك يا ولدى • انى أحب أن أسمع منك فوق ما سمعت يا توم ولكن اذهب الآن واتركنى وحدى • وسأتحدث اليك أكثر من هذا فى وقت آخر •

وانصرف توم من الغرفة دون أن ينطق بكلمة واحدة •

الفصل الثامن والعشرون

اجتماع الشمل

انصرمت الأسابيع ، الواحد بعد الآخر في قصر سانت كلير ،ولم تلبث تيارات الحياة أن عادت الى مجراها العادى بعد أن غرقت فيه تلك السفينة الصغيرة • ذلك لأن الحياة بقسوتها وجحودها وتعاليها واستخفافها بمشاعر الفرد ، لا تتوقف عن المضى • ان مجرى الحقائق اليومية الجامد ، الفاتر ، الخالى من المتعة لا ينفك عن المسير بما عرف عنه من غطرسة وفتور وعدم مبالاة بمشاعر الناس • ولا نزال ملزمين بأن نأكل ونشرب وننام ثم نصحو مرة أخرى ! ونبيـــع ونشترى ونساوم ، ونسأل ونجيب عن الأسئلة ، وعلى الجملة تتابع آلاف الشواغل رغم أن اهتمامنا بها قد انقضى وبقيت عادة العيش الآليـة كما هى بعد أن زال كل ما كان لنا من اهتمام شديد بها •

لقد كانت كل آمال سانت كلير فى حياته وأسباب اهتمامه بهـــا قد دارت وتركزت دون أن يشعر ، حول هذه الطفلة • فمن أجـــل ايفا كان يدير ممتلكاته ، ومن أجل ايفا كان قد وضع الخطة للتصرف فى أوقاته ، وكان يفعل هذا أو ذاك من أجل ايفا ــ كان يشـــترى ويصلح ، ويبدل وينظم أو يتخلص من هذا الشىء أو ذاك من أجلها • وقد بلغ من اعتياده هذا كله أنه لم يعد ، بعد أن رحلت ، يجد كما يبدو له ، شيئا يفكر فيه ، أو يقوم بأدائه •

نعم ان ثمة حياة أخرى ، حياة اذا آمن الانسان بها ، وجد أنهـا تقوم كرمز مهيب عظيم الدلالة أمام أحداث الزمن التافهة العـــديمة المعنى ، ثم تحـــولها الى نظم ذات قيمة خفيـــة هائلـــة • وكان سانت كلير يدرك هذه الحقيقة كل الادراك • وكثيرا ما سمع فى غير

قليل من أوقات الاعياء والتعب ، صوت طفلته الرقيــق يدعوه الى ملكوت السماء ورأى تلك اليد الصغيرة ترشده الى طريق الحياة . ولكن التراخى والكسل الناشئين من أحزانه الثقال كانا ثقيلى العبء عليه لا يستطيع النهوض بهما . لقد كان من أولئك الذين يستطيعون بطبيعتهم أن يفكروا فى المسائل الدينية متأثرين فى هــذا التفكير بمداركهم وغرائزهم تفكيرا أحسن وأكثر وضــوحا من كثيرين من المسيحيين العاديين العمليين . ذلك أن ملكة تقدير مراتب الشئون الخلفية الدقيقة وما بينها من علاقات والقدرة على الشــعور بهذه المراتب والعلاقات ، أن هذه الملكة كثيرا ما تبدو أنها من خصــائص الذين يخيل الينا من حياتهم كلها أنهم لا يبالون بها . ومن هنا كان مور وبيرون وجوتيه يتطلعون أحيانا لعبارات أكثر حكمة فى تعبيرها عن العاطفة الدينية الحقة من أى رجل آخر قضى حياته كلها خاضعا لهذه العاطفة . ففى أمثال هذه العقول يعتبر الاستخفاف بالدين خيانة أشد رهبة ، وخطيئة أشنع مما هى عند الخاضع طول حياته لهذه العاطفة .

ولم يدع سانت كلير أبدا أنه التزم المبادىء الدينية فى حياته . ولكن نوعا من رقة الطبع أتاح له أن يلم الماما غريزيا بمدى ماينبغى أن يكون عليه الرجل المتدين ، ولهذا كان ينفر مقدما مما كان يحس أن ضميره سوف يزعجه بسببه اذا ما قرر أن يلتزم مبادىء الدين . ذلك أن الطبيعة البشرية وبخاصة عند المثاليين تبلغ من التناقض حدا يبدو معه أن عدم قيام الانسان بأمر ما خير من عدم أدائه على الوجه الأكمل .

ومع ذلك فقد غدا سانت كلير ، فى نواح كثيرة ، غير ما كان من قبل . فقد أخذ يقرأ كتاب ايفا المقدس بجد واهتمام وأمانة ، ويفكر فى علاقاته بخدمه تفكيرا أكثر هدوءا وأقرب الى الواقعية من سابق عهده . وقد بلغ تفكيره هذا حدا يكفى لأن يسخطه أشد السخط على خطته الماضية والحاضرة فى معاملتهم . وكان أول ما عمله عقب عودته الى نيو اورليينز ، هو اتخاذ الخطوات القانونية اللازمة لتحرير توم وهو التحرير الذى قرر ألا يتأخر عن الــوقت اللازم للفــراغ من

الاجراءات الضرورية الشكلية . وأخذ فى الوقت نفسه يزيد من توطيد علاقته بتوم يوما بعد يوم . فقد بدا له انه لم يكن فى العالم كله شيء آخر يذكره بايفا . ومن ثم كان يصر على بقائه دائما بجانبه . وكان رغم شدة تحفظه فيما يتعلق بمشاعره العميقة الخاصة يكاد يفضى الى توم بكل ما فى نفسه . وما كان لأحد أن يعجب لهذا لو أنه رأى نوع الحب والوفاء والتفانى الذى كان توم يلازم به سيده الشاب .

وقال سانت كلير لتوم بعد اليوم الذى بدأ فيه باتخاذ الاجراءات القانونية لتحريره مباشرة :

ـ اسمع يا توم . سوف أحررك من الرق . ولهذا عليك أن تحزم حقيبتك وتستعد للعودة الى كنتكى .

ولم يسر سانت كلير كثيرا حين رأى ومضة البهجة على وجه توم وهو يرفع يديه الى السماء وقوله فى لهجة حارة « الحمد لله » ذلك أنه لم يكن يتوقع أن يفرح توم هذا الفرح كله بفراقه . ومن ثم قال بجفاء :

ـ ان الأيام التى قضيتها هنا يا توم لم تكن بالغة السوء الى هذا الحد الذى أثار فيك هذه النشوة كلها .

ـ لا لا يا سيدى ، ليس الأمر كذلك ، بل ان الشعور بالحرية هو الذى ملأ قلبى بكل هذه البهجة .

ـ عجبا ياتوم . ألا ترى أنك بنوع خاص كنت أحسن حالا مما ستصير اليه بعد أن تنال حريتك ؟

فقال توم فى ومضة من النشاط العظيم :

ـ لا ياسيدى سانت كلير ، أبدا .

ـ ولكنك ياتوم ما كنت لتستطيع أن تكسب من عملك ما تشترى به مثل هذه الملابس وأن تعيش فى هذا المستوى الذى أتحته لك .

ـ اننى أعرف هذا كله ياسيدى سانت كلير ، وأعرف أن سيدى

كان مسرفا معى فى الكرم • ولكننى أفضل أن أرتدى ملابس رخيصة، وأقيم فى كوخ بسيط ، أو عش وضيع ، وأن تكون هذه كلها ملكى، على أن يكون لدى أفضل الأشياء وأن تكون هذه لرجل آخر • هذه هى الحقيقة ياسيدى ، وأعتقد أنهـــا الطبيعة البشرية فيمـــا أظن ياسيدى •

ـ وأنا أظن ذلك أيضا ياتوم •

ثم أردف قائلا فى لهجة حزينة :

ـ ولسوف تمضى الى شأنك وتتركنى فى خلال شهر أو نحوه •

ثم قال بصوت أكثر من ذى قبل مرحا :

ـ وان كان انسان ما لا يعرف لم لا تفعل هذا •

ثم نهض قائما وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا •

فقال توم :

ـ لا ياسيدى • لن أترك سيدى مابقيت له متاعبه • لسوف أبقى مع سيدى مادام محتاجا الى وما دمت أستطيع أن أكون ذا فائدة له•

فقال سانت كلير وهو ينظر بحزن من خلال النافذة :

ـ مابقيت لى متاعبى ياتوم ؟! ومتى تزول عنى متاعبى ؟

فرد عليه توم قائلا :

ـ عندما يدخل سيدى سانت كلير فى زمرة المؤمنين •

فقال سانت كلير وهو يستدير عن النـــافذة وقد افتر ثغره عن ابتسامة صغيرة

ـ وهل تنوى حقا أن تبقى معى حتى يحل ذلك اليوم ؟

ثم وضع يده على كتف توم ومضى يقول :

ـ آه ياتوم ، أيها الولد الأحمق العطوف ! اننى لن أستبقيك الى ذلك اليوم ، عد الى بيتك وزوجتك وأبنائك واحمل اليهم حبى ٠

فقال توم فى جد وقد ترقرق الدمع فى عينيه :

ـ ان من الايمان أن تعتقـد أن ذلك اليوم آت ٠ وأن لله عمـلا ستقوم به له ٠

فقال له سانت كلير :

ـ أتقول عملا ؟ اذن فما هو رأيك ياتوم فى نوع هذا العمل وماذا يكون !

ـ عجبا ! ان كل انســان حتى من كان مثلى ضعيفا مسكينا له عند الله عمل يجب أن يقوم به ٠ وان سيدى سانت كلير لرجـل ذو علم ، ومال ، وأصدقاء فما أكثر مايستطيع أن يعمل فى سبيل الله ٠

فقال سانت كلير وهو يبتسم :

ـ توم ، يبدو أنك تعتقد أن الله فى حاجة الى كثير مما يجب أن يعمله الانسان فى سبيله ٠

فأجاب توم قائلا :

ـ ان ما تقوم به من خير لخلق الله ، انما تعمله فى سبيله ٠

فرد عليه سانت كلير بقوله :

ـ هذا تفقه فى الدين طيب ياتوم وأؤكد لك أنه خير مما يعظ به الدكتور « ب »

وهنا انقطع الحديث حين أعلنت احدى الخادمات حضـور بعض الزائرين ٠

وكانت مارى سانت كلير قد شعرت بفدح الخطب الذى نزل عليها بموت ايفا بأشد مما تستطيع أن تشعر به اذا نزل عليها أى خطب سواه ، واذ كانت هى سيدة ذات قدرة عظيمة على أن تسبب التعاسة

لكل من يحيط بها اذا كانت هى نفسها تعسة ، فقد وجد أتباعهـــا المحيطون بها فى هذا سببا أقوى للحزن على موت سيدتهم الصغيرة التى كانت بأساليبها اللطيفة ، وشفاعتهـــا الجميلة ، تحميهم فى أحيان كثيرة من جور أمهـا ومطالبهـــا الأنانية • وكاد قلب مامى العجوز المسكينة ، بنوع خاص ، أن يتحطم لأن هـــذا القلب قـد تمزقت فيه كل الوشائج الطبيعية التى تربطها بزوجها وأبنائهـا ، وكانت من أجل ذلك تعزى نفسها بحب هذه الطفلة الجميلة • ولا عجب أن راحت تبكى ليلا ونهارا وان كانت لفرط حزنها قد أضحت أقل حذقا فى عملها وأقل يقظة فى القيام بمطالب سيدتها عما كانت من قبل ، وكان هذا يؤدى الى عاصفة دائمة من الشتائم تصب عـلى رأسها ولا تستطيع أن تجد ماتدافع به عن نفسها •

وأحست المس أوفيليا أيضا بفدح الخطب ولكنه أثمر فى أعماق قلبها الطيب الوفى ثمرة لم تفارقها طوال حياتهـــا • فقد أصبحت أكثر رقة وتلطفا ومع أنها ظلت حريصة على أداء جميع واجباتهـــا كما كانت من قبل ، وأنها كانت تؤديها وهى أكثر هدوءا وتسامحا كما يفعل الشخص الذى يناجى قلبه فيستجيب قلبه لمنـــاجاته • وكانت أكثر جدا ونشاطا فى تعليم توبسى ــ وكان أكثر ما تستمد منه تعليمها هو الكتاب المقدس • ولم تعد تنفر من لمسها ، أو يستبين عليها الاشمئزاز المكبوت لأنها لم تعد تشعر بهذا الاشمئزاز فعلا ، بل كانت تنظر اليها من خلال هـــذا الوسط اللطيف الذى رفعتـه يد ايفا أمام عينيهـــا لأول مرة ، ولم تعد ترى فيهـــا الا مخلوقا خالدا أرسله الله اليها لتقوده الى المجـــد والفضيلة • ولم تصـــبح توبسى قديسة بين يوم وليلة ، ولكن حيــــاة ايفا وموتها قد غـيرا نفسيتها تغييرا واضحا • فذهب عنها مظهر استهتارها الشـــديد ، وحل محله الآن ادراك قوى ورغبة فى عمل الخير ، وسـعى لفعله ، قد يتوقف أحيانا ، وكثـيرا ما يرجأ ويؤجـل ، ولـكنه لا يلبث أن يتجدد •

وحدث فى ذات يوم أن استدعتها المس أوفيليا فجاءت بعـــد أن دست على عجل شيئا فى صدرها ، وعندئذ قالت لها روز المتغطرسة التى ذهبت لاستدعائها وهى تمسك بذراعها فى عنف

ـ ماذا تفعلين هناك يا لعينة؟ لا شك عندى فى أنك كنت تختلسين شيئا ٠

فقالت توبسى وهى تنتزع ذراعها من قبضتها :

ـ اذهبى عنى يا آنسة روز ، فليس هذا من شأنك ٠

فقالت روزا

ـ انك لن تخدعينى بهذا ! فلقد رأيتك تخفين شيئا ، وأنا أعرف ألاعيبك ٠

ثم أمسكت بذراعها ، وحاولت أن تدس يدها عنوة فى صدرها ، ولـــكن توبسى ، وقد أثارها الغضب ، راحت تقاوم وتركل بقـوة وعزيمة دفاعا عما تراه من حقهـا ، وأقبلت المس أوفيليا وســانت كلير عند سماع هذه الضجة وهذا العراك ، فقالت روزا لهما ٠

ـ لقد كانت تسرق ٠

فصاحت توبسى بقوة وهى تشهق وتنتحب :

ـ اننى لم أسرق شيئا ٠

فقالت المس أوفيليا بحزم :

ـ اعطنى ما تخفينه أيا كان ٠

وترددت توبسى ، ولكنها حين تكرر الأمر ، تناولت من صــدرها لفافة صغيرة ملفوفة فى قدم أحد جواربها القديمة ٠

وفضت المس أوفيليا اللفافة ، فوجدت بها كتابا صــغيرا كانت ايفا قد أعطته لتوبسى ، ويحتوى على آية من آيات الكتاب المقدس ، لكل يوم من أيام الســنة ٠ وورقة مطوية على خصلة الشــعر التى أعطتها ايفا فى ذلك اليوم المشهود الذى ودعتهم فيه وداعها الأخير ٠

وكان لرؤية هذه الخصلة وذلك الــكتاب أعمــق الأثر فى نفس سانت كلير ، ذلك أن الكتاب الصغير كان ملفوفا بقطعة مستطيلة من القماش الأسود اقتطع من وشائح الجنازة ٠

وقال سانت كلير وهو يمسك بقطعة القماش

ـ لماذا تلفين الكتاب بهذه ؟

فقالت له :

ـ لأن ـ لأن ـ لأنها ـ من أثر المس ايفا ، أرجوك ألا تأخذ هذه الأشياء منى ، أرجوك ٠

ثم تربعت على الأرض ، وغطت رأسها بميدعتها ، وراحت تنتحب بحرقة ٠

وكان المنظر مزيجا من الأسى والفكاهة : الجورب الصغير القديم، وقطعة القماش السوداء ، والكتاب المدرسى ، وخصلة الشعر الذهبية الناعمة ، وحزن توبسى الشديد ، ولم يسع سانت كلير الا أن يبتسم ولكن الدموع كانت تترقرق فى عينيه وهو يقول :

ـ كفى ٠٠ كفى ٠٠ لا تبكى ٠ ستحتفظين بها كلها ٠

ثم جمع هذه الأشياء وألقى بها فى حجرها ٠ وبعـــد أن صحب المس أوفيليـــا الى غرفة الجلوس ، قال لهـــا وهو يشير بابهامه الى الصبية من وراء ظهره :

ـ أعتقد حقا أن فى مقدورك استغلال هذا الحادث ٠ فالعقل الذى يستطيع أن يحزن هذا الحزن الحقيقى يستطيع أن يفعـــل الخير ٠ وعليك أن تحاولى فعل شىء معها ٠

فقالت أوفيليا :

ـ لقد تحسنت الصبية كثيرا ، وان آمالى فيها لعظيمة ٠ ولكن٠٠٠

ثم وضعت يدها على ذراعه ومضت تقول :

ـ ولكن لدى يا أوجستين ســـؤالا أريد أن أعرف اجابته ٠ لمن ستكون هذه الطفلة ، لك أو لى ؟

فقال أوجستين :

ـ عجبا ! لقد وهبتها لك ٠

فردت عليه أوفيليا بقولها :

ـ ولكن ذلك لم يكن بعقد قانونى ٠ وأنا أريد أن تكون لى قانونا ٠

ـ ما هذا يا ابنة العم ! وماذا تظن جمعية الغاء الرق عندئذ ؟ لا شك أن أعضاءها سيحددون يوما للصوم بمناسبة هذه الردة من جانبك اذا أصبحت مالكة للعبيد ٠

ـ هراء ٠ انى أريدها قانونا حتى أستطيع أن أمضى بها الى الولايات الحرة لأمنحها حريتها ، وحتى لا يمكن أن ينقض كل ما أحاول القيام به ٠

ـ ما أفظع هذا يا ابنة العم ٠ أتصنعين شرا عسى أن ينتهى الى خير ٠٠ انى لا أشجعك على هذا ٠

فقالت أوفيليا :

ـ لا أريدك أن تمزح ، بل أريد أن تجادلنى منطقيا ٠ فأنا لا أرى أية جدوى من تعلم هذه الطفلة مبادىء الدين المسيحى الا اذا أنقذتها من جميع احتمالات العبودية وآثامها ٠ واذا كنت راغبا حقا فى اعطائى اياها ، فأنا أريد وثيقة قانونية تثبت فيها نزولك عنها أو أية وثيقة قانونية أخرى ٠

فقال سانت كلير :

ـ سأفعل هذا يقينا ٠

ثم جلس وتناول صحيفته وراح يقرأ ٠ ولكن أوفيليا قالت :

ـ ولكننى أريد كتابتها الآن ٠

ـ وفيم التسرع ؟

فقالت أوفيليا

ـ لأن هذا الوقت هو دون غيره الذى يمكن أن نفعل فيه شيئا ٠

هيا ـ هـــذا هو القلم ، والورق ، والمداد ٠ وما عليك الا أن تكتب الوثيقة ٠

وكان سانت كلير يكره من صميم قلبه هذه العجلة فى العمـــل أيا كان شأنه فى هذا شأن الكثرة الغـــالبة ممن لهم مثل عقليته ٠ ولهذا أحس بالاستياء الشديد من موقف أوفيليا الحازم وقال :

ـ عجبا ! ماذا جرى ؟! ألا تثقين بوعدى ؟ أن الانسان ليظن أنك تتعلمين من اليهود !

فردت عليه أوفيليا بقولها :

ـ انى أريد أن أطمئن الى هذا العمل ، فانك قد تموت أو تفلس ، وعندئذ تباع توبسى فى المزاد رغم كل ما أستطيع فعله ٠

ـ حقا انك لبعيدة النظر ٠ وما دمت قد وقعت فى براثن شخصية أمريكية ، فلا سبيل لى غير الموافقة ٠

وكتب سانت كلير بسرعة وثيقة الهبة ٠ واذ كان عظيم الالمـــام بالصيغة القانونية فقد كان يسهل عليه أن يكتبها ثم وقعهـــا باسمه بحروف كبيرة منبطحة منتهية بذيل ضخم ، ثم قال وهو يقدمها الى أوفيليا :

ـ هذه هى ٠ انها وثيقة واضحة قانونية يا مس فيرمونت ٠

فقالت المس أوفيليا وهى تبتسم :

ـ مرحى ٠ ولكن ألا ينبغى أن يوقع عليها شاهد ؟

ـ أوه ٠ يا للمضايقة ٠٠ نعم ٠٠

ثم فتح الباب المؤدى الى غرفة مارى زوجته وقال :

ـ مارى ٠ أن ابنة العم تريد توقيعك ٠ فاكتبى اسمك فى هـــذا المكان ٠

فقالت مارى وهى تمر على الورقة بنظراتها :

ـ ما هذا ؟ يا للعجب ! كنت أظن أن ابنـة العم أتقى وأسمى من أن تفعل مثل هذا العمل الفظيع ٠

ثم أضافت قائلة وهى توقع باسمها فى غير اهتمام :

ـ ولكن اذا كانت راغبة فى هذه السلعة ، فلتأخذها وتهنأ بها ٠

وقال سانت كلير وهو يسلم الورقة لأوفيليا :

ـ والآن ٠ قد أصبحت توبسى ملكا لك ، جسدا وروحا ٠

ـ انها الآن ليست ملكى ، أكثر مما كانت ملكا لى من قبـل ٠ وليس لأحد غير الله الحق فى أن يهبها لى ٠ ولـكننى أستطيع الآن حمايتها ٠

فقال سانت كلير بعد أن رجع الى غرفة الجلوس وجلس ليواصل قراءة صحيفته :

ـ انها ملك لك الآن بحكم القانون ٠

وتبعته أوفيليـا الى غرفة الجلوس ، وقلما كانت تكثر البقـاء مع مارى فى غرفة واحدة ، وذلك بعد أن احتفظت بالورقة فى موضع أمين ، ثم قالت فجأة وهى تجلس وتبدأ أشغال الابرة :

ـ قل لى يا أوجستين ٠ ألم تتخذ أى احتياط لمصلحة خدمك اذا ما مت ؟

فقال وهو مستمر فى القراءة :

ـ لا ٠

ـ اذن فان كل تدليلك لهم وتسامحك معهم سينقلب الى قسـوة رهيبة فيما بعد ٠

وكثيرا ما خطر هذا نفسه ببال سانت كلير ، ولكنه قال فى غـير اهتمام :

ـ اننى أنوى أن أتخذ بعض الاحتياطات فى وقت قريب ٠

فسألته أوفيليا :

ــ ومتى ؟

ــ فى يوم ما ٠

ــ وكيف تكون الحال لو أنك مت قبل هذا ؟

فوضع سانت كلير الصحيفة جانبا وقال لأوفيليا وهو يحدق النظر اليها :

ــ ماذا حدث يا ابنة العم ؟ هل ترين على عوارض الحمى الصفراء أو الكوليرا ، فلذلك تطالبين باتخاذ اجراءات مابعد الوفاة بهذه الحماسة العظيمة ؟

فقالت المس أوفيليا :

ــ ان الموت كامن لنا ونحن فى عنفوان الحياة ٠

فنهض سانت كلير واقفا ، وألقى بالصحيفة جانبا وسار فى غير عناية نحو الباب المؤدى الى الشرفة ليضع حدا لهذه المحادثة التى لم يكن راضيا عنها ٠ وكرر كلمة « الموت » بطريقة آلية ، ثم اعتمد بيديه على سياج الشرفة ، وراح يتأمل مياه النافورة المتلألئة وهى ترتفع وتهبط ، وفيما هو ينظر رأى فى سحابة من الذهول الأزهار والأشجار وآنية الزهور فى الفناء ، كأنها تحجبها عنه غلالة ، ثم راح مرة أخرى يكرر هذه الكلمة الخفية الشائعة على كل لسان رغم ما تنطوى عليه من قوة رهيبة « الموت » وقال لنفسه : « من العجيب أن يوجد هذا اللفظ هو ومعناه ، ومع ذلك ينساه الانسان على الدوام ، وأن يكون الانسان فى يوم حيا ملء القلب بالآمال والرغبات والمطالب ، واذا هو فى اليوم التالى قد ذهب ٠٠ ذهب الى غير رجعة والى الأبد » ٠

وكان المساء دافئا ، ذهبيا ، فلما مضى الى نهاية الشرفة أبصر توم مكبا على كتابه المقدس ، مشيرا باصبعه وهو يقرأ فيه ، الكلمة بعد الكلمة ، ويهمس بها فى نفسه بجد واهتمام ٠

فقال سانت كلير وهو يجلس بجانبه فى غير اهتمام :

ـ أتريد أن أقرأ لك ياتوم ؟

فقال توم شاكرا :

ـ اذا سمح سيدى ، فان سيدى سيجعل الكلمات أكثر وضوحا ٠

وتناول سانت كلير الكتاب ، ونظر الى الموضع الذى كان توم يطالع فيه وشرع يقرأ احدى الفقرات التى حددها توم من قبل بعلامات واضحة حولها ٠ وكانت كما يلى : « ومتى جاء ابن الانسان فى مجده وجميع الملائكة القديسين معه ، فحينئذ يجلس على كرسى مجده ، ويجتمع أمامه جميع الشعوب فيميز بعضهم من بعض ، كما يميز الراعى الخراف من الجداء »

وظل سانت كلير مستمرا فى القراءة بصوت قوى ملىء بالحياة حتى وصل الى آخر تلك الآيات :

« ٠٠ ثم يقول أيضا للذين عن اليسار : اذهبوا عنى يا ملاعين ، الى النار الأبدية ٠٠ لأنى جعت فلم تطعمونى ، عطشت فلم تسقونى ، كنت غريبا فلم تأوونى ٠ عريانا فلم تكسونى ، مريضا ومحبوسا فلم تزورونى ٠ حينئذ يجيبونه هم أيضا قائلين : يارب متى رأيناك جائعا أو عطشانا ، أو غريبا ، أو عريانا ، أو مريضا ، أو محبوسا ، ولم نخدمك ؟ فيجيبهم قائلا : الحق أقول لكم : بما أنكم لم تفعلوه بأحد هؤلاء الأصاغر فبى لم تفعلوا ٠٠ »

وبدا أن هذه الفقرة الأخيرة تركت فى نفس سانت كلير أثرا عميقا ، لأنه قرأها مرتين ، وكان يقرؤها فى المرة الثانية وكأنما يدير كلماتها فى ذهنه وأخيرا قال :

ـ توم ٠ يبدو أن هؤلاء الناس الذين سينالون العقاب الشديد كانوا يفعلون ما كنت أفعل ، يحبون حياة طيبة ، ناعمة ، محترمة ، دون أن يشغلوا أنفسهم بالسؤال ، كم من اخوانهم يعانون آلام الجوع والظمأ أو المرض أو الحبس ٠

ولم يجب توم بشىء ، ونهض سانت كلير ، وراح يذرع الشرفة

جيئة وذهابا وهو مستغرق في التفكير ، ولاح أنه ، في استغراقه هذا ، قد نسى كل شيء • وقد بلغ من ذهوله أن اضطر توم الى تنبهه مرتين الى أن جرس الشاى قد دق ، قبل أن ينتبه •

وظل سانت كلير طيلة فترة الشاى وهو ذاهل مستغرق فى أفكاره ، وبعد الفراغ من الشاى ، جلس هو ومارى وأوفيليا فى غرفة الجلوس ، لا يكادون ينطقون بكلمة •

وتراخت مارى على متكأ تدور حوله كلة من الحرير ، لمنع دخول البعوض ، وسرعان ما استغرقت فى النوم ، وشغلت أوفيليا نفسها ، فى صمت ، بأعمال الابرة • وجلس سانت كلير الى البيان وراح يعزف عليه مقطوعة رقيقة محزنة • وكان يبدو أنه مستغرق فى حلم عميق من أحلام اليقظة ، وأنه يتحدث الى نفسه بالموسيقى • وقام بعد فترة وجيزة ، وفتح أحد الأدراج ، وتناول كتابا موسيقيا قديما اصفرت أوراقه بفعل الزمن ، ثم بدأ يقلب صفحاته وهو يقول لأوفيليا :

ـ أنظرى ! لقد كان هذا كتابا من كتب أمى ، وهذا هو خطها ، تعالى وانظرى اليه ، لقد نسخته ونسقته من مقطوعة موسيقية لموتزار ، وهى صلاة على روح الموتى •

وأقبلت أوفيليا استجابة لرغبته • ومضى سانت كلير يقول :

ـ لقد كان هذا لحنا كثيرا ما كانت تغنيه • ويخيل الى أننى أسمعها الآن •

ثم عزف نغمات قليلة فخمة وبدأ يغنى تلك المقطوعة اللاتينية الرائعة التى تتحدث عن الموتى فى يوم الحساب •

وجذب الغناء توم وكان يجلس فى الشرفة الخارجية ـ حتى وصل الى باب الغرفة ، حيث وقف ينصت باهتمام شديد • ولم يفهم بطبيعة الحال ألفاظ الأغنية اللاتينية ، ولكن روعة الأنغام ، كما يبدو ، هى وطريقة الغناء قد أثرتا فيه أشد التأثير ، وخاصة عندما كان سانت كلير يغنى الأجزاء المشجية منها كثيراً ، ولو أن توم كان

يعرف معنى تلك الألفاظ الجميلة لكان أثرها فى نفسه أقوى •

« انى أذكر ، يا يسوع ، لأى سبب

فلا تضيعنى فى تلك المحنة القاسية

لقد أسرعت تبحث عنى حتى وهنت قدماك

فلا تدع هذه التضحيات كلها تضيع سدى »

وكان سانت كلير يضيف الى تلك الألفاظ ، التعبير أنقوى العميق الشجى • فقد خيل اليه أن غلائل السنين الحاجبة قد ارتفعت عن بصيرته ، وأنه يسمع صوت أمه يصحب صوته ، وأن النغم والآلة كلتيهما كائن حى ، وأنهما تبعثان شعورا حيا قويا فى هذه الألحان التى رأى فيها موتزار صلاة على روحه هو••

ولما فرغ سانت كلير من الغناء ، جلس متكئا برأسه على يده بضع لحظات ، ثم نهض وراح يذرع الغرفة غدوا ورواحا ، وهو يقول :

ـ ما أروع تصوير هذا اللحن للموقف يوم الحساب • انه رد للمظالم التى ارتكبت طوال الأحقاب ، انه الحل لجميع المشكلات الخلقية تقوم به حكمة عليا لا مرد لحكمها ، انه لتصوير عجيب حقا •

فقالت أوفيليا :

ـ تلك صورة رهيبة بالنسبة لنا •

فقال سانت كلير وقد أمسك عن العزف وأخذ يفكر :

ـ أظن أنها تكون رهيبة بالنسبة لى • فقد كنت أقرأ لتوم ، بعد ظهر هذا اليوم ، ذلك الفصل من انجيل متى الذى يصور يوم الحساب • ولقد ترك فى نفسى أعمق الأثر ، لقد كنت أتوقع أن ثمة خطايا رهيبة ارتكبها المطرودون من ملكوت السموات ، وكانت هى سبب هذا الطرد • ولكن لا ـ ان هذا العقاب قد حل بهم لأنهم لم يكونوا يفعلون الخير ، وكان الامتناع عن فعل الخير ينطوى على كل أنواع الشر والأذى التى يمكن أن يرتكبها انسان •

فقالت أوفيليا :

ـ قد يستحيل على الذى لا يفعل الخير ، عدم ارتكاب الشر ٠

وهنا قال سانت كلير فى ذهول ولكن فى احساس عميق :

ـ وماذا يقال عن شخص كان قلبه وتعليمه وعواطفه ، ومطالبه مجتمعة قد نادته عبثا الى هدف نبيل ٠ شخص يطفو على سطح الحياة ، كأنه مشاهد حالم محايد لكفاح البشر وآلامهم ومطالبهم فى حين أنه كان الواجب عليه أن يعمل ٠

فقالت أوفيليا :

ـ أقول ان عليه لأن يتوب وأن يبدأ فى العمل الآن ٠

فقال سانت كلير وقد ارتسمت الابتسامة على وجهه :

ـ انك دائما واقعية عملية موفقة فى الاجابة ٠ انك لا تتركين لى أبدا وقتا للتأمل والتفكير ٠ بوجه عام أنك يا ابنة العم تدفعين بى دائما الى الحاضر الواقعى ، ويبدو أن كلمة « الآن » لا تنصرف عن تفكيرك أبدا ٠

فردت عليه أوفيليا قائلة :

ـ ان « الآن » هو كل الوقت الذى له بى صلة ٠

فقال سانت كلير :

ـ آن ايفا الصغيرة العزيزة ـ طفلتى المسكينة ، قد بذلت روحها الصغيرة الساذجة لتوجهنى الى عمل صالح ٠

وكانت تلك أول مرة ، منذ وفاة ايفا ، يتحدث عنها بألفاظ هذا مبلغها من الطول ، وكان وهو يتحدث يبدو بوضوح انه يكبت فى نفسه شعورا قويا ٠

وأردف قائلا :

ـ ان نظرتى الى المسيحية هى أننى أظن أنه ما من أحد يمكن أن

يؤمن بها ايمانا قويا دون أن يكرس كل قواه لمقاومة هـــذا النظام الجائر الذى يقوم عليـــه مجتمعنا كله ، وأن يضحى بنفسه اذا لزم الأمر ، فى هذا السبيل • ومعنى هـــذا أننى لا أستطيع أن أكون مسيحيا بغير هذا ، وذلك رغم أننى اتصلت بالكثيرين من المسيحيين المستنيرين الذين لم يفعلوا شيئا من هـــذا • وأنا أعترف أن موقف المتدينين السلبى من هذا الموضوع ، وعـــدم ادراكهم للمظالم التى طالما ملأت نفسى بالفزع ، هو الذى بعث الشـــك فى نفسى أكثر مما بعثه أى شىء آخر •

فقالت أوفيليا :

ــ اذا كنت قد عرفت هذا كله ، فلم لم تفعله ؟

ــ لم أفعله ، لأن كل ما كان فى طبعى من خير هو أن أرقد عـــلى أريكة ، وأن أسب الكنيسة ورجال الدين لأنهم ليسوا شـــهداء ولا أتقياء • فالانسان ، كما تعلمين ، يسهل عليـــه أن يرى كيف ينبغى لغيره أن يكونوا شهداء •

فقالت أوفيليا :

ــ وهل تنوى الآن أن تغير سلوكك هذا ؟

فأجاب سانت كلير :

ــ الله وحده هو الذى يعلم المستقبل • فأنا الآن أكثر شجاعة مما كنت ، لأنى فقدت كـــل شىء • وان الذى ليس لديه ما يخشى أن يفقده ، ليستطيع مواجهة كل المخاطر •

ــ وماذا تنوى أن تفعل ؟

فأجابها سانت كلير :

ــ أرجو أن أسارع الى أداء واجبى نحو الفقراء والمســـاكين حين أتبين هذا الواجب ، وسأبدأ بخـــدمى الذين لم أقم نحوهم ، حتى الآن ، بشىء ما • ولعلى أستطيع فى المســـتقبل أن تتاح لى فرصـــة القيام بعمل ما لطبقة كاملة من البشر ــ عمل يؤدى الى انقـــاذ وطنى

من عار هـذا الموقف الزائف الذى يقفه الآن أمام جميع الأمم المتحضرة ·

فقالت أوفيليا :

ـ أتظن أن فى العالم أمة تقرر الغاء الرق فى بلادها طوعا واختيارا ؟

فقال سانت كلير :

ـ لست أدرى ، ان يومنا هذا لهو يوم الأعمال العظيمة ، بدأت تظهر فيه البطولة وانكار الذات على وجه الأرض · ان النبلاء المجربين قد حرروا ، طوعا ، ملايين من أرقاء الأرض ، رغم ما فى هذا من خسائر فادحة لهم · وقد نجد فيما بيننا ، فى يوم ، أرواحا كريمة لا تقدر العدالة والشرف بالدولار والسنت ·

فقالت أوفيليا :

ـ اننى لا أظن هذا ·

ـ ولكن افترضى أننا قمنا غدا بتحرير جميع العبيد ، فمنذا الذى يربى هؤلاء الملايين · ومنذا الذى يستطيع تعليمهم · كيف يستفيدون من حريتهم ؟ انهم فى هذه الحالة لن يستطيعوا أن ينهضوا ليفعلوا الشىء الكثير للمجتمع معنا · والحق أننا نحن كسالى غير عمليين لا نصلح لأن نقدم لهم الشىء الكثير من النشاط والجد اللذين لابد منهما لتحويلهم الى رجال نافعين · ان عليهم أن يرحلوا الى الشمال، حيث العمل هو رائد الجميع، وهو المبدأ الشائع بين الصغير والكبير· والآن أخبرينى ، هل يوجد فى مزارعكم الشمالية من المسيحيين المحسنين عدد يكفى لاحتمال عبء تعليمهم ورفع مستواهم ؟ انكم ترسلون آلاف الدولارات لتمويل الارساليات الخارجية ، فهل تطيقون أن يرسل هؤلاء الجهلة الضالون الى مدائنكم وقراكم ، وأن تبذلوا لهم من أوقاتكم وأموالكم وأفكاركم ما يرتفع بهم الى مستوى المثل المسيحية ؟ هذا ما أريد أن أعرفه · فاذا نحن حررنا العبيد ، فهل أنتم على استعداد لتعليمهم ؟ كم أسرة فى مدينتك تقبل أن

تستضيف زنجيا وزنجية لتعلمهما وتطيق وجودهما بينها وتجعل منهما مسيحيين صالحين ! وكم تاجرا يقبل أن يستخدم أدولف اذا أردت أن أجعل منه كاتبا — وكم صانعا يقبله اذا أردت أن يتعلم حرفة ؟ واذا أردت أن ألحق جين وروزا بمدرسة ، فكم مدرسة فى ولايتكم الشمالية تقبلهما ؟ وكم أسرة تقبل أن تنزلهما لديها ؟ ومع ذلك فانهما لا تقلان بياضا عن كثير من النساء فى الشمال أو الجنوب، أترين يا ابنة العم أننى أريد ألا نظلم • فنحن فى وضع مؤلم لا نحسد عليه ، اننا الظالمون الطاهرون ، ولكن التعصب المنافى للروح المسيحية ، السائد فى الشمال لا يقل عنا قسوة فى هذا الاضطهاد •

فقالت أوفيليا :

— نعم يا بن العم ، انى أعرف أن الأمر كما تقول • وأعرف أن هذه كانت الحال عندنا حتى رأيت أن من واجبى أن أتغلب عليها — وأرجو أن أكون قد تغلبت عليها فعلا • وأنا أعرف أن فى الشمال عددا كبيرا من الناس الطيبين لا يقعدون عن القيام بواجبهم هذا اذا علمهم أحد اياه ، ولست أشك مطلقا فى أن استقبال هؤلاء الجهلة الضالين بيننا يتطلب منا تضحية أعظم مما يتطلبه ارسال بعثات • ولكنى أعتقد أننا لن نتأخر عن هذه التضحية الكبرى •

فقال سانت كلير :

— أنا أعرف أنك لا تترددين عن بذل هذه التضحية • وأعتقد أنه لا يوجد شىء تترددين عن القيام به اذا رأيت أن واجبك يدعوك اليه •

فقالت أوفيليا :

— لست أنا صالحة صلاحا فوق المألوف • وان غيرى ليفعلون ما أفعله اذا رأوا الأمور كما أراها أنا وفى عزمى أن آخذ توبسى معى عندما أعود الى منزلى • وأظن أنهم هناك سيعجبون فى أول الأمر ، ولكنى أرى أنهم سينظرون الى الأمر كما أنظر اليه • وعدا هذا فأنا أعرف أن فى الشمال كثيرا من الناس سيحققون ما تقول أنت بالضبط •

— نعم • ولكنهم أقلية • واذا ما بدأنا نعمل على الغاء الرق على

نطاق واسع فلن يمضى الا قليل من الوقت حتى نسمع شكواك أنت ٠

ولم تجب أوفيليا ، وساد الصمت بينهما بضع لحظات ، وطاف يوجه سانت كلير طائف عن الحزن والاكتئاب وهو يقول :

— لست أدرى ما الذى يجعلنى أفكر كثيرا فى أمى هذه الليلة ٠ فان احساسا غريبا يخامرنى بأنها الى جانبى ، ولا أنفك أفكر فى أشياء كانت تقولها ٠ وانى لأعجب : ماذا يعيد هذه الذكريات الماضية أحيانا بمثل هذا الوضوح ؟

وراح سانت كلير يتمشى فى الغرفة رواحا وغدوا لحظات أخرى ثم قال :

— سأنزل الى الشارع ، بضع لحظات ، لأسمع الأخبار الليلة ٠
ثم تناول قبعته وانصرف ٠

وتبعه توم فى الممر حتى خرج من الفناء ، ثم سأله هل يريد منه أن يمضى معه ، فقال له :

— لا ياولدى ، سوف أعود فى خلال ساعة ٠

وجلس توم فى الشرفة ، وكان المساء مقمرا جميلا ، فظل جالسا يرقب ارتفاع رذاذ النافورة وسقوطه ، وينصت الى خريره ٠ وكان توم يفكر فى بيته ، وفى أنه سيصبح بعد قليل رجلا حرا يستطيع أن يعود اليه وقتما يشاء ٠ وفكر فى الطريقة التى لابد له أن يعمل بها ويكسب من المال مايكفى لتحرير زوجته وأبنائه ، وتحسس عضلات ذراعيه القويتين فى شىء من البهجة ، وهو يفكر فى أنهما ستصبحان ملكا خالصا له بعد زمن يسير ، وفى مدى ما يمكن أن تعملا لتحرير أسرته ٠ ثم عاد يفكر فى سيده الشاب النبيل سانت كلير ، ومع هذا التفكير جاءت الصلوات والأدعية التى اعتاد أن يقدمها بين يدى الله من أجله ، ثم تحول مجرى تفكيره الى ايفا الجميلة التى يعتقد الآن أنها مع الملائكة ٠ ظل يطيل التفكير فيها حتى خيل اليه أنها تطل عليه بوجهها المشرق وشعرها الذهبى من بين رذاذ النافورة ٠ وفيما هو فى هذه الأفكار ، أخذته سنة من النوم ، وحلم أنه رآها مقبلة

تتواثب نحوه ، كما كانت تفعل من قبل وفى شعرها أكليل من الياسمين وقد أشرقت وجنتاها وتألقت عيناها بالبهجة والسرور ولكنه وهو ينظر اليها خيل اليه أنها تنهض من سطح الأرض ، وقد امتقع خداها بعض الشيء ، وبدا فى عينيها لألاء الهى عميق وحول رأسها هالة ذهبية، ثم اذا هى تختفى عن ناظريه ، واذا هو يستيقظ من النوم على دق مرتفع وأصوات كثيرة عند الباب الخارجى ٠

وأسرع ليفتحه فرأى عددا من الرجال يدخلون بأصوات مختنقة ، وخطوات ثقيلة يحملون جسدا ملفوفا بعباءة وموضوعا على مصراع باب ٠ وانسكب ضوء المصباح على الوجه ، واذا توم يطلق صيحة مدوية من العجب واليأس ، راح صداها يتردد فى كل أنحاء الغرف والأبهاء ، بينما كان الرجال يتقدمون بحملهم نحو باب قاعة الجلوس المفتوح ، حيث كانت أوفيليا لا تزال جالسة تعمل فى أشغال ابرتها ٠

كان سانت كلير قد عرج على مقهى للاطلاع على احدى الصحف ٠ وفيما هو جالس يقرأ حدثت مشادة بين اثنين من الرجال فى القاعة٠ وكان الاثنان سكرانين الى حد ما ٠ وحاول سانت كلير ومعه واحد أو اثنان من رواد المقهى أن يفرقوا بينهما ، واذا سانت كلير يتلقى طعنة مميتة فى جنبه من سكين أحدهما وهو يحاول أن ينتزعها منه٠

وامتلأ البيت بالصياح والبكاء والعويل والندب والصراخ ٠ فالخدم يشدون شعورهم كالمجانين ، ويلقون بأنفسهم على الأرض ، أو يجرون هنا وهناك على غير هدى ، باكين معولين ، وبدا أن توم وأوفيليا وحدهما اللذان يتملكان مشاعرهما ٠ لأن مارى كانت قد أصيبت بتشنجات هستيرية حادة ٠ وسرعان ما أعد أحد المتكآت فى غرفة الجلوس ــ بأمر من أوفيليا ــ ووضع عليه الجسد الدامى ٠ وكانت سانت كلير قد أغمى عليه من فرط الألم وكثرة ما نزف من الدماء ٠ فلما أعطته أوفيليا بعض المنبهات فتح عينيه وثبت نظراته على من حوله ، ثم تطلع فى جوانب الغرفة بلهفة وكانت نظراته تمر فى حزن على كل شيء فيها حتى استقرت أخيرا على صورة أمه٠

وكان الطبيب قد وصل وفحص الجريح واتضح من ملامح وجهه أنه لا أمل فى النجاة · الا أنه لم يتوان عن تضميد الجرح · وأخذ هو وأوفيليا وتوم يقومون بهذا بين عويل الخدم المروعين ونحيبهم وصراخهم وكانوا قد تجمعوا عند أبواب الشرفة ونوافذها ·

عندئذ قال الطبيب :

– يجب اخراج هؤلاء الخدم جميعا · فان كل شىء يتوقف على توفير الهدوء والراحة له ·

وفتح سانت كلير عينيه ، وثبت نظراته على الخدم المحزونين الذين كانت أوفيليا والطبيب يحاولان طردهم بعيدا عن الغرفة ، ثم قال وقد طاف بوجهه طائف من الندم المرير :

– أيها الخلائق المساكين !

ورفض أدولف رفضا باتا أن ينصرف · ذلك أن الفزع قد أخرجه عن جادة الصواب فألقى بنفسه على الأرض ، ولم يفلح شىء ما فى انهاضه · أما الخدم الباقون ، فقد لبوا نداء أوفيليا حين ألحت عليهم وأكدت لهم أن نجاة سيدهم تتوقف على هدوئهم واطاعتهم أوامرها ·

ولم يكن فى مقدور سانت كلير أن يقول غير القليل فقد رقد ساكنا مغمض العينين ، ولكن كان يبدو بوضوح أنه يعانى من صراع فكرى مرير · وبعد لحظة وضع يده على يد توم الراكع بجانبه ، وقال له :

– توم ، أيها المسكين !

فقال توم فى لهفة :

– ماذا تريد ياسيدى ؟

فقال وهو يضغط على يده :

– اننى أموت ، فصل من أجلى ·

وهنا قال الطبيب :

ــ اذا أردت أن تستدعى لك أحد رجال الدين ..

فهز سانت كلير رأسه بسرعة ، ثم عاد يقول لتوم فى لهفة :

ــ صل !

وراح توم يصلى بكل قوته وعقله ، للروح المحتضرة ، الروح التى بدا أنها تطل بثبات وحزن من هاتين العينين الكبيرتين الزرقاوين الحزينتين . وكانت صلوات ممزوجة حقا بالبكاء والدموع .

ولما سكت توم عن الكلام ، مد سانت كلير يده ، وتناول يد توم وراح ينظر اليه فى لهفة ، دون أن يقول شيئا . وأغمض عينيه ، ولكنه ظل ممسكا باليد ــ ذلك لأنه عند أبواب الأبدية تتماسك اليد السوداء واليد البيضاء وتقبض احداهما على الأخرى متكافئتين. وكان سانت كلير يغمغم لنفسه فى فترات متقطعة :

« لأى سبب أيها المسيح

« احتملت حقد الناس وخيانتهم

« ومن أجل خلاصى دميت قدماك »

وما من شك فى أن الألفاظ التى كان يتغنى بها فى ذلك المساء كانت تمر بذهنه ، وهى كلمات ضراعة . وكانت شفتاه تتحركان بين الفينة والفينة كما انسابت منهما بعض الكلمات المتقطعة :

وقال الطبيب :

ــ أن عقله فى حالة شرود .

وهنا قال سانت كلير وقد استجمع كل ما كان فيه من قوة :

ــ لا انه عائد الى بيته .. أخيرا . أخيرا ..! أخيرا !

وأرهقه الجهد الذى بذله فى الحديث واستنفد كل قوته ،وطاف على وجهه شحوب الموت وضعفه ، ولكن طافت معه ، وكأنها تنساب

من أجنحة روح عطوف ، مسحة من السلام الجميل كالتى تبدو على وجه طفل متعب مستغرق فى النوم •

وظل راقدا على هذه الحال لحظات قليلة • ورأى الجميع أن قبضة الموت القوية كانت ممسكة به • وقبل أن تفارق الروح الجسد ، بلحظة ، فتح عينيه وبدا فيهما ضوء فجائى كأنما قد سره أن يتعرف على أحد ثم قال :

ـ أماه ••

ثم طواه الموت •

الفصل التاسع والعشرون

من لا ولى لهم ولا نصير

كثيرا ما نسمع عن أحزان الخدم الزنوج عند وفاة سيد لهم شفيق . ولا عجب فى هذا ، لأنه ليس على ظهر الأرض مخلوق يترك وحيدا بلا نصير ، كما يترك العبد فى هذه الظروف .

ذلك أن الطفل الذى يفقد أباه ، لا يعدم رعاية الأصدقاء ، وحماية القانون . ان له شخصيته الخاصة ، وفى مقدوره أن يقوم بعمل ما ، وله مكانته وحقوقه المعترف بها . أما العبد فليس له شيء من هذا . فهو فى نظر القانون محروم فى جميع الأحوال من كل الحقوق كأنه بالة من البضائع . وكل ما يمكن أن يكون له من رغبات أو حاجيات كرغبات الآدميين وحاجياتهم انما يصل اليه حسب مشيئة سيده ومالكه الذى لا حساب عليه ولا تبعة ، فاذا مات هذا السيد المالك ،لم يبق للعبد شيء .

وعدد الرجال الذين يعرفون كيف يستخدمون هذه السلطة المطلقة استعمالا رحيما كريما جد قليل ، وهذا معروف لكل انسان ، والعبد نفسه أكثر الناس معرفة به ، ومن ثم فهو يدرك أن احتمال وقوعه فى يد سيد مستبد سليط اللسان يعادل عشرة أمثال احتمال عثوره على سيد رحيم كريم ، وهذا هو الذى يجعل بكاء الخـــدم على سيدهم الكريم الراحل عاليا طويلا ، ولا عجب أن يكون كذلك .

ولما أسلم سانت كلير الروح ، استبد الحزن والفزع بجميع من فى بيته . ذلك أنه قضى نحبه فى لحظة وهو فى عنفوان القوة ونضرة الشباب . وأخذ صدى البكاء وعويل اليأس يترددفى كل قاعة وردهة فى القصر .

ولم تستطع مارى ـ التى وهنت أعصابها ، ولطول ما ترك لهـا الحبل على الغارب ، أن تجد ما يقويها على احتمال آلام هذه الصدمة ، ومن ثم راحت ـ عندما لفظ زوجها أنفاسه الأخيرة ـ تفيق من نوبة اغماء الى نوبة أخرى • وهكذا أقفرت حياتها من ذلك الذى ارتبطت معه برباط الزوجية المقدس ، دون أن تتاح لها الفرصة لتتلقى منـه كلمة وداع •

وكانت أوفيليا قد أستطاعت بفضل ما اختصت به من قوة ومقدرة على ضبط النفس أن تبقى بجانب ابن عمها حتى آخر لحظة ، نافذة البصر من هفة السمع ، عظيمة الانتبـاه ، تقوم بكـل شىء يمكن القيام به ، وتشترك بكل روحها فى تلك الصلوات الرقيقـة القوية العاطفة التى أخذ العبد المسكين يتلوها على روح سيده المتوفى •

وفيما هم يعدونه لمثواه الأخير وجدوافى صدره علبة صغيرةبسيطة الصنع تفتح بزنبرك وتحتوى على صورة وجه نسائى نبيل جميل ، وعلى الوجه المقابل لها تحت قطعة من البللور ، خصلة من شعر أسود• وأعادوا العلبة الى مكانها فوق صدره ، الذى فارقته الحياة : تراب الى تراب ، وذكريات حزينة بائسة لأحلام مبكـرة ، كانت فى يوم من الأيام تبعث الحرارة فى ذلك القلب الذى لا حرارة فيه •

وامتلأت نفس توم كلها بأفكار الخلود ، وفيما كان يقوم بواجباته نحو الجسد المسجى ، لم يخطر بباله لحظة ، أن هذه الضربة المفاجئة قد تركته فى قيود العبودية التى لا مفر منها • لقد كان يشـعر بالطمأنينة على مصير سيده ، لأنه أحس فى اللحظات التى كان يقدم فيها صلواته لله ، باستجابة لصلواته تنبعث من أعماق نفسه وتغمره بالهدوء واليقين • لقد شعر فى أعماق طبيعته الوفية بالمحبة ، ان فى مقدوره ادراك بعض الشىء من الحب الالهى الكامل ، لأن ثمة حكمة قديمة تقول « ان الذى يحيا فى المحبة ، يحيا فى الله ، ويحيـا الله فيه • »

وإمتلأ قلب توم بالأمل واليقين ، وأحس بالراحة والسلام •

وانتهت مراسم الجنازة بكل ما فيها من ثياب سود وصـلوات ،

ووجوه مكتئبة ، وأقبلت الحياة بكل ما فيها من أدران الشواغل اليومية الفاترة ، وبرز من ورائها ذلك السؤال الأبدى القاسى « ماذا نفعل بعد ؟ »

خطر هذا السؤال فى ذهن مارى ، وهى مرتدية ملابس الصباح الفضفاضة ، يحيط بها الخدم القلقون ، وقد جلست فى مقعد كبير مريح ، وأخذت تفحص عينات من الأقمشة الحريرية السوداء . وخطر أيضا لأوفيليا التى بدأت أفكارها تهفو الى بيتها فى الشمال . وخطر ـ فى فزع وسكون ـ للخدم الذين يعرفون أتم المعرفة مدى قسوة السيدة التى تركوا تحت رحمتها وتحجر قلبها . وكانوا جميعا يعرفون تمام المعرفة أن التسامح الذى كانوا يستمتعون به ، لم يكن من سيدتهم ، بل كان من سيدهم . أما الآن وقد رحل هذا السيد ، فلن يحول شىء بينهم وبين أية عقوبة استبدادية ينزلها بهم ذلك الذى زادته الكارثة حقدا ومرارة .

وبعد أسبوعين من الجنازة أو نحوهما ، وبينما كانت أوفيليا ذات يوم مشغولة فى غرفتها ، اذا هى تسمع دقة رقيقة على الباب ، فلما فتحته رأت روزا ، تلك الفتاة الملونة الجميلة التى كثيرا ما ورد ذكرها فى قصتنا ، واقفة وشعرها منفوش ، وعيناها متورمتان من فرط البكاء .

وقالت الفتاة وهى تركع وتتشبث بأطراف ثوب أوفيليا :

ـ أوه . يا مس فيلى . أرجوك .. أرجوك أن تذهبى لمسز مارى اكراما لخاطرى . اشفعى لى عندها ، فهى سترسلنى لكى أعاقب بالجلد . أنظرى .

ثم سلمت الفتاة ورقة الى أوفيليا ، وكانت أمرا مكتوبا بخط يد مارى ذى الحروف المائلة اللطيفة ، الى رئيس أحد مراكز الجلد بالسياط فى المدينة ، تطلب اليه أن يجلد حاملة الأمر خمس عشرة جلدة .

وقالت أوفيليا :

ـ ماذا فعلت ؟

ــ أنت تعرفين يا مس فيلي أني سريعة الغضب · وهذه نقيصة طبعا ، وكنت أحاول أن أساعد السيدة ماري في قياس ثوب لها ، واذا هي تصفعني على وجهي ، وتفوهت بكلمات قبل أن أفكر فيها ، وكنت وقحة · وقالت لي أنها ستذلني ، وتجعلني أعرف للمرة الأخيرة أن أيام التدليل قد انقضت ، ثم كتبت هذا الأمر ، وقالت انني سأحمله بنفسي ، ويا ليتها تقتلني فعلا ·

ووقفت أوفيليا تفكر مليا والورقة في يدها ، بينما استطردت روزا قائلة :

ــ أنت تعرفين يا مس فيلي ، أنني لا أهتم كثيرا بالجلد لو أنك قمت به أنت ، أو مسز ماري · أما أن أرسل ليجلدني رجل ، ورجل فظيع رهيب ، فيا للعار يا مس فيلي ·

وكانت أوفيليا تعرف حق المعرفة أن من العادات الشائعة ارسال النساء والفتيات الى مراكز خاصة بالجلد بأيدى طائفة من أحط الرجال ــ رجال بلغوا من الانحطاط حدا يجعلهم يتخذون هذا العمل حرفة لهم · وهناك يعرين من ملابسهن بطريقة وحشية ويعاقبن عقابا فظيعا · وكانت أوفيليا تعرف هذا من قبل ، ولكنها حتى هذه اللحظة لم تكن تدرك دلالته الا بعد أن رأت جسم روزا الرقيق وهو يكاد يتقلص من هول الكارثة ، واندفعت الى وجنتي أوفيليا كل الدماء النسوية الشريفة ، دماء الحرية التي نشأت فيها في نيوانجلند وأخذ قلبها الغاضب يخفق في استنكار ومرارة ، ولكنها بفطنتها المعتادة ، وقوتها على ضبط النفس ، سيطرت على مشاعرها ،وضغطت على الورقة بعنف في قبضتها ، وقالت لروزا :

ــ اجلسي هنا أيتها الطفلة ، وسأذهب الى سيدتك ·

وقالت لنفسها وهي تعبر الغرفة :

ــ يا للوحشية ، والعار ، والفظاعة ·

ووجدت ماري جالسة في مقعدها الوثير ، ومامي واقفة بجانبها تمشط لها شعرها ، وجين جالسة أمامها على الأرض مشغولة بتدليك قدميها ·

وقالت لها أوفيليا

ـ كيف حالك اليوم ؟

ومضت لحظة كانت الاجابة الوحيدة فيها ، زفرة عميقة ،واغماض العينين ، ثم أجابت مارى :

ـ آه لا أدرى يا ابنة العم ، أعتقد أننى فى نفس الحـــال التى سأظل عليها دائما •

ومسحت عينيها بمنديل يدها الحريرى المطرز الحـــافة باللون الأسود بعرض بوصة كاملة •

وقالت أوفيليا وهى ترسل هـــذا السعال القصير الجاف الذى يكون عادة مقدمة للحديث فى موضوع شائك :

ـ لقد جئت •• جئت اليك ، لأتحدث معك بشأن روزا المسكينة •
واتسعت حدقتا عينى مارى عندئذ ، وصعد الدم الى وجنتيهـــا الشاحبتين عادة وهى تقول بحدة :

ـ ماذا تريدين أن تقولى عنها ؟

ـ انها جد آسفة على ما ارتكبت من خطأ •

ـ آسفة • أهى حقا آسفة ؟ لسوف تكون أكثر أسفا قبل أن أفرغ من أمرها • لقد تجاوزت عن وقاحة هذه الفتاة أكثر مما يليق • والآن سأذلها وأكسر شوكتها • وسأجعلها تتمرغ فى الوحل •

ـ ألا يمكن أن تعاقبيها بطريقة أخرى ؟ بطريقة لا تعرضها لمثـــل هذا العار ؟

ـ اننى أريد أن أفضحها ، وهذا هو ما أريده بعينة • لقد عاشت طول عمرها معجبة برقتها ، وبجمالها ، وبتقليد سلوك سيداتها ، حتى نسيت حقيقة أمرها • ولهذا رأيت أن ألقنها درســـا يكسر شوكتها •

ـ ولكن تذكرى يا ابنة العم ، أنك اذا حطمت فى الفتاة رقتهـــا وشعورها بالعار ، فانك عندئذ تدفعينها الى السقوط بسرعة •

فأرسلت مارى ضحكة ساخرة وقالت :

ـ الرقة ؟ ما ألطف هذه الكلـــمة اذا وصفت بها فتاة مثلها ، سأعلمها ، رغم كل محاولاتها للترفع ، انها ليست أفضل من أحقـر بغى سوداء تهيم فى الطرقات • انها لن تتصرف بعد اليوم معى كأنها سيدة •

فقالت أوفيليا فى لهجة قوية حازمة :

ـ سيحاسبك الله على هذه القسوة •

ـ القسوة • اننى أحب أن أعرف ، أى قسوة فى هذا ؟ لقد كتبت أمرا بجلدها خمس عشرة جلدة لا أكثر ، وذكرت أنى أريدها جلدات خفيفة ولا شك أن هذا ليس من القسوة فى شىء •

ـ أتقولين أنه ليس فى هذا قسوة ؟ اننى واثقة من أن أية فتـاة تفضل الموت على التعرض لهذه المهانة •

ـ ان هذا قد يتراءى لأى شخص له مشاعرك أنت • أما أولئك الخلق فانهم يعتادون هذا • وتلك هى الطريقة الوحيدة للسيطـرة عليهم وترويضهم • أما اذا سمحت لهم بأن يشعـروا بأن من حقهم أن يتصنعوا الرقة واللطافة وما الى هـــذا ، فانهم سـيهملون أمرك ويستخفون بك كما يفعل خدمى دائما • ولقد بدأت الآنأذلهم وأكسر شوكتهم • وأجعلهم جميعا يدركون أننى سأرسلهم للجلد الواحـــد بعد الآخر اذا لم يلتزموا حدودهم •

وتلفتت مارى حولها ، وهى تقول هذا ، فى عزم واصرار •

وأطرقت جين برأسها فى خوف وفزع عند سماعها هذا الحديث لأنها أحست أنه موجه اليها بصفة خاصـــة • وجلست أوفيليـــا لحظة قصيرة وكأنها قد ابتلعت بعض المواد المتفجرة ، وأن هذه المواد توشك أن تنفجر فى أية لحظة • ولكنها تذكرت عدم جدوى المناقشة مع سيدة هذا طبعها ، فآثرت أن تزم شفتيها بحـــزم ، ثم نهضت مسرعة وانصرفت من الغرفة •

وكان من العسير عليها أن تعود الى روزا وتخبرها أنها لم تستطع أن تفعل لها شيئا • وبعد قليل جاء أحد الخدم وقال انسيدته أمرته

أن يصحب روزا الى مركز الجلد ، وأنه قد أسرع بها الى هناك رغم دموعها وتوسلاتها ٠

وبعد أيام من ذلك الوقت كان توم واقفا بجانب الشرفة يفكر ويتأمل عندما انضم اليه أدولف ٠ وكان ، منذ وفاة سيده ، فى حالة شديدة من الأسى والقنوط ٠ فقد كان يعرف أنه موضع كراهية سيدته مارى دائما ٠ ولكنه لم يكن يهتم بهذا كثيرا فى حياة سيده ٠ أما وقد رحل هذا الى العالم الآخر ، فقد كان يعيش فى حالة فزع ورعب من يوم الى يوم وهو لا يعرف ما قد يحدث له فى اليوم التالى ٠ وكانت مارى قد استشارت محاميها عدة مرات ، ثم اتصلت بشقيق سانت كلير ـ وقررت بعد ذلك أن تبيع القصر وملحقاته وجميع الخدم الا من تملكهم هى نفسها منهم ، وهؤلاء كانت تنوى أن تعود بهم الى مزرعة أبيها ٠

وقال أدولف لتوم :

ـ أتعرف يا توم أنه تقرر بيعنا جميعا ؟

ـ وكيف سمعت هذا ؟

ـ اختبأت وراء الستار عندما كانت سيدتى تتحدث مع المحامى ٠ وسنرسل جميعا بعد أيام قليلة الى المزاد ٠

فعقد توم ذراعيه وتنهد بعمق وقال :

ـ لتكن مشيئة الله

وعاد أدولف يقول وهو خائف وجل :

ـ اننا لن نجد أبدا مثل سيدنا الراحل ٠ ولكننى أفضل أن أباع على المغامرة بالبقاء تحت سيطرة سيدتى هذه ٠

وانصرف توم عنه بقلب مثقل بالحزن ٠ ذلك أن أطياف الآمال فى الحرية ، وذكرى زوجته وأبنائه ، لاحت أمام روحه الصابرة ، كما تلوح أمام البحار فى سفينة تحطمت بعد أن كادت تصل الى الميناء ، برج الكنيسة وأسقف المنازل المحبوبة فى قريته يراها من

وراء ذروة موجة سوداء ولا تدوم ريثما يودعها الوداع الأخـــير •
وعقد ذراعيه على صدره بقوة ، وحبس الدموع الغـــزيرة التي كان يغص بها • وحاول أن يصلي • وكان هذا المسكين يحب الحرية حبا فريدا في نوعه لا يستطيع تعليله ولهذا كان بائسا في أعماق نفسه، وكان شعوره بالأسى يزداد كلما ردد قوله « لتكن مشيئتك » •

وراح يبحث عن أوفيليا التي كانت ، منذ وفاة ايفا ، تعامله باشفاق واحترام واضح •

وقال لها :

ــ يا مس فيلي • لقد وعدني مستر سانت كلير بالحرية • وقـــال لي أنه بدأ في اتخاذ الاجراءات اللازمة في هذا الشأن ، والآن ، اذا رأت المسز فيلي أن تتكرم وتتحدث الى سيدتي ماري عن هذا الشأن ، فلعلها تشعر بالرغبة في استكمال هذه الاجراءات لأنها كانت رغبة سيدي •

فقالت أوفيليا :

ــ سأتحدث من أجلك يا توم ، وسأبذل في سبيل ذلك ما أستطيع من جهد • ولكن اذا كان الأمر يعتمد على قرار السيدة ماري ، فانى لا أرجو لك منها خيرا كثيرا • على أنني مع ذلك سأحاول •

وكان هذا قد جرى بعد حادث روزا بأيام قليلة ، وعنـــدما كانت أوفيليا تعد حاجياتها للعودة الى الشمال •

وبعد أن فكرت تفكيرا جادا ، رأت أنهـــا ربما كانت تسرعت في توجيه العبارات الحادة الى ماري أثناء مقابلتها الأخـــيرة ، ومن ثم قررت في هذه المرة أن تخفف من حماستها وأن تسترضيها بقدر ما تستطيع • وهكذا استجمعت هذه الفتاة الكريمة كل ما عندها من شجاعة ، وأخذت أشغال الابرة معها ، وقررت أن تمضي الى غـــرفة ماري ، وأن تتلطف معهـــا قدر المستطاع ، وأن تعالج موضـــوع توم بقدر ما تستطيع من البراعة الدبلوماسية التي تحذقها أتم الحذق •
ووجدت ماري متراخية بطول قوامهـــا على المتكأ ، معتمدة بأحـــد مرفقيها على الوسائد ، بينما كانت جين ، التي جاءت من فورها من السوق ــ تعرض عليها نماذج من أقمشة سوداء •

وقالت ماري وهي تختار واحداً منها :

ـ هذا يصلح • وان لم أكن واثقة من أنه مناسب للحداد •

فقالت جين ، وقد أطلقت للسانها العنان

ـ أؤكد لك يا سيدتي •• أن زوجة القائد دربينون كانت ترتدي ثوب حداد من هذا القماش بعد وفاة القائد في الصيف الماضي • وهو يصلح لهذا الغرض كل الصلاح •

فقالت ماري لأوفيليا :

ـ ما رأيك ؟

فردت عليها أوفيليا قائلة :

ـ أظن أن الأمر أمر عادة وتقاليد ، وأنت في هذا الشأن أقدرمني على الحكم •

فقالت ماري :

ـ الحقيقة انني لا أجد في العالم كله ثوبا واحد أستطيع ارتداءه • وبما أني أنوي بيع القصر وملحقاته والعـــودة الى مزرعة أبي في الأسبوع التالي ، فان علي أن أقطع في هذا برأي عاجل •

ـ أتعودين بهذه السرعة ؟

ـ نعم • لقد كتب الى شقيق سانت كلير بالموافقة على هذا ، ورأى هو والمحامي أنه يحسن بيع العبيد والأثاث بالمزاد • وأن يترك البيت وما حوله في عهدة المحامي الى حين التصرف فيه •

فقالت أوفيليا :

ـ ان لدي شيئا واحدا كنت أريد أن أتحدث اليــك فيه • ان أوجستين كان قد وعد توم بمنحه حريته ، وبدأ في اتخاذ الاجراءات القانونية اللازمة في هذا السبيل • وأنا أرجوك أن تستخدمي نفوذك لاتمام هذه الاجراءات •

فقالت ماري بحدة :

ـ اننى يقينا لن أفعل شيئا من هذا القبيل • ان تـوم من أعظم الخدم قيمة فى هذه الدار • ولا يمكن تحريره بأية حال • وفضلا عن هذا فما حاجته الى الحرية ؟ انه فى الوضع الذى هو فيه أحسن كثيرا مما لو كان حرا •

فقالت أوفيليا :

ـ ولكنه يتوق اليها بكل جوارحه ، وكان سيده قد وعده بها •

فقالت مارى :

ـ لا شك عندى فى أنه يريدها ، وأنهم جميعا يريدونها ، لأنهم جميعا فئة لا تقنع ولا ترضى بحالتها ـ وهم يريدون على الدوام ماليس فى أيديهم • وعلى كل حال فقد نشأت أعتنق مبدأ الابقاء على نظـام الرق فى البلاد • فأنت اذا وضعت الزنجى تحت امرة سيد ، فانه يحسن العمل ، ويستقيم أمره ، أما اذا أطلقت له الحرية ، فانه يركن الى الكسل ، ويأبى العمل ، ويعتاد شرب الخمر ، ويظل ينحدر حتى يصبح شخصا حقيرا لا قيمة له • لقد رأيت هذه المحـاولات مئات المرات ، وليس من الخير لهم أن يكونوا أحرارا •

ـ ولكن توم شخص رزين ، مجد ومتدين •

ـ لا حاجة بك لأن تقولى لى هذا ، فقد رأيت المئات من أمثاله وهو يحسن العمل ما دام يعنى بأمره ، هذا هو كل الموضوع •

فقالت أوفيليا :

ـ ولكن فكرى فى أنه قد يقع فى يدى سيد شرير حين تعرضينه للبيع •

فأجابت مارى :

ـ ان هذا كله لغو وهراء • ان الحالات التى يقع فيها العبد الصالح فى يد سيد شرير لا تتعدى حالة فى كل مائة ، وان معظم السـادة الملاك لطيبون رغم ما يقال عنهم • لقد عشت ونشأت هنا فى الجنوب ولم أعرف طيلة حياتى سيدا لا يحسن معاملة عبيده ، أى لا يعاملهم

كما ينبغى أن تكون المعاملة • ولست أخشى شيئا من هذه الناحية •

وهنا قالت المس أوفيليا بشيء من الجد

ــ مهما يكن من هذا الأمر فاني أعرف أن من آخر رغبات زوجك أن يمنح توم حريته ، وكان هذا أيضا من الوعود التى قطعهــا على نفسه لابنتك العزيزة الصغيرة ايفا وهى على فراش الموت • ولست أظن أنك تشعرين بأنك حرة فى اغفال هذه الرغبة •

وغطت مارى وجهها بمنديلها حين سمعت هذا النــداء ، وراحت تبكى وتنتحب ، وتلجأ الى زجاجة النوشادر نشمها بقوة كبيرة • ثم قالت :

ــ ان كل انسان يقف فى وجهى ، وما من أحد يقدر موقفى • وما كنت أنتظر منك أن تعيدى الى ذكرى متاعبى كلها • ان هذا لا يليق ولكن لا أحد يهتم بى • ان محنتى شديدة فريدة فى نوعها • ذلك أن من أشد الآلام لنفسى أن تكون لى ابنة واحدة ، ثم تنتــزع منى وأن يكون لى زوج يوائمنى أتم المواءمة ــ وكان من الصعب أن أجــد لى زوجا يوائمنى مثله ثم أفقده هو أيضا • وانه ليبدو لى أنك قلمــا تشعرين بمحنتى ، ومن ثم فأنت لاتنفكين تذكرينني بها فى استخفاف رغم علمك بأن هذه الذكريات تزعجنى كثيرا ، وأنــا أظن أنك لا تقصدين الا الخير ، الا أننى لا زلت أرى أن هذا لا يليق ، لا يليــق مطلقا •

وأخذت مارى تنتحب وتشهق ، وتطلب الى مامى أن تفتــح لها النافذة ، وأن تسرع اليها بزجاجة الكافور ، وأن تبلل رأسـها وأن تفك لها أزرار ثيابها وفى خلال هذا الاضطراب الذى حدث وقتئــذ أسرعت أوفيليا بالهرب الى غرفتها •

لقد أدركت من فورها أنه لا جدوى من التحدث فى هذا الموضوع ذلك بأن مارى كانت تتمتع بموهبة لا حد لها فى استحضار النوبات العصبية • فكانت تجد من اليسير عليها أن تحرك واحدة منها كلمــا أشير الى رغبات ابنتها ايفا أو رغبات زوجها فيما يتعلق بشأن الخدم ومن ثم فعلت أوفيليا لتوم أحسن شيء بعد هــذا يمكن أن تفعلــه

له · فأرسلت خطابا بشأنه الى المسز شلبى توضح لها فيه متاعبه وتستحثها لارسال المال اللازم لتحريره ·

وفى اليوم التالى سيق توم وأدولف ونحو ستة من العبيد الآخرين الى وكالة العبيد ، لينتظروا الوقت المناسب للتاجر الذى كان يجمع طائفة من أمثالهم لبيعهم بالمزاد ·

الفصل الثلاثون

وكالة العبيد

وكالة العبيد ! لعل بعض القراء يستحضرون في أذهانهم صورا رهيبة لهذا المكان . انهم يتصورونه غارا رهيبا ، قذرا مظلما يعيش فيه بعض المردة في أماكن تحت سطح الأرض . ولكنه ليس هذا شأنه ، أيها الصديق الطيب ، ذلك أن الناس في ذلك الحين كانوا قد تعلموا فن ارتكاب الآثام والشرور ببراعة ورقة ، وذلك حتى لا يصدموا مشاعر الطبقة المحترمة في المجتمع ، ويؤذوا عيونها . ثم ان السلع الآدمية مرتفعة الثمن في السوق ، لهذا فان التجار يحسنون اطعامهم وتنظيفهم ، وخدمتهم ، ورعايتهم ، حتى يعرض العبد منهم في السوق ، ناعم الملمس قوى البنية ، براق البشرة . ووكالة العبيد في نيو أورليانز بيت لا يختلف في مظهره عن كثير من البيوت الأخرى النظيفة الأنيقة . وتستطيع في كل يوم أن ترى تحت مظلة ممتدة في خارجه صفوفا من الرجال والنساء معروضين كنماذج للبضاعة التي بداخله .

ويطلب اليك بأدب وتلطف أن تدخل وتفحص ، فاذا فعلت رأيت عددا كبيرا من الأزواج والزوجات والاخوة والأخوات ، الآباء والأمهات ، والأطفال ، وكلهم معروضون للبيع فرادى أو في مجموعات ، حسب رغبة الشارى ، هذه الروح الخالدة التي سبق أن افتديت عندما زلزلت الأرض ، وانهارت الصخور ، وتفتحت القبور ، هذه الروح نفسها يستطاع الآن بيعها وشراؤها ورهنها ، كما يمكن أن تستبدل بها بقالة أو سلع جافة حسب حالة السوق أو مزاج المشترى .

وكان قد مضى يوم أو يومان على الحديث الذى دار بين مارى والمس

أوفيليا حين سيق توم وأدولف ونحو ستة من العبيد فيمزرعة سانت كلير الى رعاية المستر سكجز ، صـــاحب وكالة العبيد بشارع ـــ فى انتظار اقامة المزاد فى اليوم التالى ٠

وكان مع توم حقيبة كبيرة مليئة بالملابس ، وكذلك كان شـــأن معظم من معه من زملائه ٠ وقد أدخل الجميع ، لقضـــاء الليلة ، فى غرفة مستطيلة ٠ اجتمع بها عدد كبير من رجال غيرهم ، من جميـــع الأعمار ، والأحجام ، ودرجات اللون، وكانت تنبعث منها الضحكات الهادرة ، وصيحات المرح الشديد تصدر عن شاغليها دون تفكير ٠

وقال المستر سكجز صاحب الوكالة :

ـ ها ، ها ٠٠ عظيم جـــدا ٠٠ استمروا فى زياطكم يا أولاد ٠ استمروا ٠ ان قومى هنا دائما مرحون ٠ وهذا سامبو ٠

وراح يتحدث فى رضى مع زنجى ضخم كان يؤدى حركات هزلية ، كانت هى سبب الصيحات التى سمعها توم ٠

ولم يكن توم ، كما يمكن أن تتصور ، فى حالة تغريه بالاشتراك فى هذا اللهو والعبث ، ومن ثم وضع حقيبة ملابسه فى أبعد مكان من الجماعة الصاخبة ، ثم جلس عليها ، واعتمد بوجهه على الجدار ٠

وكان تجار السلعة البشرية يبذلون كل جهد ممكن لاشـاعة هذا المرح الصـــاخب بين أفرادها ليحولوا بذلك بينهم وبين التفكير فى حالتهم وليبلدوا احســاسهم كي لا يشـعروا بما هم فيـــه ، وان التدريب الذى يطبق على الزنجى يوم يباع فى أسواق الشمال حتى يصل الى الجنوب ليوجه كلية توجيها منظما الى جعله مخلوقا جامدا عديم التفكير بهيمى الطباع ٠ والنخاس يجمع شحنات العبيد فىولاية فيرجينيا أو كنتكى ثم يسوقهم الى أحـد الأماكن الصحية ـ وكثيرا ما تكون احدى المصحات ـ لكى يصحوا أو يسمنوا ٠ وهم فى هـذه المثابات يأكلون كفايتهم فى كل يوم ، واذا مال بعضهم نحو النحول والذبول ، وضـــع بينهم فى العادة عازف قيثـار ، ويطلب اليهم أن يرقصوا كل يوم واذا أبى أحدهم أن يلهـو ويمرح ، لأن تفكيره فى الزوجة والولد والبيت أقوى من رغبته فى المرح ، فانه يعد شخصا

مكتئبا خطرا ويتعرض لكل أنواع العقاب التى يمكن أن يصبها عليه رجل مطبوع على الأذى قاس لا يسأله القانون أبدا عما يصبه عليه من هذا الأذى •

ومظاهر النشاط والانتباه والتيقظ ، ومظاهر المرح وبخاصة أمام الفاحصين الراغبين فى الشراء ، تفرض على العبيد فرضا على الدوام ويرجع بعض السبب فى هذا الى رغبتهم فى أن يرزقوا سيدا طيبا ، والى خوفهم مما قد يصبه عليهم النخاس من ألوان العذاب اذا لم يوجد لهم مشتر •

وقال سامبو وهو مقبل نحو توم بعد أن انصرف المستر سكجز من الغرفة :

ـ ماذا يفعل هذا الزنجى هنا ؟

وكان سامبو أسود فاحم السواد ، ضخم الجسم ، عارم النشاط كثير الكلام ، كثير الحيل ، يتقن تلوية الوجه وتقطيبه •

وعاد يقول لتوم وهو يلكزه فى جانبه مداعبا :

ـ ماذا تفعل هنا ؟ أتفكر فى أمرك ؟

فقال توم بهدوء :

ـ اننى سأباع غدا فى المزاد •

ـ تباع فى المزاد ؟ ها ها ها • أليس هذا مضحكا يا أولاد ؟ ليتنى أباع بهذه الطريقة •• قل لى •• ألم أجعلهم يضحكون ؟

ثم أردف سامبو قائلا وهو يضع يده بخفة على كتف أدولف :

ـ هل هذه الشحنة كلها ستباع غدا ؟

وهنا قال أدولف بعنف شديد وهو ينتفض ويشد قامته فى اشمئزاز بالغ :

ـ أرجوك أن تدعنى وشأنى •

وتقدم من أدولف وتشممه وأردف قائلا :

ـ آه ، اسمعوا يا أولاد • ان صاحبنا هـذا من الزنوج البيض ، لونه بلون القشدة ، ولا شك أنه معطر أيضا •

ـ رباه ؟ انه يصلح للبقاء عند بائع التبغ لكى يستخدموه فى شم النشوق ، رباه ، انه يستطيع أن يملأ حانوتا كاملا بالزبائن •

فقال أدولف وهو ثائر :

ـ قلت لك ابتعد عنى ، ألا تفهم ؟

ـ يا الهى ، ما أشد عصبيتنا نحن معشر الزنوج البيض ـ انظروا الينا الآن !

ثم راح سامبو يقلد أدولف بطريقة هزلية وهو يقول :

ـ اننا ذوو رشاقة ولباقة •• لقد كنا فى أسرة طيبة كما أظن •

فقال أدولف :

ـ نعم • وكان لنا سيد يستطيع أن يشتريكم جميعـا بمركبة قديمة •

فقال سامبو :

ـ ويحكم ، فكروا الآن فى قيمتنا نحن ، نحن السادة المهذبين •

فقال أدولف بكبرياء :

ـ اننى أنتمى الى أسرة سانت كلير :

وهنا قال سامبو فى ابتسامة مثيرة للغضب :

ـ ويحك ؟ أحق هـذا ؟ اللعنة على اذا لم يكونوا الآن سـعداء بالتخلص منك • أعتقد أنهم سيبيعونك مع طائفـة من حطام أدوات الشاى وما اليها •

وأهاجت هذه الغمزة أدولف، فاندفع بعنف الى غريمه وهو يسبه، وراح يوجه له ضرباته فى كل مكان من جسمه • وتعـالت ضحكات الباقين وتعالى صراخهم مما أحضر أمين الوكالة الى الباب على هـذا

الضجيج ، ثم دخل الغرفة ليقول وهو يلوح بسوط كبير :

ـ ما هذا يا أولاد ؟ النظام ـ النظام ٠

وهرب الجميع متفرقين فى كل ناحية ، فيما عدا سامبو ٠ فقد كان يعتمد على ما له من مكانة خاصة عند سيده ، لأنه المهرج ، المرخص له بهذا ، فثبت فى مكانه وهو يروغ برأسه مداعبا باسما كلما هجم سيده عليه ٠ وكان يقول :

ـ تالله ان الذنب ليس ذنبنا ياسيدى ، اننا متزنون ثابتون على الدوام ، وانما الذنب ذنب هؤلاء الجدد ٠ انهم لم يكفوا عن التعريض بنا والسخرية منا ٠

وعندئذ استدار أمين الوكالة نحو توم وأدولف وراح يوزع عليهما اللكمات والركلات دون أن يعنى بسؤالهم ، وبعد أن أصدر أوامر عامة للجميع بأن يكونوا أولادا طيبين ، وأن يمضوا الى النوم ، انصرف من الغرفة ٠

وفيما كان هذا كله يجرى فى غرفة نوم الرجال ، قد يدفع الفضول بالقارىء الى أن يختلس نظرة الى الغرفة المقابلة المخصصة للنساء النائمات من جميع الألوان ، من الأبنوسى النقى الى الأبيض ، وفى جميع الأعمار ، من الطفولة ، الى الشيخوخة ، والجميع مستغرقات فى النوم ٠ فهنا صبية حلوة براقة البشرة فى العاشرة من عمرها ، بيعت أمها فى اليوم السابق ، وقد بكت فى هذه الليلة حتى غلبها النوم ، دون أن يلحظها أحد ٠ وهنا عجوز زنجية منهوكة القوى تنم أصابعها المتحجرة وذراعاها النحيلتان عن الكدح الشديد ، انها تنتظر أن تباع فى اليوم التالى كما تباع السلعة المنبوذة بأى ثمن يدفع فيها ٠ ونحو أربعين أو خمسين امرأة وفتاة مغطاة رءوسهن فى أوضاع مختلفة بالبطاطين أو بغيرها من أنواع الملابس ، كلهن راقدات حولهما ٠ وفى أحد الأركان ، بعيدا عن سائر النساء ، جلست امرأة وفتاة ذواتا مظهر يثير فى الناظر اليهما اهتماما غير عادى ٠ فالمرأة فى نحو الأربعين أو الخمسين من عمرها ، خلاسية الجنس ، محترمة الملابس ، رقيقة العينين ، ذات وجه رقيق طريف ٠ وكان على رأسها

عمامة عالية مصنوعة من وشاح أحمر براق من الحرير الهندى الممتاز ، وكان ثوبها الأنيق المحكم الفاخر يدل على أنها كانت موضع رعاية واهتمام • أما الفتاة التى لاذت بها ، والتصقت بجانبها ، فكانت فى نحو الخامسة عشرة : انها ابنتها ــ وكان يبدو من لون بشرتها الفاتح أنها خلاسية « ربع زنجية » وان كان التشابه بينهما وبين أمها واضحا لا خفاء فيه • فقد كان لها نفس العينين السوداوين الرقيقتين بأهداب أطول من أهداب أمها وكان شعرها ملتويا كستنائيا غزيرا ، وكانت أيضا أنيقة الثياب، ولم تكن يداها الرقيقتان البيضاوان تنمان أبدا عن عمل الخدم الشاق أو العناء • وكان المقرر أن تباع هاتان فى اليوم التالى مع عبيد سانت كلير كلهم • وكان الرجل الذى يمتلكهما ، والذى سينقل اليه المال الذى تباعان به ، عضوا فى كنيسة نيويورك ــ انه سيقبض ثمنهما ثم يمضى بعد ذلك الى الصلاة فى معبد ربه وربهما ، دون أن يشق على نفسه بالتفكير فيما فعل •

وكانت هذه المرأة وابنتها اللتان سنطلق عليهما اسمى : سوزان وايميلين خادمتين خاصتين لسيدة تقية طيبة المعشر فى نيو أورليانز لم تدخر وسعا فى العناية بهما وتعليمهما وتدريبهما على أساليب التقى والصلاح ، لقد علمتهما القراءة والكتابة ولقنتهما بجد حقائق الدين ، فكانتا من أسعد مايمكن أن يكون من هم فى مثل ظروفهما • ولكن ابن سيدتهما الوحيد كان هو الذى يدير أملاكها ، وقد أدى استهتاره واسرافه الى تراكم الديون عليها ، حتى أفلست آخر الأمر • وكان من أكبر الدائنين ، شركة محترمة هى « شركة ب• وشركاه » بنيويورك • وقد كتبت الشركة الى محاميها فى نيو أورليانز تطلب منه الاشراف على تصفية الممتلكات • فاستولى من فوره على أطيان السيدة وعقاراتها وعدد كبير من العبيد (وكانت المرأة وابنتها أهم من فى الضيعة) وكتب المحامى بذلك الى نيويورك ــ ولما كان الأخ « ب• أحد الشركاء » رجلا متدينا كما قلنا ومن سكان الولايات الحرة فى الشمال فقد شعر بالقلق لهذا السبب • فهو لم يكن يحب الاتجار فى العبيد ــ وفى أرواح الناس ــ انه طبعا لا يحب هذا ولكن الدين الذى كان للشركة يبلغ ثلاثين ألف دولار ، وهو مبلغ كبير لا يسهل النزول عنه استمساكا بمبدأ من المبادىء • وبعد تفكير طويل ،وبعد

التماس النصيحة ممن كان يعرف أنهم سينصحونه بما يريد ، كتب « الأخ ب » الى محـــاميه يطلب اتخاذ مايراه أنسب الاجـراءات ثم ارسال الثمن اليه ٠

وبعد يوم من وصول الخطاب الى نيو أورليانز ، أوقع الحجز على سوزان وايميلين ، وسيقتا الى الوكالة فى انتظار المزاد العـــام الذى سيجرى فى صباح اليوم التالى ٠ وفى وســـعنا الآن وبصرنا يقع على منظرهما غير الواضح وهما جالستان فى ضوء القمر المتسلل اليهما من أعواد النافذة أن ننصت الى حديثهما ٠ وكانت كلتاهمـــا تبكى ، ولكن فى هدوء وتخفف حتى لا تسمع احداهما بكاء الأخرى ٠

وقالت الفتاة أخيرا وهى تحاول أن تبدو هادئة :

ــ ضعى رأسك على حجرى وحاولى أن تنامى يا أماه ٠

ــ ان قلبى لا يطاوعنى على النوم يا ايم ٠ بل لا أســـتطيع النوم إذا حاولته ٠ فقد تكون هذه آخر ليلة نقضيها معا ٠

ــ لا تقولى هذا يا أماه ٠ فمن يعرف ٠٠ ربما نباع معا ٠

فقالت الأم :

ــ لو كان هذا الأمر يتعلق بأحد غيرنا ، لأمكننى أنا أيضـــا أن أقول هذا يا ايم ٠ ولكن خوفى من فقدك يجعلنى لا أرى غـير الخطر ماثلا أمامى ٠

ــ ولم يا أماه ؟ لقد قال الرجل أننا مناسبتان معا ، وأننا سنباع على الأرجح بثمن مرتفع ٠

وتذكرت سوزان نظرات الرجل وألفاظه ٠ تذكرت والفزع يملأ قلبها ، كيف كان ينظر الى يدى ايميلين ، ويرفع شعرها الملتوى ، ثم يعلن أنها قطعة من الدرجة الأولى ٠ وكانت سوزان قد ربيت تربية مسيحية ، وشبت وهى تقرأ كل يوم فى الكتاب المقدس ومن ثم كانت تفزع من التفكير فى انتقال ابنتها الى حياة العار ــ كما قد تفزع من ذلك أية أم مسيحية أخرى ولكنها لم يكن لهـــا رجاء فى شىء ــ ولم يكن لها نصير ٠

وقالت ايميلين :

ــ أماه ، اننا قد نصبح فى حالة طيبة جدا ، اذا أمكن أن تعملى طاهية وأعمل أنا وصيفة أو خياطة عند احدى الأسر · وأعتقد أننا سننجح فى هذا · ومن ثم فلنظهر أكثر مانستطيع من الانشراح والنشاط وأن نذكر كل ما يمكننا القيام به من أعمال · ولعلنابذلك نحصل على مانريد ·

فقالت سوزان :

ــ أريدك غدا أن ترسلى شعرك كله الى الخلف ·

ــ ولم يا أماه ، اننى بهذه الطريقة لا أبدو كما أنا الآن ·

ــ نعم ، ولكن ثمنك عند البيع سيكون حينئذ أعلى ·

فقالت الطفلة :

ــ انى لا أرى لذلك سببا ·

فردت عليها سوزان قائلة :

ــ السبب هو أن الأسر المحترمة تكون أكثر استعدادا لشرائك ، اذا بدوت بسيطة محترمة المظهر ، كأنك لا تحاولين أن تبرزى جمالك · فأنا أعرف أساليب هذه الأسر أكثر منك يا ايميلين ·

ــ سأفعل اذن ماتريدين يا أماه ·

ــ واسمعى يا ايميلين · اذا حدث وافترقنا الى الأبد بعد يوم غد ، أى اذا بعت ومضيت الى احدى الضياع فى مكان ما ، ومضيت أنت الى مكان آخر · فلا تنسى أبدا كيف نشأت ، وماذا كانت سيدتنا السابقة تقول · احتفظى معك بالكتاب المقدس ، وبكتاب التراتيل ، واذا أنت أخلصت لله ، فسوف يخلص لك ·

كانت المسكينة تقول هذا ، واليأس يملأ قلبها ، لأنها تعلم أن أى انسان بالغا ما بلغت بهيميته وقسوته وحقارته وجحود نفسه ، يمكنه أن يشترى ابنتها ، ان كان لديه مايكفى من المال ، ويصبح

بذلك مالكها ، جسما وروحا · فكيف تستطيع الفتاة في هذه الحالة، أن تخلص لله ؟ كانت المرأة تفكر فى هذا كله وهى تضم ابنتهـــا بين ذراعيها وتتمنى أنها لم تكن جميلة جذابة الى هذا الحد · لقد بدا لها أنه مما يزيد حزنها أن تفكر فى الطهارة والتقوى اللتين نشأت عليهما· وفى أنها ربيت تربية تسمو على سائر بنات جنسها · ولكنها لم يكن لها ملاذ آلا الصلاة والابتهال · وما أكثر الدعـــوات والصلوات التى صعدت الى الله من ســـجون العبيد المرتبة الأنيقة ، وهى دعـوات وصلوات لم تذهب سوى عند الله ، لأنه سيأتى اليـوم الذى تظهر فيه أثرها ، وذلك كما جاء فى كتابه « ومن أعثر أحد هؤلاء الصغار المؤمنين فخير له أن يعلق فى عنقه حجر الرحى ويغرق فى لجة البحر »

وظلت أشعة القمر الهادئة الرقيقـــة تطل على السجن ، فترسم قضبان النافذة على أجسام النائمات · وشرعت الأم وابنتها تترنمان بأنشودة محزنة قوية معروفة بين العبيد على أنها من أناشيد الجنائز:

« آه ــ أين مارى الباكية ··

« آه ــ أين مارى الباكية ··

وصلت الى الأرض الطيبة ·

« لقد ماتت وذهبت الى السماء

« لقد ماتت وذهبت الى السماء

ووصلت الى الأرض الطيبة ·

وأخذت هذه الكلمات المرتلة فى عذوبة وأسى ، وبأصوات تبـــدو كأنها زفرة يأس من الدنيا بعـــد رجاء علوى ، تنســاب فى غرفات السجن المظلمة ، بنغمة مؤثرة ، كلما تردد الشطر بعــد الشطر من أبياتها ·

« آه · أين بولس ·· أين سيلا ·

« آه · أين بولس ·· أين سيلا ·

لقد ذهبا الى الأرض الطيبة ·

« لقد ماتا وذهبا الى السماء

« لقد ماتا وذهبا الى السماء

ووصلا الى الأرض الطيبة ٠

***

واصلى الغناء ، أيتها النفوس البائسة ، فان الليل قصير ، والصباح سيفرق بينك الى الأبد أبد الدهر ٠

ولكن ها هو ذا الصباح ، والجمع كله يتحرك ، ان المستر سكجز مشغول مبتهج ، لأن الكثير من السلع الآدمية ستعرض فى يومه هذا بالمزاد ، وكان اهتمامه بشئون الزينة كبيرا ، فأصدر أوامره للجميع ليظهروا خير ما عندهم من نشاط وبهجة ، وها هم أولاء قد اجتمعوا فى حلقة كبيرة ليلقى عليهم نظرة أخيرة قبل أن يسوقهم الى البورصة ٠

وقام المستر سكجز ، والقبعة العالية على رأسه ، واللفافة الكبيرة فى فمه ، بجولة حول العبيد ، ليلمسهم لمساته الفنية الأخيرة ٠ وقد قال وهو يقف أمام سوزان وايميلين :

ـ ماهذا ؟ أين خصلات شعرك يافتاة ؟

ونظرت الفتاة فى وجل الى أمها ، فردت عليه بذلك الأسلوب البارع الرقيق المألوف بين بنات جنسها :

ـ لقد طلبت اليها فى الليلة الماضية ، أن تعنى بتصفيف شعرها وتجعله ناعما أنيقا أى بلا خصلات تتطاير هنا وهناك ، فان هذا يجعل منظرها أدعى الى الاحترام ٠

فقال الرجل فى لهجة آمرة وهو يستدير الى الفتاة :

ـ كلام فارغ ـ اذهبى يافتاة واعقصى شعرك وصففى خصلاتك بطريقة أجمل ٠

ثم أضاف الى قوله هذا وهو يفرقع بسوط فى يده :

– ثم عودى فى أسرع وقت ·

وأردف قائلا لأمها :

– واذهبى أنت وساعديها ، فان خصلات شعرها هـــذه قد تزيد ثمنها مائة دولار ·

وكان تحت القبة الفاخرة فى البورصة رجال من جميع الاجناس ، يروحون ويجيئون على الأرض الرخامية وكان على جميـــع جوانب الفضاء الدائرى الشكل منصـــات صغيرة يقف عليهـــا الخطبـاء والدلالون · وكانت ثمة اثنتان من هذه المنصات فىموضعين متقابلين مشغولتين الآن باثنين من هؤلاء السادة النجباء النصحاء ، ينطقـان بقوة شديدة ، وبلغة هى خليط من الانجليزية والفرنسية ، بأسعار الخبراء لمختلف البضائع · وكان ثمة منصة ثالثة ، لم تشغل بعد ، على جانب من الفضاء ، يحيط بها جماعة فى انتظار بدء المزاد ·وهنا تستطيع أن تتعرف على خدم سانت كلير – توم وأدولف وغيرهمـا · وكانت معهم أيضا سوزان وايميلين تنتظران دورهما ، وتبـــدو على وجهيهما سمات القلق والحزن · واجتمع حول هذه الجمـاعة ، عدد كبير من النظارة ينوون الشراء أو لا ينوون ، حسب الظروف ،وكانوا يفحصون ، ويقلبون ، ويبدون آراءهم عن مميزات أو نقائص هـــذا العبد أو تلك الجارية بنفس الحرية التى يقلب بها أى جمـــاعة من فرسان السباق يتناقشون فى مميزات أحد الجياد ·

وقال شاب متأنق وهو يضرب بكفه كتف شاب آخر أكثر تأنقا ، ويفحص أدولف بمنظار :

– ما الذى جاء بك الى هنا يا ألف ؟

– كنت أريد خادما خاص بى · وقد سمعت أن عبيد سانت كلير كلهم سيعرضون اليوم فى المزاد ، فخطر لى أن آتى وأشهد ··

فقال الآخر :

– اننى شخصـــيا لا يمكن أن أفكر فى شراء عبـد أو جارية من ممتلكات سانت كلير · أنهم جميعا زنوج فسدوا بالتدليل وأن كل واحد منهم أشد وقاحة من الشيطان ··

فقال صاحب المنظار :

ـ لا تخش شيئا من هـذا • اننى اذا اشتريت واحـدا منهم ، فسأعرف كيف أكسر شوكته وأجعله يدرك أنه يتعامل مع سيد آخر غير سيده ذاك سانت كلير ، وقسما سأشترى هذا الشـاب ، فان منظره يعجبنى •

ـ نسوف تجـد اذا اشتريته أن مواردك المـالية لا تكفيـه ، انه شديد الاسراف •

ـ نعم • ولكنه بشرفى لن يلبث حتى يعـرف أنه لن يكون مسرفا عندى • يكفى أن أبعث به بضع مرات الى مركز الجلد ، ليؤدب فيه التأديب الكافى ، وعندئذ سأخبرك هـل اعتدل واسـتقام وعرف واجبه • نعم سأصلح أمره ، وأقلب أخلاقه رأسا على عقب • وقـد قررت أن أشتريه بلا نزاع •

وكان توم واقفـا فى اكتئاب يتفحص جموع الوجـوه الـكثيرة المتزاحمة حوله ، يبحث عن واحد منهم يحب أن يكون له سـيدا • واذا حدث أن اضطررت ـ ياسيدى ـ يوما لأن تختـار من بين نحو مائتى رجل ، واحدا ليكون المالك لك والمتصرف الوحيـد فى أمرك فقد تدرك ، كما أدرك توم ، قلة عدد الرجال الذين يمكن أنتستريح للانتقال اليهم • لقد رأى توم كثيرا من الرجال : رأى الضـخام ، والعراض والغلاظ ، ورأى الضـآل والنحاف والعجاف والطـوال والأشداء ، ورأى كل صنف ولون من رجال عاديين ينم مظهرهم على أن الواحد منهم قد يلتقط زميلا له كما يلتقط عود قش ، ويضعه فى النار أو فى سلة دون أن يختلج فيه عصب واحد ، لا يفرق بين هذه وتلك مادام هذا يتفق ومزاجه • ولكنه لم ير بينهم من يماثل سانت كلير •

وقبيل بدء المزاد شق طريقه بين الجمع رجل قصير عريض مفتول العضلات فى قميص مربعات مفتوح كثيرا عند صـدره وسروال قذر بال سيء الحال ، وكأنه مقبل على عمل هام • فلما وصل الى هـذه الجماعة أخذ يفحصها فحصا منظما • ومنذ اللحظـة التى رآه توم

مقبلا ، أحس من فوره بفزع منه رهيب ، ظل يزداد كلما تقدم الرجل نحوه . وكان يلوح ـ رغم تصرفاته ـ شديد القوة ، فرأسه المستدير المستطيل وعيناه ذواتا اللون الرمادى الخفيف بحواجبهما الشعثاء التى بلون الرمال ، وشعره الشاحب الجاف الخشن ـ كانت كلها ، فى الحقيقة ، من المظاهر المنفرة للرائى . وكان فمه الكبير الغليظ مشوها لكثرة مضغه أوراق التبغ التى كان يبصق عصارتها السوداء بين الحين والآخر بقوة عنيفة واصرار عنيد. أما يداه فكانتا ضخمتين، مشعرتين ، قد لوحتهما الشمس ، مرقطتين ، قذرتين ، ومشوهتين بأظافر طويلة فى أسوأ حال . أخذ هذا الرجل يقوم بفحص كامل شامل لهذه المجموعة . لقد أمسك توم من فكه ، وفتح فمه الى آخره ليفحص أسنانه ، وجعله يشمر أكمامه ليرى عضلاته ، وأداره وطلب اليه أن يثب ويقفز ليعرف مدى اتساع خطوته .

وأضاف الى هذا الفحص قوله بايجاز :

ـ أين نشأت ؟

فقال توم وهو يتلفت حوله كأنما يلتمس الخلاص :

ـ فى كنتكى ياسيدى .

ـ وبماذا اشتغلت ؟

فأجاب ثوم بقوله :

ـ بالاشراف على مزرعة سيدى .

فقال الرجل فى ايجاز وهو ينتقل الى غيره :

ـ معقول .

ثم وقف لحظة أمام أدولف ، ثم قذف ببصقة من عصير التبغ على حذائه الأسود اللامع وأعرب بأنفه عن شدة احتقاره ، ثم مضى فى طريقه . ثم وقف أمام سوزان ، وايميلين ، ومد يده الثقيلة القذرة، وجذب الفتاة نحوه ومر بيده على عنقها وصدرها ، وتحسس ذراعيها، ونظر الى أسنانها ، ثم دفع بها الى أمها وكان وجهها الصبور ينم على

مدى ما تعانيه من عـــذاب ازاء كل حركة تصـــدر من ذلك الغريب البشع ·

وفزعت الفتاة ، وبدأت تبكى · وعندئذ قال الدلال :

ـ اسكتى أيتها الفاجرة ، لا مجال للبكاء هنا ··فان المزاد سيبدأ·

وفعلا بدأ المزاد ·

وبيع أدولف بثمن مرتفع لذلك الشاب الذى أعرب من قبـل عن رغبته فى شرائه ، وبيعت بقية خدم سانت كلير الى مشترين مختلفين·

وهنا قال الدلال لتوم :

ـ والآن هيا يا ولد تقدم · أتسمعنى ؟

وصعد توم الى منصة العرض ، وأرسل بعض نظرات مفعمة بالقلق حوله ، وبدا له كل شىء مختلطا ممتزجا فى صوت واحـــد غامض ، صياح الدلال وهو يعـــدد مزاياه باللغتين الانجليزية والفرنسية ، والمزايدات المنطلقة بعنف بالانجليزية والفرنسية ، كذلك ، وما هى الا لحظة حتى دقت مطرقة الدلال الدقة الأخيرة مصحوبة بهذا المقطع الأخير من كلمة « دولار » الذى تردد فى وضوح ، حين أعلن الدلال السعر الأخير · وهكذا بيع توم ، وغدا ملك سيد جديد ·

ودفع بعيدا عن منصـــة العرض ، وأمسك به الرجل القصـــير المستطيل الرأس ، بعنف من كتفه ، ودفع به جانبا وهـــو يقول له بصوت غليظ :

ـ قف هنا يا هذا ·

ووقف توم وهو لا يكاد يدرك شيئا ، ولـكن المزايدات استمرت واستمر معها الصخب والضجيج، تارة بالفرنسية وطورا بالانجليزية، وتنزل المطرقة بالدقة الأخيرة وتباع سوزان ، فتهبط عن منصـــة العرض ، وتقف ، تنظر فى حزن وراءها ، وترى ابنتها تمد يدهـــا اليها ، وتتطلع فى ألم شديد الى وجه الرجل الذى اشتراها ، وكان

رجلا محترما فى منتصف العمر ، ينم وجهه عن الطيبة والكرم · ثم تقول له :

ــ ياسيدى ، أرجوك أن تشترى ابنتى ·

فقال الرجل وهو ينظر فى اهتمام أليم الى الفتاة وهى تصعد الى منصة العرض ، وتتلفت حولها فى خوف ووجل :

ــ كنت أرجو هذا ، ولكنى أخشى ألا أستطيع أداء الثمن ·

وارتفعت الدماء بقوة الى خد الفتاة الذى كان شاحبا من قبل وتألقت عيناها من شدة الانفعال ، وأنت أمها وهى تراها أجمل مما رأتها فى أى يوم من أيامها السابقة · ورأى الدلال فى هذا فرصته المواتية ، فراح يبالغ فى الوصف بالانجليزية والفرنسية ، وأخذ السعر يرتفع بسرعة متتالية ·

وقال السيد ذو الوجه السمح وهو يتقدم ويشترك فى المزايدة :

ــ سأبذل كل جهد ممكن ومعقول ·

ولكن الثمن لم يلبث بعد لحظات ، أن ارتفع فوق ما يستطيع أداءه ، فلزم الصمت وازدادت حماسة الدلال، ولكن المتزايدين أخذوا يتراجعون الواحد بعد الآخر ، حتى لم يبق الا صاحبنا ذو الرأس المستطيل ، وأحد السادة الأثرياء بالمدينة · وزايد السيد الكبير بضع مرات وهو ينظر باحتقار الى منافسه، ولكن ذا الرأس المستطيل تفوق عليه باصراره وبوفرة المال الذى فى جيبه · ولم تستغرق المزايدة غير لحظة دقت بعدها مطرقة الدلال ، وظفر الرجل بالفتاة ، جسما وروحا ، الا اذا ساعدها الله ·

وكان سيدها هذا هو المستر لجرى ، الذى يمتلك مزرعة قائمة على ضفة النهر الأحمر · وقد دفعت فى صف واحد مع مجموعة فيها توم واثنان آخران ، وسارت الفتاة وهى تبكى ·

وأسف الرجل الطيب لما حصل ، ولكن ، أليس هذا ما يحدث كل يوم ؟ ألا يرى المرء دائما فى مثل هذه المزادات الفتيات يفترقن عن

الأمهات ، وكلهن باكيات • ويقول على الدوام ان هذه أمور لا مندوحة منها وما الى ذلك ، ثم يمضي بمشترياته ، في اتجاه آخر •

وبعد يومين ، أرسل محامي شركة « ب• وشركاه » المسيحيين في نيويورك ، بما لهم من مال في صك • ولكن كان عليهم أن يكتبوا ، على الوجه الآخر من ذلك الصك ، هذه الكلمات التي سوف يحاسبون بها أمام المنتقم الجبار في يوم آت لا ريب فيه •

« لأنه مطالب بالدماء • ذكرهم • لم ينس صراخ المساكين »

الفصل الحادى والثلاثون

الطريق الأوسط

« عيناك أطهر من أن تنظرا الشر ، ولا تستطيع النظر الى الجور ، فلم تنظر الى الناهبين وتصمت حين يبلع الشرير من هو أبر منه »

فى الجزء الأدنى من سفينة صغيرة حقيرة تنساب على صفحة النهر الأحمر ، جلس توم ــ والأغلال فى يديه والسلاسل فى قدميه، وفى أعماق قلبه ما هو أثقل من الأغلال والسلاسل . لقد غرب كل شىء عن سمائه : القمر والنجم . ومر كل شىء أمام عينيه ، كما كانت تمر الأشجار والشواطىء الآن على ألا تعود . مر به بيته فى كنتكى ، وبه زوجته وأبناؤه ، وسادته المتسامحون هناك . ومر به بيت سانت كلير بكل ما فيه من رواء وبهاء ورأس آيفا بشعرها الذهبى ونظراتها الشبيهة بنظرات القديسين ، وسانت كلير الجميل المترفع ، الذى كان يبدو مستخفا بكل شىء ولكنه عطوف على الدوام. ومرت به أوقات الراحة والتسامح والفراغ الممتع .. كل هذا قد مضى وراح . وماذا بعد ذلك يبقى فى موضعه ؟

ان من أقسى مساوىء الرق وما يكون من حظ الأرقاء أن الزنجى العطوف السهل الاندماج فى بيت نشأ فيه بعد أن يتطبع بالأذواق والمشاعر التى تشيع فى جو أسرة رقيقة عاش فى ظلها ، نقول ان من أقسى مساوىء الرق أن هذا الزنجى نفسه ينتقل الى ملكية أغلظ الناس وأشدهم وحشية ، كما ينتقل مقعد أو منضدة ، كانا زينة لأفخم الأبهاء ، مشوهين محطمين الى غرفة شراب فى حانة قذرة أو فى بعض الأماكن الموبوءة بالفجور المنحط . ولكن الفارق الكبير

هو أن المنضدة أو المقعد لا تستطيع الاحساس ، أما الانسان فيستطيع ذلك لأنه حتى القانون المسنون الذى ينص على أنه سيكون « فى حكم القانون معدودا مجرد سلعة آدمية » لا يمكن أن يمحو روحه بما تحويه من عالم ذكرياته وآماله وغرامه ومخاوفه ورغباته ٠

وكان المستر سيمون لجرى ، سيد توم ، قد اشترى العبيد من هذا المكان أو ذاك فى نيو أورليانز ، حتى بلغ عددهم ثمانية ٠ ثم ساقهم ، مقيدين فى أيديهم بالأغلال ، مثنى مثنى الى سفينة البضائع التجارية « بايريت » (القرصان) الراسية فى المرفأ ، على استعداد للرحلة نحو مصب النهر الأحمر ٠

فلما نقلهم بسلام الى سطح السفينة ، وبدأت هذه رحلتها ، مضى هو نحوهم تلوح على وجهه سيماء المقدرة التى تميزه على الدوام عن غيره ليستعرضهم ٠ ووقف أمام توم ، الذى هيىء للمبيع بأن ألبس أحسن حلله ، وقميصه المكوى المنشى ، وحذاءه اللامع ٠ وقال الرجل بايجاز :

ـ قف ٠

ووقف توم ٠ وقال له الرجل آمرا :

ـ اخلع هذه البنيقة ٠

ولما تعثرت يدا توم المغلولتان فى خلع البنيقة من عنقه ، ساعده الرجل فى جذبها بخشونة ، ثم وضعها فى جيبه ٠

وهنا تحول لجرى الى حقيبة ملابس توم الكبيرة ـ وكان قد قلبها قبل ذلك ـ ثم تناول منها سروالا قديما وسترة بالية كان توم يرتديهما أثناء قيامه بالعمل فى مربط الخيول ، وقال له وهو يفك القيد عن يديه ويشير الى فرجة بين الصناديق

ـ اذهب الى هذا المكان ، وارتد هذه الملابس ٠

ولما أطاع توم الأمر وعاد بعد لحظات قصار ، قال له الرجل :

ـ اخلع نعليك ٠

وخلع توم نعليه · وهنا ألقى الرجل اليه بنعلين خشنين غليظين من النوع الشائع استعماله بين العبيد ، وقال له :

ــ ارتد هذين ·

ولم ينس توم ، رغم تعجله فى استبدال ملابسه ــ أن ينقل كتابه المقدس العزيز عليه الى جيبه · وحسنا فعل · لأن المستر لجرى ، بعد أن أعاد وضع الأغلال فى يديه راح يفتش محتويات جيوبه بدقة، فأخرج منديلا حريريا ووضعه فى جيبه هو ، وكانت هناك أشياء صغيرة بسيطة · يعتز بها توم لأنه طالما أبهج ايفا بها ، ولكن الرجل نظر اليها فى احتقار ، وقبع كما يقبع الخنزير وألقى بها وراء ظهره الى النهر ·

وعثر الرجل على كتاب الترانيم الدينية الذى نسيه توم فى اضطرابه ، فأمسك به وراح يقلبه ويقول :

ــ هه ؟ اذن فأنت تقى ورع؟ ما اسمك ؟ أتنتمى الى الكنيسة ؟ آه ؟

فقال توم بثبات :

ــ نعم ياسيدى ·

ــ لسوف أعرف كيف أنزع منك تقواك فى أسرع وقت · فأنا لا أطيق وجود زنوج صاخبين مصابين مرتلين فى مزارعى · وعليك أن تذكر هذا · والآن · احترس لنفسك ·

قال هذا وهو يضرب الأرض بقدمه ، ويلقى على توم نظرة وحشية من عينه السنجابية اللون ثم مضى يقول :

ــ اننى الآن كنيستك · أتفهم هذا ؟ وعليك أن تكون كما آمرك ·

وأجاب شىء فى أعماق الرجل الأسود الصامت يقول « لا » ثم اذا هو يسمع هذه الكلمات تردد على مسامعه مرة أخرى بصوت خفى · انها كلمات نبوءة قديمة طالما قرأتها ايفا عليه « لا تخف لأنى فديتك ، دعوتك باسمك · أنت لى »

ولكن سيمون لجرى لم يسمع صوتا • لأن ذلك الصـــوت من الأصوات التى لن يسمعها أبدا • وكل ما فعــل أن حملق برهة فى وجه توم الحزين ، ثم مضى وأخذ معـــه حقيبة ملابس توم الكبيرة المحتوية على عــــدد كبير من الملابس الفاخرة ، ومضى بهـا الى مقدمة السفينة حيث أحاط بها عدد من البحـــارة الذين راحوا يضحكون ساخرين من الزنوج الذين يحاولون أن يتشبهوا بالسادة ، وسرعان ما بيعت الملابس لهذا وذاك ، ثم عرضت الحقيبة الفارغة آخر المزاد، وكان الجميع يرون فيما حدث دعابة مثيرة للضحك ، لا سيما منظر توم وهو يتطلع الى حاجياته أثناء انتقالها الى هذا أو اذاك • وأخـيرا بدأ المزاد على الحقيبة الذى كان أدعى الى المرح والضحك من كل شيء سواه والى الكثير من الغمزات واللمزات •

ولما انتهت هذه العملية الصـغيرة ، عاد سيمون الى عبيـده وقال لتوم :

ـ لقد خلصتك الآن ياتوم من هذا المتاع الزائد كما ترى •وعليك أن تعنى كثيرا بما عليك من ثياب الآن ، لأنك لن تظفر بغـيرها الا بعد مدة طويلة • فقد تعودت أن أعلم الزنوج كيف يهتمون بملابسهم، لأنى لا أقدم للواحد منهم غير حلة واحدة فى العام •

ثم مضى سيمون الى المـكان الذى جلست فيه ايميلين مقيـــدة بالأغلال الى امرأة أخرى ، وقال لها وهو يربت بيده ماتحت ذقنها :

ـ ياعزيزتى • احتفظى بروحك المعنوية العالية •

ولكن النظرة غير الارادية المفعمـة بالرعب والحزن والنفور التى ألقتها الفتاة عليه لم تند عن عينه ، فقال فى تجهم شديد :

ـ دعك من هذه السخافات يا فتاة • عليك أن تظهرى البشاشـة حين أتحدث اليك • أتســمعين ؟ وأنت ، أيتها العجوز الصــفراء المجنونة •

ثم لكز المرأة الخلاســية المقيدة فى أغلال واحـــدة مع ايميلين ومضى قائلا :

ـ انني لا أحب أن أرى وجهك هكذا ، يجب أن تبسطي ملامحك ، لقد أنذرتك ٠

ثم تراجع الى الوراء خطوة أو اثنتين وقال للجميع :

ـ أقول لكم جميعا ٠٠ انظروا الى عيني مباشرة ٠٠ مباشرة ٠

وكان يضرب الأرض بقدمه ، كلما وقف عن الكلام بعد النطق بكلمة ٠ وتركزت عيون الجميع ، كأنها مشدودة بأربطة خفية ، على عيني سيمون الرماديتين البراقتين ٠

وعاد يقول وهـــو يضم قبضته الثقيلة الضخمة وكأنهـا مطرقة حداد :

ـ والآن ، هل ترون هذه القبضة ؟ انها ثقيلة ٠

ثم أهوى بها على يد توم ومضى قائلا :

ـ انظروا الى عظام هذه اليد ٠ أؤكد لكم أن لقبضتي هـــذه قوة الحـــديد حين تهوى على الزنوج ٠ انني لم أر بعـد الزنجي الذي لا أستطيع أن أصرعه بضربة واحدة من هذه القبضة ٠

قال هذا وهو يهبط بيده قريبا من وجه توم فطرف هـذا بعينه وتراجع واجفا ٠ ومضى سيمون يقول :

ـ انني لا أستخدم أحدا من رؤساء العمال الملعونين ، لأني أتولى بنفسي الاشراف على العمل ، وأؤكد لكم انه اشراف حازم ٠ ولهـذا فان على كل واحد منكم أن يقوم بما سيعهد له من عمـــل في سرعة ونشاط ساعة أن يسمع الأمر ٠ هذه هي الطريقـــة التي يمكن أن تعيشوا بها معي ٠ انكم لن تجدوا في طبيعتي جانبا لينا أبدا ذلك لأنني لا أعرف ما هي الرحمة ٠

وشهقت المرأتان رغما عنهما ، وجلس العبيد جميعا بوجوه حزينة مكتئبة بينما استدار سيمون ومضى الى مشرب الســفينة ليحتسي بعض الشراب ٠

وقال لرجل تبدو عليه مظاهر السيادة كان واقفا بجانبه وهو يتحدث الى العبيد :

ـ هذه هى طريقتى التى أبدأ بها معاملة عبيدى . فنظامى هو أن أبدأ معاملتهم بالشدة حتى يعرفوا ماذا ينتظرهم .

فقال الغريب وهو ينظر اليه بتشوف العالم الطبيعى الذى يفحص عينة غير عادية :

ـ أهكذا ؟

ـ نعم هكذا . فأنا لست من الزراع أمثالكم اللطاف السمجين ذوى الأصابع الرقيقة . أننى لا أكتفى بالتبختر وأضع شئونى بين يدى رئيس عمال مخادع مراوغ . انظر الى عقل أصابعى ، والى قبضتى . ألا ترى اللحم فيها قد أصبح كالحجر لفرط استعمالها فى ضرب العبيد . تحسسها .

ووضع الرجل الغريب أصابعه على هذه الأداة التى كان يتحدث عنها وكان كل ما قاله :

ـ انها شديدة الصلابة وأظن أن المران قد حجر قلبك مثلها .

فقال سيمون وهو يقهقه ضاحكا :

ـ نعم ، يمكننى أن أقول هذا . وأعتقد أنه ليس هناك من هو أشد مراسا منى . وأؤكد لك أننى لا أنخدع أبدا ، ولا يمكن للعبيد أن يخدعونى أيضا أيا كانت وسيلتهم للخداع . هذه هى الحقيقة .

ـ يبدو أنك اشتريت هذه المرة مجموعة طيبة .

ـ نعم . هذا حق . فان فيهم توم هذا وقد قيل لى ان له صفات غير عادية . وقد زدت فى ثمنه قليلا لأجعل منه سائق مركبة ، لا مشرفا على الأعمال . ولكننى أريد أن أنزع منه الأفكار التى تعلمها لأنه تعود معاملة لا ينبغى أن يعامل بها العبيد . وسيكون بعدئذ صالحا جدا . وتلك المرأة الصفراء ، لقد رست على فى المزاد ، وأعتقد أنها مريضة ولكنى سأعهد اليها بعمل يناسب قيمتها . انها قد

تعيش عاما أو عامين • فأنا لست ممن يبقون عـــلى العبيـــد • بل أستعملهم وأستهلكهم ، وأشترى غيرهم • هذه طريقتى • فهى تقلل من متاعبى • ولا شك عندى فى أنها أرخص من غيرها فى النهاية •

وأخذ سيمون يرتشف كأسه •

وقال الغريب :

ــ وكم سنة يعيشها العبد عندك بوجه عام ؟

ــ لست أدرى على وجه التحديد • فالأمر يتعلق بقوة بنيتهم • فالعبد القوى قد يعيش معى ستة أعوام أو سبعة ، أما الضعيف فقد أستـــهلكه فى عامين أو ثلاثة أعوام • وكنت فى بدء عهدى بالعمـــل أشغل نفسى بأمرهم كثيرا وأحاول أن أطيل عمرهم • فأعالجهم اذا مرضوا ، وأعطيهم الكفاية من الملابس والأغطية وما الى هذا ،وأحاول أن أجعلهم يعيشون عيشة طيبة وفى راحة ولكنى والله لم أجد فى هذا كله فائدة • لقد ضيعت الكثير من أموالى عليهم ، وعانيت منهم كثيرا من المتاعب • أما الآن ، كما ترى ، فانى أسوقهم الى العمل ، سواء كانوا مرضى أو أصحاء ، فاذا مات زنجى اشتريت غيره، وقد وجدت الأمر على هذا النحو أرخص وأسهل من جميع الوجوه •

واستدار الرجل الغريب ، وجلس بجانب ســيد كان ينصت الى هذا الحديث فى قلق مكتوم • وقال له الغريب :

ــ لا تنظر الى هذا الرجل على أنه أنموذج لجميـــع المزارعين فى الجنوب •

فقال السيد الشاب فى لهجة تأكيد :.

ــ أرجو ألا يكون هذا •

فقال الأول :

ــ انه رجل حقير دنىء وحشى الطباع •

ــ ومع ذلك فان شرائعكم تجيز له أن يمتلك أى عدد من المخلوقات البشرية ليكونوا خاضعين لارادته المطلقة ، دون أى ظل من الحمـــاية

ومهما تكن وحشيته فانكم لا تستطيعون أن تقولوا انه لا يوجد لديكم الكثير من أمثاله ٠

فقال الآخر :

ــ نعم ٠ ولكن بين المزارعين أيضا كثيرون من الطيبين الرحماء ٠

فقال الشاب :

ــ ليكن هذا ٠ ولكنني أرى أن هؤلاء الكرام الرحماء هم المسئولون عن ألوان هذه القسوة والوحشية التى يرتكبها أولئك الأشقياء ٠ ذلك أنه لولا رضاكم ونفوذكم لما استطاع هـــذا النظام أن يستمر ساعة واحدة ٠ فلو أن المزارعين كانوا جميعا مثل هذا الرجل ٠٠

وأشار باصــبعه الى لجزى الذى كان واقفـــا بظهره اليهم ومضى يقول :

ــ لانهار النظام كله من أساسه فى أسرع وقت ٠ ولكن رحمتكم وطيبة فعالكم هما اللتان تحميان هذه الوحشية وتسمحان بوجودها ٠

فقال المزارع وهو يبتسم :

ــ لا شك أنك تحسن الرأى فى طبيعتى السمحة ٠ ولكننى أنصحك ألا تتحدث بصوت عال ٠ فان على ظهر السفينة رجالا لا يتسامحون فى هذه الآراء كما أتسامح فيها أنا ٠ ولهذا يحسن بك أن تنتظر حتى أصل الى مزرعتى ، وهناك يمكنك أن تشتمنا كما تريد ٠

واضطرم وجه الشاب خجلا وابتسم ٠ وسرعان ما انشغل الاثنان فى لعب « الطاولة » وفى خـــلال هذا كانت محـــادثة أخرى تدور فى الجانب الأدنى من السفينة بين ايميلين والمرأة الخلاسية المشـــدودة معها فى أغلال واحدة ٠ وكان طبيعيـــا أن تتبادل الاثنتـــان بعض التفاصيل عن تاريخ حياة كل منهما ٠ وقالت ايميلين :

ــ من كان مالكك ؟

ــ آه ٠ كان سيدى يدعى المستر ايليس ، ويقيم فى شارع ليفى ، ولعلك رأيت بيته ٠

ـ هل كان يحسن معاملتك ؟

ـ غالبا · حتى مرض ، وقد ظل معرضا لنوبات المرض أكثر من ستة أشهر · وكان يعانى آلاما شـــديدة ، وبدا أنه لم يكن يحب عندئذ أن يستريح أحد ليلا أو نهـارا · وبلغ من غرابة تصرفاته أنه لم يكن يرضى عن أحد · وأخذ يزداد غلظة كل يوم فكان يرغمنى على السهر طوال الليل حتى انهارت صحتى ، ولم أعد أقوى على السهر أبدا · ولمـــا اضطررت الى النـــوم غضب على فى ليلة وأخبرنى أنه سيبيعنى الى أقسى رجل يمكن أن يعثر عليه ·وكان قد وعد بتحريرى بعد وفاته ·

وسألتها ايميلين :

ـ وهل كان لك أصدقاء ؟

ـ نعم · زوجى · وهو حداد ، وكان سيدى يؤجره عادة للعمـــل عند غيره · وقد عرضونى للبيع بسرعة حتى لم أجد الوقت الـكافى لرؤيته · ولى أربعة أبناء ·

ثم قالت المرأة وهى تغطى وجهها بيدها :

ـ ويلاه ·

ان من طبيعة كل انسان حين يسمع قصة مؤلمة ، أن يفكر فى شىء يقوله على ســـبيل التهوين والعزاء · وقد أرادت ايميلين أن تقـــول شيئا من هذا القبيل ولكنها لم تجد ما تقول · وماذا يمكن أن يقال· وكأنهما قد اتفقتا فيما بينهما فتجنبتا ـ فى خوف وفزع ـ أية اشارة الى ذلك الرجل الرهيب الذى غدا الآن سيدا لهما ·

نعم ان الايمان ليملأ النفس بالثقة حتى فى أحلك الساعات · لقد كانت المرأة الخلاسية عضوا فى الكنيســـة المتدية وكانت على جانب كبـــير من التقوى غير المستنيرة · وكانت ايميلين قد تربت تربيـــة أرقى · تعلمت القراة والكتابة ، وتولت سيدتها الســـابقة ، التقية الورعة تدريس الكتاب المقدس لها بعناية وجد ، ومع ذلك ألا يزعزع ايمان أشـــد الناس تدينا حين يجد نفسه مهمـــلا ، حتى من الله

فى ظاهر الأمر ، وفى قبضـــة مخلوق ظالم غشـــوم لا يرحم ، فما بالك اذا كان الشخص من صغار السن المساكين الذين لم ينالوا الا قسطا ضئيلا من المعرفة • لا شك أن هذا سـيكون أكثر زعزعة لايمانهم •

ومضت السفينة قدما محملة بشحنتها من الأحزان ، مصعدة فى التيـار العكر المضطرب ، تشق طريقهـا فى المنعطفات والمنحنيـات الشديدة الخطرة الغادرة فى النهر الأحمر • وأخذت عيون حزينة ترسل نظراتها فى أنم واعياء الى الضفاف الطينية الحمراء ، الوعرة المنحدرة، وهى تنساب فى تماثل ممل • ثم وقفت السفينة آخر الأمر عند بلدة صغيرة ، وهبط منها لجرى ومن معه •

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٩	٢	يا ابنة	يابنة
٢٤	١٣	الأشبياء	الأشياء
٢٧	٢٤	أفنينة	أقنينة
٢٧	٢٥	آنسنى	آنستى
٣١	٦	لأم	تام
٣١	١٥	الغذاء	الغداء
٤٠	٢٨	نم	من
٤١		يحذف السطر الأول	
٤٥	١	لم	ثم
٧١	٦	ششانها	شأنها
٧٤	١٤	الذرج	الدرج
٧٨		يوضع السطر رقم ٢٥ قبل السطر رقم ٢٤	
٧٩	١٠	عيززتى	عزيزتى
٨٥	٥	لرأى	الرأى
٩٣	١٧	استداار	استدرار
٩٨	٢٩	مشباعره	مشاعره
١٠٢	١٥	يهنتم	يهتم
١٠٣	١٢	للعمل	للعمال
١٠٥	١	تنطىء	تنطفىء
١٠٥	٤	الأكمة	الأكمه
١١٠	١	فلى	فى
١١٢	١	يمنهنونها	يمتهنونها
١١٥	٥	عيينه	عينيه
١١٧	١٦	لوحة	لوحه
١١٩	٤	أكب	أكتب
١١٩	٢٤	يواصن	يواصلن
١٢٣	٦	نهم	منهم
١٢٥	٩	ورت	ورأت
١٢٥	٢١	عيه	عليه
١٣٣	١٠	أخبريننى	أخبرينى
١٤٢	١٨	لله	الله
١٥٢	٧	سهية	شهية
١٥٣	٧	مشبدة	مشدودة
١٥٤	٧	ك ن	كان
١٥٤	٢٠	عينه	عيناه
١٥٥	١٨	مك ن	مكان
١٥٦	١٢	السم ء	السماء
١٥٦	٢٢	صفحا	صفحة
١٦٨	١٣	م يمكن	ما يمكن
١٧١	٢	ساكسونى	ساكسون
١٧١	١٤	مثلا قديما	مثل قديم
١٧٣	١٥	انتا	اتنا
١٨٣	١٩	مالذى	ما الذى
١٨٥	٧	م لها	مالها
١٨٦	٦	به	بها
١٨٨	٥	ذاا	اذا
١٨٩	١٢	تجسست	تحسست
١٩٢	١	لغرفة	الغرفة
١٩٢	١٨	لو نك	لو أنك
١٩٨	٢٤	اغبتى	رغبتى
٢٠٧	١٠	لكريمة	الكريمة
٢١٣	٢٤	وذك	وذلك
٢١٧	٧	ذك	ذلك
٢١٨	١٢	تتسكب	تنسكب
٢١٩	٢	صباب	ضباب
٢٢١	٢	نيحى	ويحى
٢٢٤	١٥	شي ! ا	شيئا
٢٣٤	٢٤	واذ	واذا
٢٤٣	٣	تنبهه	تنبيهه
٢٤٦	٧	طا ا	طالما
٢٤٨	١٥	آياه	اياه
٢٤٩	١٠	الشاع	الشارع
٢٥٥	٩	من هفة	مرهفة
٢٦٤	٨	نشمها	تشمها
٢٧٤	٨	سوى	سدى
٢٨٨	٨	فالىبد	فالعبد



مطبعة أطلس
١١ ـ ١٣ ش سوق التوفيقية